تفسـير

التحليل الروائـي

لـ سـورة المائدة

عبد الباقـي يوسـف

فهرس المحتويات

مقدمـة		
الباب الأول	عقد الإيمان	
الباب الثاني	الخسارة	
الباب الثالث	مسك الطهارة	
الباب الرابع	العدل والشنآن	
الباب الخامس	الضلال	
الباب السادس	مِتان	
الباب السابع	بنو إسرائيل	
الباب الثامن	التقوى والطغيان	
الباب التاسـع	لوثة السرقة	
الباب العاشـر	القسط	
الباب الحادي عشر	الاختبار	
الباب الثانـي عشـر	حكم الله	
الباب الثالث عشـر	مرض القلوب	
الباب الرابع عشر	منهج الولاية	
الباب الخامس عشر	مسؤولية أهل العلم	
الباب السادس عشـر	المشيئة الإلهية في الإنفاق	
الباب السابـع عشـر	البلاغ	
الباب الثامـن عشـر	التوحيد	
الباب التاسـع عشـر	عسل الطيبات	
الباب العشرون	الصيد	
الباب الواحد والعشرون	الهداية	

هذا الكتاب هو جزء من المجلّد الأول من: تفسير التحليل الروائي للقرآن الكريم

لمؤلفه: عبد الباقي يوسـف – الذي صدر في أربيل- كردستان العراق

سنة ٢٠١٦

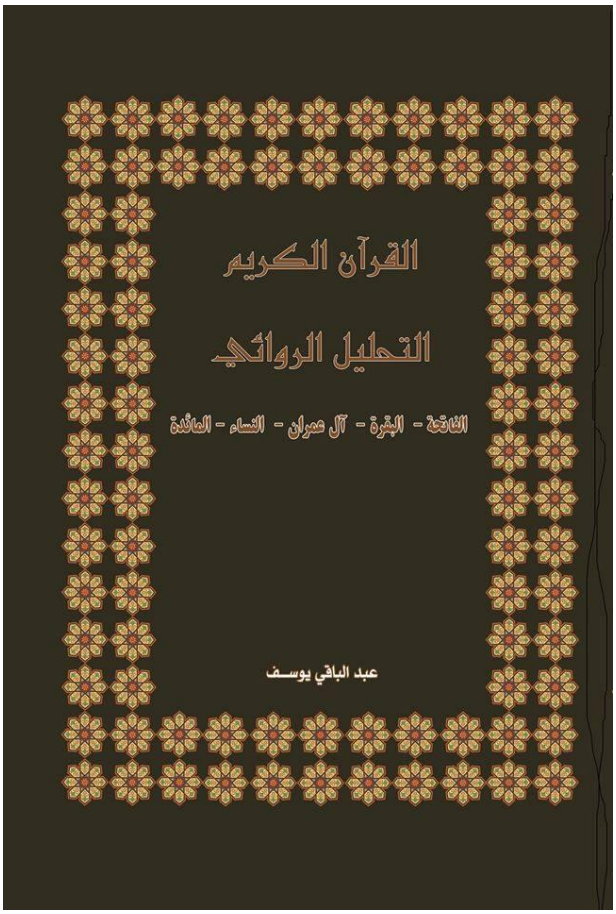

مقدمـة

تعرّفك السورة بالله، ثم تعرّفك بنفسك، ثم بحجم منزلتك عند الله، ثم تعرّفك بنعمة الله عليك، ولاتكتفي بذلك، بل تطلعك على جوهر العلاقة بينك وبين الله، وجوهر العلاقة بين الله وبينك لتدرك آنذاك مَن تكون بالنسبة لله، ومَن يكون الله بالنسبة لك.

بعدئذ تطلعك السورة على معاهدة الإيمان بينك وبين ربك، ما الذي يكون لك من ربك بموجب هذه المعاهدة، وما الذي يكون له عليك بموجبها. من هنا، فهي سورة تختص بأنها سورة العلاقة بين المؤمن وبين ربه، كون المؤمن هو الذي يُعاهد ربه بعد أن يؤمن به، فهي تفاصيل يضعها الله جل جلاله لكل مؤمن في كل زمان ومكان، فمهما تغير الزمان، أو تبدّل المكان، فإن بنود المعاهدة تبقى هي هي سارية المفعول كما لو أنها تنزل للتو على كل إنسان، مهما كان زمنه، وأينما كان مكانه. لذلك ترى أن نداء الله للمؤمنين في هذه السورة وحدها بشكل مباشر وبقوله في مستهل آياتها: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ بلغ ستة عشرة مرة من أصل ثمان وثمانين مرة في سائر سور القرآن، هذا إضافة إلى توجيه الخطاب إلى المؤمنين في عموم السورة بصيغ وأشكال مختلفة مما سيتبيّن معنا في حينه.

من هنا فهي سورة الميثاق بين الله والإنسان، وقد سُميت بـ المائدة للحدث الكبير الذي وقع في نهايات السورة بأن أنزل الله مائدة من السماء استجابة لدعاء عيسى عليه السلام الذي طلب منه الحواريون أن يسأل الله كي يُنزل المائدة من السماء، وهذه من الأحداث الكبرى التي تحدث في التاريخ البشري في جوهر العلاقة بين الله والإنسان، ولعلّها أول مرة يُنزل الله مائدة من السماء، وإن كان عيسى قد طلبها من الله، إلاّ أن المطلب في الأصل هو من الحواريين، ولذلك حملت السورة اسم هذا الحدث الاستثنائي والانعطافي الكبير في تاريخ البشر.

من جهة أخرى، فإن هذا النزول بذاته يدخل ضمن هذا الميثاق بين الله والإنسان، فالنزول ليس لغاية النزول، بل لغاية أن يؤمنوا بالله، ويعاهدوه، وألاّ ينقضوا عهدهم به، ثم أن الله يقدّم للإنسان أساسيات اليقين والإيمان به من خلال وقائع ومجريات ملموسة، فالله يحرّك الواقع الإنساني لحظة بلحظة، وحضوره لا يقتصر في كتبه المُنزلة فحسب، بل في تفاصيل الحياة اليومية للناس، من خلال كل أشكال وألوان، ومقومات عمارة الحياة، فحضور الله في القلب، يتفاعل مع آياته في الواقع المعيشي الملموس، وعندئذ، فإن كل شيء يشير للمؤمن إلى الله، وتبدأ الحيوية الحقيقية تسري في عروقه، وكما أنه يتميّز بإيمانه، فإنه كذلك يتميّز بطريقته الخاصة في الحياة، يستمتع بحواسه الدرّاكة، إنه يمتلئ بالحياة، وهو يعيشها لحظة بلحظة،

ولا يبلغ إنسان قط تلك المراحل المتقدّمة من الثقة بالنفس، واليقظة الحسّية، واكتشاف دقائق اللمسات الجمالية في الإنسان والطبيعة بقدر ما يكون من حظ المؤمن.

هذا كله يضعنا أمام حدود الحلال، وحدود الحرام، فالمعاهدة تسري مفعولها عندما يعلم الإنسان الحلال من الحرام، ولذلك نرى حضوراً للطعام في هذه السورة، وكذلك العلاقة بين الإنسان، وبين الطعام، ما يحصل عليه الإنسان بالحلال، وما يحصل عليه بالحرام، فالمال يُشترى به الطعام، بيد أن مشروعية هذا المال تجعل من الطعام حلالاً، كما أن لامشروعيته تجعل منه حراماً، وهي السورة الخامسة في ترتيب المصحف، وقد نزلت في المدينة بعد سورة الفتح، وعدد آياتها ١٢٠ آية.

يقول الله في الآية الثالثة منها: ﴿**اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾ فهنا تجد تفاصيل الحلال، كما تجد تفاصيل الحرام سواء فيما يتعلق بالطعام والشراب، أو ما يتعلق بسائر ما تأتي إليه آيات السورة من العهود، والمواثيق، والزواج، والصيد، والعدل، والقضاء، وحدّ السرقة، والردّة، وكفارة اليمين، وبيان الوضوء، وأحكام الميسر، والخمر، والشهادات، والحكم، والعلاقة بين المسلمين، واليهود والنصارى، وسائر الناس في مشاربهم ومآربهم.

تبيّن السورة أيضاً كيفية حفظ الدين، والعقل، والنفس، والعرض، والمال.

قال أبو ميسرة: (المائدة من آخر ما نزل ليس فيها منسوخ، وفيها ثمان عشرة فريضة ليست في غيرها، وهي: ﴿**وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ**﴾، ﴿**وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ**﴾ ٣، ﴿**وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ**﴾ ٤ ، ﴿**وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ**﴾ ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾٥ ، وتمام الطهور ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ**﴾ ٦ ،﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ**﴾ ٣٨، ﴿**لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ**﴾إلى قوله: ﴿**عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ**﴾٩٥ و ﴿**مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ**﴾ ١٠٣. وقوله تعالى: ﴿**شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ**﴾ ١٠٦).

يوصي النبي صلى الله عليه وسلم: " علّموا رجالكم سورة المائدة " وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " سورة المائدة تدعى في ملكوت الله المنقذة تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب ".

حكى النقاش أن أصحاب الكندي قالوا له:(أيها الحكيم أعمل لنا مثل هذا القرآن فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فأحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عاما، ثم استثنى استثناء بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في أجلاد).

روى الحاكم عن جبير بن نفير قال :(حججت، فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم

فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه).

روى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد قولها: (إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قوله: (أنزلت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها).

الباب الأول

عقد الإيمان

﴿١﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾

يُذكّر الله المؤمنين بأن إيمانهم يُلزمهم الاستجابة لما يترتب عليه هذا الإيمان، فالإيمان بذاته هو عهد من المؤمن لله بأنه سيقوم بتنفيذ ما آمن به قولاً، من خلال التطبيق العملي، فالإيمان يقوم بتفعيل القول، ليمسي فعلاً، وإلاّ للبث قولاً دون فعالية. فالوفاء هو تقديم الفعل الذي تمت النية، وتم العقد عليه سواء بين الإنسان وربه، أو بين الإنسان ونفسه، أو بين الإنسان والإنسان، فيأمر الله المؤمنين أول ما يأمر في مفتتح هذه السورة أن يكونوا أوفياء، ولذلك خص النداء للمؤمنين، ولم يوجهه لغيرهم، لأن غير المؤمن لم يؤمن حتى يُطالَب بالوفاء، فأنت عندما تدخل دولة، ستوقع على شروط دخولها، وأنك تلتزم بالوفاء لهذه الشروط والأوامر، بيد أنك إن لم تدخل تلك الدولة، فلا يكون لزاماً عليك تنفيذ شروطها لأن ذلك لا ينفعك بشيء.

لكن لماذا اتجه الخطاب للمؤمن دون غيره، ذلك أن المؤمن يمثل سلوك الإيمان، وهو يقوم بتطبيق وتفعيل شرع الله على الأرض، والوفاء بالعهد بالنسبة للمؤمن، يكون مع عامة الناس سواء أكانوا مؤمنين، أو لم يكونوا مؤمنين، فهي مسألة مبدأ عام في صلب العقيدة.

فإن عاهدت شخصاً غير مؤمن، لاعليك كفره، بل عليك إيمانك بالله، فأنت عاهدته بكونك مؤمن، تنتسب بإيمانك إلى الله، وعليك أن تخلص لإيمانك بالله﴿ **وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأيمان**﴾ النحل ٩١

وانظر إلى قوله تعالى لرسوله:﴿إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ الفتح ١٠ ويقول عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾النجم٣٧

يقول جل ثناؤه:﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾الإسراء٣٤

ويقول: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الأحزاب ٢٣

قال الزجاج: (هي أوكد العهود، يقال: عاقدت فلانا وعقدت عليه أي: ألزمته ذلك باستيثاق، وأصله من عقد الشيء بغيره ووصله به، كما يُعقد الحبل بالحبل إذا وُصل) .

عن يونس بن عبد الأعلى قال:(أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ ، قال: عقد العهد، وعقد اليمين وعَقد الحِلْف، وعقد الشركة، وعقد النكاح).

يقول ابن عباس: (أوفوا، يا أيها الذين آمنوا، بعقود الله التي أوجبَهَا عليكم، وعقدها فيما أحلَّ لكم وحرم عليكم، وألزمكم فرضه، وبيَّن لكم حدوده).

لكن إذا كان العقد خارجاً عن شرع الله، وأجريت عقداً مع شخص على معصية، فهل عليك أن تفي بعقدك معه؟ فهنا تستجيب لقول الله، ولكنك في الآن ذاته ترى المخرج الشرعي في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط"[1]

فـ ﴿يَا﴾ عموم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ واجتمعوا وعاقدوا على أخوّة الإيمان، عليكم أن تكونوا أوفياء لمعاهدة الإيمان.

فعليك أن تكون وفياً حتى تتميّز بإيمانك، وتعبّر للناس جميعاً بأن إيمانك هو الذي يجعلك وفياً، والشخص الوفي مقبول لدى سائر الناس، لأن الوفاء يعني الصدق، ويعني عذوبة السلوك الإنساني، فأن تكون وفياً يعني ذلك أن تكون عذباً، ومرهفاً في مشاعرك تجاه ما عقدت عليه، فكان الوفاء هو النداء الأول للإنسان المؤمن كي يترسخ في إيمانه، حتى يتفوّح بعبق الإيمان.

و ﴿يَا﴾ عموم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أحلّ الله ﴿لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ بدأ الله تعالى ببيان الحلال، والبهم يشير إلى اللاعقل، فهو الحيوان الذي لم يمتعه الله بالعقل، فهذا على العموم، ثم جاءت ﴿الأَنْعَامِ﴾ ليكون المعني بقوله عز وجل: البقر، والغنم ، والإبل، ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾النحل ٥، وهي حيوانات تتسم بالنعومة، وقد قمنا بشرح ذلك في تحليل سورة آل عمران بما يقضي. اقترنت هنا البهيمة بـ ﴿الأَنْعَامِ﴾ والمبهم هو المظلم، أو الغامض، ولعل ذلك إشارة إلى الموضع المظلم الذي تكون فيه البهيمة، بمعنى تكون في بطن أمها، فهذه البهيمة عند استخراجها من بطن أمها، يمكن تناول لحمها، فلو ذُبحت بقرةٌ و تبيّن وجود بهيمة في بطنها، يجوز أكل هذه البهية، وقس ذلك على سائر الأنعام، وسائر

[1] رواه البخاري،كتاب البيوع، باب إذا اشترط شروطاً في البيع لا تحل، حديث رقم (٢٠٦٠)، ومسلم، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، حديث رقم (١٥٠٤) عن عائشة.

الطوارئ التي تقع بالنسبة للأنعام. ففي سورة آل عمران قال: ﴿وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ آل عمران ١٤، فشمل ذلك ﴿الأَنْعَامِ﴾ كلها، لكننا هنا أمام تخصيص لـ ﴿بَهِيمَةُ﴾ وهي قريبة من جَنينة، أي جنينة ﴿الأَنْعَامِ﴾ فهنا تفصيل وتركيز على الخاصية، فلو ذكر ﴿الأَنْعَامِ﴾ بالصفة العامة كما الشأن في آيات أخرى للبث الجنين دون حكم، ولكن جاء ذكر الـ ﴿بَهِيمَةُ﴾ لبيان الحال كون ﴿الأَنْعَامِ﴾ بصفتها العامة نزل بشأنها ما نزل مما يثبت بأن الله تعالى قد أحلّها، ولم ترد الـ ﴿بَهِيمَةُ﴾ سوى ثلاث مرات في سائر القرآن الكريم، وقد وردت في المرات الثلاث مقترنة بـ ﴿الأَنْعَامِ﴾ فقال عز من قائل: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾الحج٢٨ وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾الحج٣٤ وقد ذكرت في مناسبة تذبح فيها البهائم ليعم الخير على الجميع، ولعل ذلك أيضاً يشير أنه في حال وجود الجنين أثناء الذبح، يجوز أكله. فدون ذكر هذا التخصيص، يلبث الناس في حيرة من أمرهم بالنسبة لأجنّة ﴿الأَنْعَامِ﴾ فهل تحلّ لهم أم لا تحل؟ فشرّع الله للناس بفضله هذا الحكم، وهذه نعمة من نِعم الله على الإنسان، فذلك منفعة ينتفع بها الإنسان، فلو لم يحل الله ذلك، لحُرِم الإنسان من الانتفاع بهذا الجنين، ومعلوم أن ﴿الأَنْعَامِ﴾ كبيرة الحجم، وهذا يعني أن أجنّتها خاصة في تقدّم الحمل تكون كبيرة الحجم أيضاً، وتحتوي على منافع للناس. ثم استثنى عزّ ذكره ما أحلّ بـ ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي ما تم تحريمه بموجب آية قرآنية كما سيأتي في الآية الثالثة من هذه السورة: كذلك: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾البقرة١٧٣

ثم قال:﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ بيان بجواز الصيد إلا في حال كنتم حُرُماً، يعني دخلتم في الحج، أو العمرة، والصيد هنا يشمل كل حيوان برّي في الأصل سواء أكان يمشي، أو يطير ويؤكل. لكن لعل حيواناً قاتلاً جاء إلى شخص في الحرم وأراد أن يقتله، أو يلحق به أذى صحياً، هل يتركه، أم يقتله حتى يكف أذاه عن نفسه، وعن غيره. هنا نرى أن التشريع يتناول كل هذه التفاصيل الدقيقة، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" خَمْسٌ مِنْ الدَّوَابِّ كُلُّهُنَّ فَاسِقٌ ، يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ : الْغُرَابُ ، وَالْحِدَأَةُ ، وَالْعَقْرَبُ ، وَالْفَأْرَةُ ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ"

يقول الإمام الشافعي : (وللمحرم أن يقتل الحية والعقرب والفأرة والحدأة والغراب والكلب العقور وما أشبه الكلب العقور مثل السبع والنمر والفهد والذئب ، صغار ذلك وكباره سواء، وليس في الرخم والخنافس والقردان والحلم وما لا يؤكل لحمه جزاء ؛ لأن هذا ليس من الصيد ، وقال الله جل وعز : ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾ فدل على أن الصيد الذي حرم عليهم ما كان لهم قبل الإحرام حلالا، لأنه لا يشبه أن يحرم في الإحرام خاصة إلا ما كان مباحا قبله) .

يختتم الله الآية الأولى من السورة بقوله:﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ﴾يصدر الحكم بـ﴿مَا يُرِيدُ﴾ بشكل عام وفي كل شيء، فهو عزّ اسمه يحل، ويحرّم بشكل مطلق، وليس لأحد أن يتدخل في مشيئته، ولا راد لحكمه، وعليكم أن تخضعوا لإرادته، وهذا تفعيل لإيمانكم به.

﴿٢﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

بعد أمر الوفاء ﴿بِالْعُقُودِ﴾، يُذكّر الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وعاهدوا الله أن يكونوا أوفياء ﴿بِالْعُقُودِ﴾، بأن يحافظوا على﴿شَعَآئِرَ اللّهِ﴾، الشعائر واحدها شعيرة، وهي تختلف عن الشعار، جمع شعارات رغم التقارب بين الكلمتين، بيد أنها هنا تمس وتيرة المشاعر، في حين أنها هناك تعنى بالظاهر مثل العناوين، فشعار هذه المؤسسة هو كذا، وشعار هذا البلد هو كذا، وهي ليست شعائر، بل هي شعارات، في حين أننا هنا إزاء الشعائر، من الشعيرة، ومن المَشعر، فهنا حُرُمات الله التي تهتز لها المشاعر سواء بالاستجابة لها، أو بانتهاكها، فالرجل الذي يأتي أهله، يشعر بلذة الحلال، والرجل الذي يعتدي على أعراض الناس، يشعر بإثم الحرام ، فهناك شعور لذة ما أحل الله، وهنا شعور الاشمئزاز مما حرّم الله، كذلك فإن الذي يقبض أجر عمل قام به، فإنه يتناوله بثقة وبمشاعر الغبطة ، في حين أن الذي يمدّ يده خلسة ليسرق، فإنه يشعر بأنه يسطو على مال غيره، فيأخذه باضطراب وبمشاعر القلق، فقال جل ثناؤه ﴿شَعَآئِرَ اللّهِ﴾ فهي هارّة للمشاعر في وجهَيها، لكن شتان بين أن يستمتع الإنسان بمشاعره، وبين أن يتألم الإنسان في مشاعره، بين أن ينعم بنعيم الجنّة بمشاعره، وبين أن يحترق بلهب الجحيم بمشاعره، فـ ﴿لاَ تُحِلُّوا﴾ شعائري يا من عقدتم على الإيمان بي. ثم فصّل الله: ﴿وَلاَ﴾تستحلّوا القتال في﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الشهور الحُرُم هي أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب. ثلاثة شهور متتالية ، وواحد فرد، فلا تستحلوا القتال في أي شهر من هذه الشهور، فكل شهر منها هو﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾وفي صحيح البخاري عن أبي بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع : " إِنَّ الزَّمَان قَدْ اِسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْم خَلَقَ اللَّه السَّمَوَات وَالْأَرْض السَّنَة اِثْنَا عَشَر شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَة حُرُم : ثَلَاث مُتَوَالِيَات ذُو الْقَعْدَة وَذُو الْحِجَّة وَالْمُحَرَّم وَرَجَب مُضَر الَّذِي بَيْن جُمَادَى وَشَعْبَان " .

ثم قال ﴿وَلاَ الْهَدْيَ﴾ ما يُذبح في الحرم من إبل وغنم وبقر، وهو من شعائر الله، ولكن النهي هو الذبح في غير محله، وعليه أن يكون في مكانه وفي زمانه حتى يكون هدياً لله تعالى، وهو يهدي الله، بمعنى يهدي الطعام للناس في سبيل الله وابتغاء مرضاته، أي يهدي هذا اللحم للناس خالصاً لوجه الله، ومع تقدّم

التقنيات المعاصرة، تتحوّل هذه الكميات الكبيرة من اللحوم إلى الفقراء في كافة أصقاع الأرض، حيث يتم تجميدها، وإرسالها عن طريق الجمعيات الخيرية، وهذا هو ﴿**الْهَدْيَ**﴾الذي يهديه الحاج إلى بيت الله، وذلك شكراً لله الذي أنعم عليه بالصحة والمال والطاقة والراحة والوقت كي يحج ديار الله المقدسة.

ثم قال عزّ ذكره: ﴿**وَلاَ الْقَلآئِدَ**﴾واحدها قلادة، وكان الناس يقلّدون أعناق ذبائحهم بالقلائد لتتميّز عن بقية الأنعام بأنها هديٌ إلى الكعبة.

بعد ذلك يبيّن الله: ﴿**وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً**﴾ فإن أمّ أناس معكم ﴿**الْبَيْتَ الْحَرَامَ**﴾ ومعهم شيء من تجارة، فهؤلاء ﴿**يَبْتَغُونَ**﴾ رزقاً طيباً حلالاً ﴿**مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ وكذلك ﴿**يَبْتَغُونَ**﴾ رضوان﴿**رَّبِّهِمْ**﴾ في شعيرة الحج كونهم يؤدّون مناسك الحج كاملة معكم، فلا تقطعوا أرزاق هؤلاء، ولا تمنعوهم من شعيرة الحج. فهؤلاء يؤمّون بيتي و﴿**يَبْتَغُونَ**﴾ فضلي ورضواني، لكن لو كان هؤلاء من المشركين والمؤمنين معاً، فإن الفضل يصيب المشركين نتيجة تجارتهم، ولايصيبهم الرضوان كونهم لايؤمنون بوحدانية الله، في حين أن الفضل والرضوان يصيبان معاً المؤمنين كونهم يبتغيانهما معاً ولا شرك يحول بينهم وبينهما، فالشرك يحول بين المشرك وبين رضوان الله﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً**﴾النساء٤٨، كذلك ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً**﴾النساء١١٦ لكنه لايحول بينه وبين فضل الله عليه في الدنيا.

﴿**وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ**﴾ فبعد أن اتبعتم أمري في ﴿**غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ**﴾ الآن ﴿**وَإِذَا حَلَلْتُمْ**﴾انتهى مفعول الأمر بـ ما دام شرط﴿**إِذَا**﴾قد تحقق لأنه مقترن بحالة محدّدة﴿**فَ**﴾لاجناح عليكم الآن و﴿**اصْطَادُواْ**﴾ ثم ﴿**وَ**﴾-﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾- ﴿**لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ**﴾تؤسس هذه العبارة لقاعدة تربوية وأخلاقية وإنسانية في منهج الإنسان المسلم، بحيث يكون على حذر كي لايصبح معتدياً نتيجة ما يصدر من بعض الأشخاص من أقوال أو أفعال ، فـ ﴿**لاَ**﴾ تسمحوا لهؤلاء أن يدفعوكم إلى حالة العداوة لتصبحوا مثلهم في ممارسة الاعتداء، والكلمة مشتقة من الجريمة، ﴿**لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ**﴾ فـ ﴿**لاَ**﴾احذروا أن ﴿**يَجْرِمْ**﴾ يسحب، من الجر، فلا تدعوهم يجرّوكم بشنآنهم ، لأن ذلك يؤدي بهذا الشنآن أن ﴿**يَجْرِمَنَّكُمْ**﴾، يوقعنكم في الجرم، فتصبحون مثلهم مجرمين، لأنهم مصدر الجريمة، فلايسرّب ﴿**شَنَآنُ قَوْمٍ**﴾نزعة الجرم إلى نفوسكم، والـ ﴿**شَنَآنُ**﴾هو البغض، فهؤلاء يكتون لكم البغضاء والشحناء﴿**أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾، تعرضوا لكم في ذهابكم إلى﴿**الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾، وكان ذلك عندما فتح المسلمون مكة، فصدّهم بعض الذين حاربوهم من قريش عن دخول ﴿**الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾، فلا تلتفتوا إليهم، ولا تستجيبوا لمكيدتهم، فهم يبتغون ﴿**أَن تَعْتَدُواْ**﴾ والاعتداء هنا هو تجاوز لِما أمر الله بالدفاع وفق حدود فلا ﴿**تَعْتَدُواْ**﴾لاتتجاوزوا حدود الله إن أصبحتم في حالة قتال مع الذين يقاتلونكم ولاتنجروا خلف ردود الأفعال، ولا يأخذكم الانفعال إزاء ﴿**شَنَآنُ**﴾همفيجعلكم هذا الانفعال مُعتدين، ففي ذلك تأجيج للخلاف،

حيث تصبحون شركاء فيه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك " فلا يجوز لك أن تقابل الخيانة بالخيانة، لأن ذلك سيجعلك خائناً، ويكون الخائن قد استدرجك لتكون خائناً مثله، فالهدف هو منع الاعتداء، وليس الاعتداء، والهدف هو نشر دين الله، وليس قِتال الكفار.قال الإمام أحمد : (حدثنا يزيد حدثنا سفيان بن سعيد، عن يحيى بن وثاب، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجرا من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم " . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " . قيل : يا رسول الله ، هذا نصرته مظلوما ، فكيف أنصره ظالما؟ قال : " تمنعه من الظلم ، فذاك نصرك إياه ".

لكن إن قاتلوكم، ووقفوا عقبة بينكم وبين نشر دين الله، فعليكم الدفاع عن الدين وفق شرع الله دون اعتداء. ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ثم وجّه إلى مرجعية التقوى لتجاوز حالة الانفعال إزاء ﴿شَنَآنُ﴾هم، فقال ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ﴾ثم ذكّرهم بـ﴿إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إن واجهوا ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾بالاعتداء، فعندئذ يعرضون أنفسهم لعقاب شديد من الله، لأنهم سيكونوا قد خالفوا أمر الله بـ اللا اعتداء.

﴿٣﴾

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أخبر الله عن الاستثناء مما أحل في الآية الأولى بقوله:﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ والآن يبيّن أحد عشر نوعاً مستثناة من الحلال، والمسببات التي تجعل من هذا الطعام حراماً على ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ والتحريم هنا يكون بالصيغة المباشرة، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ فمعلوم أن الذبح باسم الله يُحل لحم الذبيحة، ولكنها إن ماتت، فقدت إمكانية أن تتحوّل إلى ذبيحة ذُبحت باسم الله، فهي قد ماتت قبل أن تذبح، فاقترن تحريمها بموتها، لكن يُستثنى من ذلك إن وُجد جنين حي في بطن ﴿الْمَيْتَةُ﴾، فالجنين هنا هو حي، ويسري عليه ما يسري على الحي، سواء بتربيته حتى يكبر، أو بذبحه في الحال والانتفاع بلحمه وما يُمكن أن يُنتفع به. كذلك يُستثنى السمك، فهو يجوز أن يؤكل غير مذبوح، وكما أن الناس يستعجلون ذبح الذبيحة إن وجدوها على وشك الموت، فإنهم يتأنّون على السمك حتى يموت، فيقومون بتحضيره للطعام، كون السمك لايُذبَح، ويمكن تقديمه للطعام مع رأسه دون ذبح، ورأفة به ينتظر الناس حتى يموت، وذلك لايستغرق كثيراً بعد خروجه من الماء لأن عملية تحضيره لاتبدأ بالذبح، بل تبدأ بتنظيفه من

الأحشاء والقشور، وما شابه. روى مالك في موطئه، والشافعي وأحمد في مسنديهما، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة في سننهم، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحَيهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ماء البحر فقال:" هو الطهورما وَه الحِل ميتته". من جهة أخرى، يمكن ملاحظة أن السمك لايملك دماً يسيل حتى لو ذُبح، كما الأمر بالنسبة للأنعام والطيور، فالذبح هنا يؤدّي إلى خروج الدم ، كي يبقى اللحم محافظاً على سويته، ولايُصبح محتقناً بالدم، لكن السمك لايجري عليه ذلك كونه لايملك دماً يسيل مع الذبح، وبالتالي، فإن لحمه يبقى محافظاً على سويته.

ثم ﴿وَ﴾ حرّم عليكم﴿**الدَّمُ**﴾ يعني المسفوح، وهو الدم الخالص السائل. عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أحلّ لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال" [٢] وكان الناس من قبل كما يقول الزمخشري في الكشاف: (يملؤون المعي من الدم ويشوونه ويطعمونه الضيف، فالله تعالى حرم ذلك عليهم).

﴿**وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ**﴾ محرّم في أصله سواء أكان ميتاً، أو ذُبح قبل موته، فهو محرّم بكونه ﴿**لَحْمُ الْخِنْزِيرِ**﴾

﴿**وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾ ما لم يُذكر عليه اسم الله، معنى ذلك أن تؤمن بأن الله قد سخّر لك هذه الدابة لتنتفع بها، فإن لم يؤمن الإنسان بذلك، لايحل له ذبحها، وإن ذبحها، فلا يحل لحمها للمؤمنين، ولذلك ترى شركات اللحوم تكتب على هذه اللحوم بأنها ذُبحت على الطريقة الإسلامية، بمعنى قد ذُكر عليها اسم الله. فجواز الذبح يكون للمسلمين و لأهل الكتاب إن لم يكن قد ﴿**أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾ لكن غير المؤمن لاتحل ذبيحته لكونه غير مؤمن، ويتبيّن من خلال ذلك بأن الإيمان هو طهارة للإنسان، وبدون الإيمان لايكون طاهراً، والذي يفتقد الطهارة في نفسه، لايكون مؤهلاً ليُطهّر شيئاً، ثم أنه يُدنّس الطاهر إذا لمسه، كما أنه لايستطيع أن يُطهّر المُدنّس، فالدابة هنا هي طاهرة، ولكن ذبح الكافر لها، حرّمها على المؤمنين كونه غير مؤمن، وبالتالي لم يذبحها باسم الله، وكذا الأمر على المؤمن في حال﴿**أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾عن أنس قال: (ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر، قال: رأيته واضعا قدمه على صفاحهما ويذبحهما بيده ويقول "بسم الله والله أكبر ") .

﴿**وَالْمُنْخَنِقَةُ**﴾

قال ابن عباس: (كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها)

﴿**وَالْمَوْقُوذَةُ**﴾

[٢] أخرجه رواه ابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، حديث رقم (٣٣١٤)، وأحمد في المسند (٩٧/٢) (٥٧٢٣) عن ابن عمر.

التي تضرب حتى تموت، في الصحيح : (أن عدي بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ، إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب . قال : " إذا رميت بالمعراض فخزق فكله ، وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله ").

قال قتادة: (كانوا يضربونها بالعصا فإذا ماتت أكلوها).

﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾

التي تردّى من مكان مرتفع، أو تسقط في منخفض وتموت

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾

التي تنطح من ناطحةٍ غيرها وتموت نِطاحاً

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾

فإن وقع ذئب، أو أسد، أونمر، أو فهد، أو كلب على الدابة، وأكل بعضها، وماتت جراء ذلك، لايحل أكل ما فضل ، وكان أهل الجاهلية يأكلون ما فضل من الشاة، والإبل، والبقر

﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ ما لم يمت نتيجة ذلك وبه حياة، فاذبحوه وكلوه، وهذا يتبيّن من سيلان الدم، وكذلك من إبداء ولو حركة من الدابة المصابة عند ذبحها، فإن لم تتحرّك، ولم يسل الدم، فذلك يشير إلى موتها، وبالتالي تأخذ حكم التحريم رغم ذبحها، فالحال أن دابة ميتة قد ذُبحت. عن علي أنه قال: (إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة وهي تحرك يداً أو رجلاً فكلها).

وروى ابن جرير عن الحسن إنه قال:(إذا طرفت بعينها، أو ضربت بذنبها). وفي رواية عنه : (إذا كانت الموقوذة تطرف ببصرها أو تركض برجلها أو تمصع بذنبها فأذبح وكل). وعن قتادة في قوله:﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ قال: (فكل هذا الذي سمّاه الله عز وجل هاهنا - ما خلا لحم الخنزير - إذا أدركت منه عينا تطرف أو ذنبا يتحرك أو قائمة تركض فذكيّته فقد أحلّ الله ذلك).

وذلك يعني أن يسيل الدم منها عند الذبح، وقد تبيّن أن الحالات السابقة هي حالات تشير إلى احتقان الدابة نتيجة بقاء الدم فيها، مثل: ﴿الْمَيْتَةُ﴾﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ﴾

ثم قال: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ وهي النِصاب التي كانوا يذبحون عليها الأنعام بغية القربة، رغم أن الذبح طبيعي، والدم يسيل، ، بيد أن الذبح ﴿عَلَى النُّصُبِ﴾ جعله حراماً قال ابن جريج :(وهي ثلاثمائة وستون نصبا ، كان العرب في جاهليتها يذبحون عندها ، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب). فقد نهى الله المؤمنين من أكل هذا اللحم، فهو من الشرك وبالتالي يأخذ حكم ﴿مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾، وهو الاستقسام بالقِداح، قيل بأنهم:(إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة قداحٍ مكتوب على أحدها أمرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، وعلى الثالث غُفْل، فإن خرج الآمرُ مضَوا ذلك، وإن خرج الناهي اجتنبوا عنه، وإن خرج الغافل أجالوها مرة أخرى). فهنا اعتماد على الأزلام ومفرده زلم،

فهم يمضون بمشيئة هذه الأزلام. روى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من تكهن أو استقسم أو تطير طيرة ترده عن سفره لم ينظر إلى الدرجات العلى من الجنة يوم القيامة".

يبيّن الله جل جلاله بأن﴿ذَلِكُمْ﴾ جميع ما تم ذكره مختصراً في﴿ذَلِكُمْ﴾ فهو﴿فِسْقٌ﴾خروج عن منظومة الإيمان بالله، ويخل بالعقد الذي عقدتموه مع الله، فالذي يأتي هذا الـ ﴿فِسْقٌ﴾يصبح فاسقاً، أي متمادياً على حدود الله.

انظر إلى مفهوم الفسق في هذه الآيات: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾البقرة٥٩

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾الأنعام٤٩

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾الأعراف١٦٥

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾الإسراء١٦

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ الكهف ٥٠

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾العنكبوت٣٤

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾السجدة٢٠

فاتباع الفسق، يؤدّي إلى الفسوق، ليمسي المرء بارتكاب الفسق فاسقاً، والفاسق ينشر عدوى الفسق، فكان تحذير الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾الحجرات٦

أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه، والحاكم وصححه عن أبي أمامة قال: (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومي أدعوهم إلى الله ورسوله، وأعرض عليهم شعائر الإسلام، فبينما نحن كذلك، إذ جاءوا بقصعة دم واجتمعوا عليها يأكلونها، قالوا: هلم يا صدى، فكل، قلت: ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرّم هذا عليكم، لما أنزل الله عليه، قالوا: وما ذاك؟ قال: فتلوت عليهم هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾.

وقد اجتمعت الموبقات في الفسق، مثل الغي: والضلال، والشرك، والجهل، والظلم، والفساد.

روى الإمام أحمد والبخاري وأهل السنن، من طرق عن عبد الرحمن بن أبي الموالي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال:(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن، ويقول: " إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم هذا الأمر - ويسميه باسمه - خيرا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي

ويسره لي وبارك لي فيه، اللهم إن كنت تعلمه شرا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفني عنه، واصرفه عني، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به ").

﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ**﴾يخبر الله تعالى المؤمنين باليأس الذي أصاب﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾في ردّهم عن الإسلام، واليأس يعني أنهم بلغوا مبلغ القناعة من ثباتكم في دينكم، وأنهم لا يستطيعون أن يزحزحوكم عنه، ﴿**فَلاَ تَخْشَوْهُمْ** ﴾مهما بدر منهم ، فهي مبادرات يائسةتبدر من يائسين﴿**وَاخْشَوْنِ**﴾ لأن خشيتكم مني تزيدكم ثباتاً في دينكم، وتزيدكم قوة على قوة، ثم قال: ﴿**الْيَوْمَ**﴾بعد كل هذه السنوات الطويلة من نزول القرآن، آية آية، وسورة سورة، ثم بعد كل هذه القرون الطويلة من تاريخ ﴿**الدِّينَ**﴾الذي هو ﴿**عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ**﴾آل عمران ١٩ وكل تلك الأعداد الهائلة من الأنبياء والرسل، والأحداث ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾البقرة١٣١ ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينـاً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾آل عمران ٨٥﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً** ﴾آل عمران ٦٧﴿**أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾يوسف١٠١

﴿**قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾النمل٤٤

﴿**فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾يونس٧٢

﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾فصلت٣٣

﴿**الْيَوْمَ** ﴾-﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ - استوى الدين على كماله، وهذا الاستواء بث اليأس في نفوس ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾- ﴿**الْيَوْمَ** ﴾- أصبحتم أكثر قوة، أكثر حضوراً، أكثر علماً، أكثر معرفة، وأكثر توازناً، وأكثر نضجاً ﴿**الْيَوْمَ** ﴾ بعد عصر الجمعةِ يومَ عَرَفة في حَجةِ الوداع والنبي صلى الله عليه وسلم واقفٌ بعَرَفاتٍ على العضباء، فكادت عضدُ الناقة تندق لثقلها فبرَكت - ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ - خذوا البشارة الكبرى عني، فقد ﴿**أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾أبلغته بكم حدّ الكمال، ﴿**وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**﴾ بأن- ﴿**أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ دون أن أدع نقصاً فيه - ﴿**وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينـاً**﴾ ذلك أن الإسلام هو السبيل الوحيد للنجاة، وهو صراط الله الوحيد المستقيم.

عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال له: (يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرؤنها لو علينا معشرَ اليهود نزلت لاتخذْنا ذلك اليوم عيداً، قال: أي آية؟ قال: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**﴾ الآية. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليومَ والمكانَ الذي أنزلت فيه على النبي عليه الصلاة والسلام وهو قائم بعرفة يومَ الجمعة).

ومعنى ذلك أن الله لم يكن قد أكمل للناس دينهم، لأن الآيات بدأت تأتي معها بالأحكام والتشريعات الجديدة، ودوماً كان يأتي الجديد في التنزيل حتى اكتمل الجديد بالجديد، ﴿**أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ يعني أن الدين كان قيد الإكمال قبل ﴿**الْيَوْمَ** ﴾ و ﴿**وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**﴾ يعني أن نعمة الله بلغت الإتمام ﴿**الْيَوْمَ** ﴾ وقوله جل وعلا ﴿**وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينـاً**﴾ يعني أن الإسلام قبل ﴿**الْيَوْمَ** ﴾ كان في مراحل بلوغ

مرتبة أن يرضيه الله للناس﴿**ديناً**﴾، فلو لم يرسل الله جل ثناؤه محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين للبثت رسالة الدين دون خاتمة، ولو انقطع التنزيل في منتصفه، أو في بعض أجزائه، للبث القرآن دون إكمال. وهذه الآية هي حاسمة في كمال الدين، فلو توفي الرسول صلى الله عليه وسلم دون نزول هذه الآية، لعل البعض قال بأن القرآن لم يكتمل لأن الرسول قد توفى والقرآن قيد النزول، ولا شيء يشير بأن القرآن نزل بكامله، فكان بيان الله للناس قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بأن ﴿**اليَوْمَ** ﴾بلغ كل شيء أوجه في الدين، وأنه عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، سيكون قد تلقى كل شيء، وبلّغ الناس ما تلقاه، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ سورة المائدة في حجة الوداع وقال: "يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر ما نزل فأحلوا حلالها وحرموا حرامها "

وقد جاء الخطاب هنا لعموم المؤمنين، ولم يخص به الرسول كأن يقول له، لك بدلاً عن﴿ **لَكُمْ**﴾وذلك للمزيد من البيان بأنه رسول بين الله والناس، وأن الله يخاطب الناس على لسانه و ﴿**اليَوْمَ** ﴾قد قام بكل ما عهد الله عليه، فلولبثت آية، أو كلمة لم يبلغها للناس لما كان كمال الدين، ولما كانت تمام النعمة، وبالتالي لما بلغ الإسلام درجة أن يرضاه الله للناس ﴿**ديناً**﴾، ولذلك بكى عمر عندما نزلت هذه الآية، ولعله بدأ يُدرك أنها في وجهها الآخر بمثابة النعي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ما يُبكيك يا عمر"؟ قال:(أبكاني أنا كنا في زيادةٍ من ديننِا، فإذا كَمَلَ فإنه لا يكملُ شيءٌ إلا نقَصَ)، فقال عليه الصلاة والسلام: "صدقت" ويُروى أنه صلى الله عليه وسلم مالبثَ بعد ذلك إلا أحداً وثمانين يوماً.

ثم انتهت الآية بقوله: ﴿**فَمَنِ اضطُرَّ**﴾وجد نفسه في حالة طارئة، لايجد فيها سوى هذا الذي حرّمه الله، فهل يموت جوعاً دون أن يأكل هذا الحرام، أم يأكل لإنقاذ نفسه من الموت، وقد جاءت الكلمة بالغة التركيز على الحالة الطارئة، ﴿**فِي مَخْمَصَةٍ** ﴾ أي ﴿**فِي**﴾أقصى ما يمكن أن يحتمله المرء من الجوع، فإن وجد شخص نفسه في موضع مغلق، أو تيه، أو ماشابه، وليس هناك سوى ما ذكره الله ممّا حرّم، ثم أنه قد حان وقت الغداء، فإن عليه الصبر لأنه يطيق الانتظار، ثم لو حان وقت العشاء، كذلك يطيق الانتظار دون أن يأكل، لأنه لم يبلغ حالة أنه غدا ﴿ **فِي مَخْمَصَةٍ**﴾ثم لو جاء الصباح، فعليه أن يمتنع عن تناول هذا المحرّم إلى اللحظات التي يشعر فيها بأن جسده لم يعد يقاوم، فالإنسان بشكل طبيعي يمكن له أن يبقى دون طعام لأكثر من يوم بحسب، وعندما يشعر بأنه جسده بدأ يفقد المقاومة على الجوع ويُصبح ﴿**فِي مَخْمَصَةٍ**﴾عندذاك يمكن له أن يمدّ يده إلى الحرام، فيأكله ﴿**غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ**﴾ أي وهو يُدرك بأنه يأكل ما حرّم الله، وهو لايريد بذلك أن يرتكب إثماً، وليست به نيّة ارتكاب الإثم، لكنه أصبح على الرمق الأخير من الحياة بسبب شدّة الجوع، وعند أهل اللغة: (الخمص والمخمصة خلو البطن من الطعام عند الجوع، وأصله من الخمص الذي هو ضمور البطن). فهو والحال هذه ثم﴿**فِي**﴾جوع

شديد﴿غَيْرَ﴾متعمّد﴿لِّإِثْمٍ﴾ ، وغير راغب فيه، وغير مستمتع بتناول هذا الـ ﴿فِسْقٌ﴾ بموجب رخصة الله الاستثنائية في هذه الحالة الاضطرارية في سبيل عدم الموت جوعاً، ولعل هذا يشير بأن صفة الـ ﴿فِسْقٌ﴾ رُفعت عن هذا الطعام خلال لحظات الأكل بالنسبة لهذا المُضطر المُرخّص له، فهو بذلك لايُصبح فاسقاً، بل عاملاً برخصة الله التي استثنت طارئته الخاصة. ولذلك جاء: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾بأن غفر ارتكاب هذا المحرّم في حاجتكم القصوى إليه، و﴿رَّحِيمٌ﴾ رحمة منه بكم كي لاتقضوا جوعاً.

وقد تم ذكر الاستثناء في آيات أخرى، بيد أن هذه الآية تركّز على لب الحالة، وبذلك فيمكن الاعتماد عليها في هذه المسألة كون الآية آخر ما نزل من القرآن، ففيها بيان التركيز على الحالة الاضطرارية في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾البقرة١٧٣

كذلك: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾الأنعام١١٩

كذلك: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾الأنعام١٤٥

وقوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾النحل١١٥ فنحن هنا ﴿فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ إزاء ما استجدّ وفق الترخيص الرباني.

مع نهاية هذه الآية، نستنتج بأن الآفاق بدت مفتوحة أمام الإنسان ليقدّم ما يمكنه أن يقدّمه في شتى المجالات استنادا على ما قدّمه الأنبياء والرسل خلال التاريخ البشري، وعلى ذلك نرى أن المنجزات البشرية بدأت تتوالى بعد ذلك بما لعله لم يكن يخطر على بال أحد، وإذا نظرنا إلى سائر المنجز البشري قرناً قرناً بعد أن أكمل الله للناس دينهم، وأتم عليهم نعمته، ورضي لهم ﴿الإِسْلَامَ دِينًا﴾ سنرى بأن كل قرن بدأ يغتني بكل أشكال وألوان المكتشفات الهائلة بشكل متقدّم أكثر مما كانت عليه هذه القرون في العهود السابقة حيث كانت الحضارة الإنسانية تمضي بطيئة متماشية مع مراحل تقدّم الدين وتدرّجه في كماله، ولذلك فإن ما حققه الإنسان في ألف سنة ما ضية، يفوق ما حققه في آلاف السنين الماضية، وعلى هذا النحو ما حققه في المئة سنة الماضية، كان أكثر تقدّماً مما حققه في الألف وأربعمائة سنة الماضية، والإنسان يعمل في تقدّمه العلمي والحضاري رغم بقاء أهل الشر، واستمراريتهم في ممارسة كافة ألوان وأشكال الشر والدمار، لكن أهل الخير من أبناء الإنسان يتواكبون في المواجهة، ولم يتركوهم لنزوعات أهل الشر العدوانية، فإن ابتكر أهل الشر وسيلة دمار جديدة، ابتكر أهل الخير وسيلة عمار جديدة، وإن ابتكر أهل الشر وسيلة نشر أوبئة جديدة، ابتكر أهل الخير وسيلة علاج جديدة، وإن ظهر طاغية يطغى على الناس، ظهر عالِم خفف

عن الناس، والآن وبعد كل هذه المسيرة البشرية في هذا الصراع بين المعمّرين، وبين المدمّرين، إذا نظرنا إلى واقع الأمر، سنرى بأن ما ينعم به الإنسان من أمن ورفاه في بقاع أرض الله، يفوق ما يلقى فيه الإنسان من الكوارث البشرية، وموجات الاضطراب في بقاع الأرض، وبذلك فإن الذين يتمتعون بالنعيم، والرفاه، والآمن، هم أكثر عدداً من الذين يفتقدون إلى ذلك من البشر، وهذا يعني بأن عجلة البناء تتقدم عجلة الهدم، وعجلة الحضارة الإنسانية تتقدم عجلة التخلف والعودة إلى الوراء.

الباب الثانـــي

الخسارة

﴿٤﴾

﴿**يَسألُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ**﴾

الآن، يتحوّل سياق الخطاب من ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ إلى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، فبعد كل هذا التفصيل في ما أحلّ من اللحوم، وما حُرّم منها يسألك ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ يا محمّد: ﴿**مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ**﴾ يُخبر الله رسوله: ﴿**قُلْ**﴾ لهم يا رسولي بأن الله يقول لكم: ﴿**أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**﴾ نظير ما حرّم عليكم الفسق، وهذا يعني أن كل ما ذُكر مما حرّم الله، فهو غير طيّب، والإنسان إن أكله لا يستلذ به لأنه فاقد لعنصر الطيب، والطيّب ما يستلذ الإنسان بتناوله، وهذا يعني أن كل ما هو طيّب ويستلذ الإنسان بنكهته الطيبة، سواء من اللحوم وغيرها من ألوان المطاعم والمآكل والمشارب فهو حلال مالم يُذكر تحريمه في نص قرآني، أو حديث نبوي.

﴿**وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ**﴾ما اصطدتموه بواسطة ﴿**الجَوَارِحِ**﴾وقد سُميت بذلك كونها تدر على أهلها بالمكاسب. وهي الكواسب من صغار البهائم، والطير. مثل الكلاب الضواري، والفهود، والصقور. في التنزيل الحكيم: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ**﴾ الأنعام ٦٠ بمعنى ما كسبتم من خير وشر.

تقول العرب : فلان جرح أهله خيراً ، أي : كسبهم خيرا . ويقال : فلان لا جارح له ، أي : لا كاسب له . وروي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لعدي بن حاتم: "إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل".يقول ابن عباس: (آية المعلم أن يمسك صيده فلا يأكل منه حتى يأتي صاحبه)

قال سعيد بن جبير:(نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير، قالا يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت هذه الآية).

﴿**تعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ**﴾ تقومون بتدريبهن في مهارة الصيد، حتى يجلبن لكم هذا الصيد، يقول الشافعي:(والكلب لا يصير معلماً إلاّ عند أمور، وهي إذا أرسل استرسل، وإذا أخذ حبس ولا يأكل، وإذا دعاه أجابه، وإذا أراده لم يفر منه، فإذا فعل ذلك مرات فهو معلم).

﴿**فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ**﴾فقد اصطادت الجوارح هذا الصيد لكم، وليس لهن، فقد أرسلتموهن بعد أن علمتوهن ﴿ **مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ**﴾ فأمسكن بهذا الصيد وجلبنه لكم. ﴿**وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ**﴾عند الذبح﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾في ذلك وسائر حدود الله﴿**إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾.

﴿٥﴾

﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾

ثم تتوسع الطيبات لتشمل﴿**طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ فهو حِلٌّ لَكُمْ**﴾ وفي هذا حفاظ للعلاقة بين المسلمين وبين أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فأنتم تقبلون دعواتهم لتناول الطعام في بيوتهم، وهذا يأتي إلى الذبائح التي يذبحها أهل الكتاب، ولابد من التنبيه بأن كلمة ﴿**الطَّيِّبَاتُ**﴾ سبقت هذه الرخصة، فقد أحل لكم ﴿**الطَّيِّبَاتُ**﴾ من طعامهم وشرابهم، فإن إجازة الطعام، هي إجازة للشراب، فإن ذلك لايقتصر على الطعام دون الشراب، وإلاّ إن احتجت مع الطعام إلى شربة ماء، ما لذي ستفعل، ثم أنك تتناول المشاريب التي يتم تقديمها سواء مع الطعام، أوعقبه، لكن على أن يكون ذلك كله طيباً مما أحل الله، كذلك يجوز لك دعوتهم لتناول الطعام والشراب في بيتك، وهذا التواصل الاجتماعي لايقتصر على تبادل الزيارات والولائم، بل إلى المصاهرة أيضاً، وقد ساوى الله بين ﴿**الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ فيجوز لك أن تتزوج بامرأة منهم دون أي زيادة في شروط الزواج التي تكون لهما معاً وهي: ﴿**إِذَا**﴾ بشرط أن ﴿**آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾ دفعتم لهن صِداقهن، ثم ﴿**مُحْصِنِينَ**﴾ أي محافظين على

عفّتهن كونهن ﴿مُحْصَنَاتٌ﴾ كما أوردت الآية، وهذا يعني أن الرجل يمكن له أن يأتي المحصنة، فينال من عفافها، فيتقرّب منها بنيّة الزنا، وليس بنية الزواج، فجاء إثبات ذلك بإضافة شرط ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وهو الزنا العلني، أي يُخبر الزاني بأنه يزني بفلانة، وهي تكون زانية في العلن، تستقبل مَن يأتي إليها، وتتبع مَن يريدها للزنى، بإيمائة منه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم". وقد قدّمتُ شرحاً وافياً عن معنى السفاح ومدلولاته في تحليل سورة النساء.

ثم شرط ثالث هو ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ على نقيض السفاح، أي يتقرّب منها كي يتخذها سرّية له، فتكون عشيقته، ويكون عَشيقها دون عقد زواج، وهذا اللون يكثر في بعض بلاد الغرب، وكذلك بعض البلاد الإسلامية التي تخرج فيها المرأة وتعود دون ضوابط، وتتخذ أصدقاء دون أن ترى مانعاً من ذلك، فهي في الظاهر صديقته، لكنها في الباطن عشيقته، وهو في الظاهر صديقها، وفي الباطن عشيقها، ذلك أن الصداقة مِن الصِدق، فعندما يتصادق شخصان يعني ذلك أن كل واحد منهما يَصدق صاحبه، ويتبادلان بينهما الأحاديث الخاصة، وهذا يعني أن الأمر يخص المشاعر الإنسانية والعاطفة، فأحدهما يُصارح الآخر بما يجري معه في وقائع حياته، وهذا مِن شأنه أن يجعل من الصداقة أكثر ثباتاً سواء أكانت بين رجلين، أو بين امرأتين، لكنه إن أصبح بين رجل وامرأة، فالعاطفة هنا تشتعل بينهما مع لحظات الصدق، ومعلوم أن المرأة ضعيفة أمام الرجل، والرجل ضعيف أمام المرأة كون هناك شهوة تربط بينهما، وهذا العنصر مفقود بالنسبة للصداقة بين الرجل والرجل، أو بين المرأة والمرأة، فالصداقة هي حالة شديدة الخصوصية، وشديدة المصارحة بحيث يُصبح صديقك جزءاً منك، وتصبح جزءاً منه، وفي الأفراح والأتراح تراك تلجأ إليه، لشعورك أنه يُشاركك حالتك، وبذلك فهو يبتهج معك في الأفراح، ويُخفف عنك في الأتراح ، ولذلك تطلعه على سرّك، فهو أمين سرّك، وأنت أمين سرّه، ثم أن الصداقة تبنى على أساسيات مثل تبادل مشاعر الارتياح، وتبادل المحبة، فلا يمكن لك أن تصادق شخصاً دون أن تحبه، ودون أن تتلمّس حبه لك، ودون أن ترتاح إلى مجالسته، ودون أن يرتاح إلى مجالستك، فمع الأيام، وتكرار المصارحة في علاقة الصداقة بين الرجل والمرأة، تتحوّل إلى عاطفة، ثم تؤدّي إلى علاقة جسدية بينهما، فتستمر في ظاهرها الصداقي موازاة مع باطنها الجسدي، فاستمرار علاقة الصداقة بين الرجل والمرأة على وتيرة الصداقة بين الرجل والرجل، أو المرأة والمرأة هو خلاف لطبيعة الذكورة، وطبيعة الأنوثة، وفي ذروة بلوغهما العفاف، لابد لمشاعر عاطفية ما أن تتحرّك في موقف ضعف ما حتى لو أخفيا هذه المشاعر عن بعضهما البعض لاعتبارات معيّنة، لكن حتى تأخذ الطبيعة الأنثوية مجراها الطبيعي، وتأخذ الطبيعة الذكورية مجراها الطبيعي، فالرجل هنا يكتم مشاعره الحقيقية تجاهها، وهي كذلك تكتم مشاعرها تجاهه، لكن هذا لايعني أنهما لايعيشان تلك المشاعر الخفية تجاه بعضهما، ولذلك فإن المرجعية الربانية تحسم هذه المسألة، فيأمر الله بغض البصر: ﴿قُل﴾يا محمّد﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

﴿خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾النور٣٠﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ النور ٣١ والله أعلم بفطرة الإنسان، ومعلوم أن الصداقة بين الرجل والمرأة لاتتوقف عند عدم غض أحدهما بصره عن الآخر، بل عدم غض سمعه، وصوته، وأسراره عن الآخر، وقد بيّن الله جل جلاله أن نظرة الرجل للمرأة تختلف عن نظرة الرجل للرجل، ونظرة المرأة للرجل، تختلف عن نظرتها للمرأة، ومن هنا جاء الأمر بالغض، ومن ذلك يكون النهي عن الصداقة بين الرجل والمرأة، لأن مقوّمات هذه الصداقة تؤدّي إلى انتهاك لحرمات الله وحدوده بين الرجل والمرأة الأجنبية عنه.

ولعل لكل حالة مفرزاتها نظير ذلك، فعندما تتخذ المرأة المتزوّجة صديقاً، وتكون في ذات الوقت على علاقة مضطربة بزوجها، فإن ذلك يكون عاملاً إضافياً للميل بعاطفتها إليه، وكذلك إذا اتخذ الرجل المتزوّج صديقة، ويكون في الآن ذاته على علاقة مضطربة مع زوجته، فإن ذلك من شأنه أن يكون عاملاً إضافياً شطر تفعيل عواطفه تجاهها، ذلك أن أحدهما - والحال هذه- يشعر بأنه يفرّغ شحنات نفسه للآخر، وهذا يكون بمثابة ردّ الفعل على واقع العلاقة الزوجية المتوترة ، واعلم أن ذلك لايقتصر على عمر بعينه، أو مرحلة زمنية بعينها، بل يشمل سائر الأعمار، وجميع المراحل الزمنية ، ومختلف المستويات الاجتماعية، فيمكن أن ترى جدّة لها أحفاد وقد حافظت على عفافها حتى تلك المرحلة من عمرها، إلاّ أن ظرفاً ما أدى إلى نشوب علاقة استلطاف بينها وبين رجل، ثم إلى الصداقة، ثم تطوّرت العلاقة مع تعدد اللقاءات والمصارحات والأحاديث الخاصة في حالة ضعف وخلوة إلى الوقوع في براثن الزنى، وفي زماننا غدت العلاقة بين الرجال والنساء في متناول اليد حتى لو كان أحدهما بعيداً عن الآخر، بل يمكن للعلاقة أن تبدأ دون أن يرى أحدهما الآخر رأي العين قط، وذلك من خلال وسائل التواصل الحديثة، وهذا يُتيح لهما الخلوة الحسّية مع بعضهما البعض حيث يفضي أحدهما للآخر ويفضفض له عن مكنونات نفسه، والخلوة الحسّية لاتقل شأناً عن الخلوة الجسدية، حيث يمكن أن تستدرجهما هذه الخلوة الحسية إلى الخلوة الجسدية، فتتحول خلوة الصوت بالصوت، وخلوة الصورة بلصورة، إلى خلوة الجسد بالجسد، و يمكن أن يحدث شكل من أشكال الزنى من خلال هذه الخلوة الحسية، والعورة التي تستثير الشهوة لاتقتصر على عورة البدن فحسب، بل يمكن أن تكون في عورة الصوت، وعورة النظر، وعورة السمع، ولذلك يُستحسن للمرأة إن رأت بدن امرأة أخرى ألاّ تتحدّث عن تفاصيل ما رأت لزوجها. وفي السنة النبوية الشريفة: "إن العين تزني، وزناها النظر، وإن اليد تزني، وزناها البطش، وإنالأذن تزني، وزناها السمع،وإن الفرج يصدق هذا، أو يكذبه ".

قال ابن جرير : (حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا أبو هلال ، عن قتادة ، عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقد هممت ألا أدع أحدا أصاب فاحشة في الإسلام أن يتزوج محصنة . فقال له أبي بن كعب : يا أمير المؤمنين ، الشرك أعظم من ذلك، وقد يقبل منه إذا تاب).

وعند أحمد بن حنبل أن عقد الزواج على المرأة الزانية لايصح إن لم تتب عن الزنى، وكذلك إذا كانت المرأة عفيفة، وكان الرجل فاجراً، فلا يصح عقد زواجه منها قبل أن يتوب .

فالزواج هو بداية لتأسيس المستقبل، وهذا الأساس عليه أن يكون مبنياً على الصلاح، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء " رواه الجماعة.

ويقول صلى الله عليه وسلم، في بيان ما يثاب به العبد، وتكتب له به الحسنات: " وفي بضع أحدكم صدقة". قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال:"أرأيتم إن وضعها في حرام، أكان عليه وزر فكذلك إذا وضعها في حلال، كان له بها أجر".

ثم يبيّن عليه الصلاة والسلام أهمية الزوجة الصالحة، وضرورتها، في سبيل حياة هادئة طيبة، يمكن للإنسان من خلالها أن يكون نافعا وفعّالا في الحياة، لأن الرجل ودون الاستقرار العاطفي يبقى دوما يشعر بفراغ، هذا الفراغ الذي يأتي على وقته وجهده وفكره، بل وحتى عفته بعض الأحيان . يقول صلى الله عليه وسلم : "ما استفاد المؤمن، بعد تقوى الله عز وجل، خيرا من زوجة صالحة. إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّ ته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله".

أمام هذه الزوجة الصالحة لا يملك هذا الزوج المحظوظ، إلا أن يشعر بطمأنينة أسرية وعاطفية واجتماعية، مما ينعكس على سلوكه اليومي مع ذاته، ومع المحيط من حوله، فهو رجل سوي متفرغ للإخلاص في العمل، فتراه يحقق نجاحات هائلة في مختلف مناحي الحياة. فالرجل لا يكون كائنا اجتماعيا معترفا به، بشكل اجتماعي رسمي، دون أن يكون مقترنا بزوجة. هذا الزواج الذي يرسخ أقدام الزوجين في عمق الأسرة والمجتمع، من خلال الإنجاب، وولادة صلات القربى الجديدة. واعلم أن ذلك لايتحقق دون تمتع الرجل بروح الحكمة، ودون استيعابه لخصائص المرأة، لأن جهل الرجل بما تمتاز به المرأة يؤدّي إلى صِدامات بينهما، حيث لاتكون معها الحياة الزوجية مستقرّة، فجوهر الخلاف الأزلي بين الرجل والمرأة، أن المرأة تعاتب الرجل على ظلمه، واضطهاده لها، لأنه لايستوعب طبيعة المرأة، وهذه الطبيعة كما في الحديث الشريف " المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء" وكذلك قوله بأن النساء " ناقصات عقل ودين" وعندما قلن له : وما نقصان عقلنا ودیننا يا رسول الله ؟ قال " أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل " ؟ قلن: بلى يا رسول الله، قال " فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصلّ ولم تصُمْ " ؟ قلن: بلى يا رسول الله، قال " فذلك نقصان دينها". فهو يريد أن يفرض عليها بالقوة، إقامة الاعوجاج، وإكمال العقل، وتتفاقم معاناتها عندما يريد لها أن تتحدّى طبيعتها وتستجيب لمشيئته، لتصبح مثله رجلاً، في الإقامة، والعقل، وبذات الوقت

تحافظ على أنوثتها، ويستمرّ الرجل في ظلمه واضطهاده لها، لأنها تفشل في الاستجابة، لأن ذلك خارج عن إرادتها، ومتجاوز لحدود مقدرتها. من هنا، فإن الرجل الحكيم، هو ذاك الذي ينمّي فيها ما حباها الله من اعوجاج، ونقص في العقل، وإن رأى برود في هذه الميزة، روّضها لها حتة تبقى المرأة محافظة على مسك سويتها كامرأة، ونضارة جماليتها كأنثى، لأن المقابل لها، هو رجل، وهو ذكر، وهو قائم عليها، ويزيدها عقلاً، فترة المرأة فيه حينئذ مثال الرجل الناضج المتلئ رجولة وحكمة، كونه يستوعب طبيعتها، ويتيح لها أن تمارس وتحقق وتتفاعل مع مزايا تلك الطبيعة الإلهية فيها، ونظير ذلك، فإنه يستمتع بممارسة حكمته، ويقطف ثمارها، ويشعر بأنه يزداد حكمة ونضجاً ووعياً كلما حرص عليها كي تحافظ على طبيعتها، فإن مضى شهر، ولم يبدر منها اعوجاج، أو نقص في العقل، يستشعر بخلل ما طرأ على سويتها، وجماليتها كأنثى، فيسعى شطر الإصلاح، لتتعافى، وتعود إلى ما كانت عليه. في حين أن الرجل الذي لايتمتع بالحكمة، قد يواجهها باعوجاج أكثر، ونقص عقل أكثر، فترى المرأة أنها أمام رجل تقوم هي عليه، لأنه يبدو معوجاً أكثر منها، وناقص عقل أكثر منها، عندئذ ترى بأن تسترجل عليه، وتراعيه، وتستوعبه، وشيئاً فشيئاً ترى المرأة أنها تخرج عن خصائص أنوثتها برفقة زوج كهذا، حتى أنها مع الزمن تبدأ تشبه الرجال سواء في مظهرها، أو في تصرّفاتها، أو حتى في صوتها. وهذا الرجل يكون وبالاً على المرأة، لأنه يكون رأس فشل العائلة التي تديرها بدلاً عنه، وتنفق عليها بدلاً عنه.

ثم بيّن الله ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ**﴾ بثبوتيات الإيمان بالله وفق بنود العقد الذي عقده مع الله على مقومات الإيمان، وفي هذا تنبيه بأن الجواز ببنية هذه العلاقة القوية بين المسلم وبين أهل الكتاب لايعني بأن أهل الكتاب لو أشركوا لايجزون بما أشركوا وجاءت عبارة ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ**﴾ بمعنى ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ**﴾ بتوحيد الله الذي لاشريك له:﴿**فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**﴾ بمعنى فقد﴿**عَمَلُهُ**﴾ أرضية الإيمان،﴿**أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُواْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ**﴾البقرة١٦، فهو كافر حتى لو قدّم أعمالاً صالحة، بيد أنه يقف على أرضية كافرة، فعمله مُحبَط، والإحباط يكون للذي يبذل جهداً في عمل، ثم لا يجني النتيجة، أي لا يتكلل زرعه بالمحصول، فهو يشقى في الزرع لكنه لا يُحصّل حاصلاً﴿**وَهُوَ**﴾ الكافر بالإيمان﴿**فِي الآخِرَةِ**﴾يوم الحساب﴿**مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ يوم يربح الرابحون، ويفلح المفلحون. في الصحاح في اللغة: (حَبِطَ عملُهُ حَبْطاً بالتسكين، وحُبوطاً: بطَلَ ثوابه.وأحْبَطَهُ الله تعالى.والإحْباطُ: أن يذْهبَ ماءُ الرَكِيَّةِ فلا يعودَ كما كان)[٣] .

[٣] لمؤلفه إسماعيل بن حماد الجوهري، (حبط).

الباب الثالــث

مســك الطهارة

﴿٦﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

ما يزال النداء موجهاً إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ وهنا نأتي إلى الوضوء، حيث ندخل حالة الوضوء، نتعرّف على مزاياه، ندرك معانيه، كيف يُصبح الإنسان على وضوء، وكيف ينقض وضوؤه، وما الفرق بين الإنسان المتوضئ، والإنسان غير المتوضئ، فنحن نتدرّج فيما يعلّمه الله لنا، ونسأل الله أن يمنّ علينا ويتقبّل إيماننا ويقبلنا في زمرة ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾﴿الَّذِينَ﴾ يخصهم الله تعالى بهذه الخاصية من النداءات المتتالية: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ نهضتم ﴿إِلَى﴾لأداء ﴿الصَّلاةِ﴾﴿فا﴾لاتصلّوا قبل أن تـ﴿غْسِلُواْوُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ثم ﴿وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾ لكن هل يعني ذلك أن الوضوء يجب كلما ﴿قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ لأن ظاهر الآية يشير إلى ذلك؟ فمجرّد ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ عليكم بالوضوء، لكننا إذا أمعنا في باطن الآية سيجلو لنا أننا قبل أن نقوم﴿إِلَى الصَّلاةِ﴾ لم نكن على وضوء، فلعلك توضأت قبل الصلاة بساعتين، ثم حان وقت الصلاة، هل ستتوضأ؟ ثم لو أنك كنت على وضوء صلاة سابقة، هل ستتوضأ وضوءاً على

وضوء، لعله يجوز لك أن تتوضأ وضوءاً على وضوء، بيد أننا نرى بأن المعني هو غير المتوضئ، فإن قمت ﴿إِلَى الصَّلاةِ﴾ وأنت لست على وضوء، فعليك أن تتوضأ، وإن كنت على وضوء، فهنا يمكن لك أن تجدّد وضوءك إن شئت، لأنك بالأصل متوضئ، ولم تحدث، فكيف تتوضأ وأنت متوضئ، كما الحال في الجنابة، فكيف ترفع الجنابة عن نفسك، وقد رفعتها منذ قليل، وأنت الآن غير مجنب، وهي غير موجودة فيك، وكأنك تريد أن ترفع شيئاً مرفوعاً رفعته بنفسك، لكن إن شئت يمكن لك أن تجدّد رفع الجنابة، كما الأمر إن شئت يمكن لك أن تجدّد الوضوء عند قيامك للصلاة. وعندذاك تجدد نيّتك على الوضوء وتتوضأ، لأن ذلك يحتاج إلى نيّة عند الإمام الشافعي بقوله: (الوضوء مأمور به، وكل مأمور به يجب أن يكون منوياً فالوضوء يجب أن يكون منوياً) ورأى أن : (النيّة شرط لصحة الوضوء والغسل) فهنا تجدّد النية كذلك على النية إن شئتَ تجدّد الوضوء .

من جهة أخرى، يمكن أن يحتمل المعنى أنك لو كنتَ على وضوء، ثم نمت، وقمت إلى الصلاة، فلا يجوز لك الاعتماد على وضوئك الذي سبق، لأنك لاتدري إن حدثت أم لا في نومك، ولعل ذلك لايشمل مقدمة النوم، مثل الغفوة سواء أكان الإنسان مستلقياً، أو جالساً، أو متكئاً، وقد أخذته غفوة يشعر معها في حال وقوع حدث، وروي أن بعض الصحابة كانوا ينتظرون العشاء الآخرة حتى تخفق رؤوسهم، فيصلون ولا يتوضؤون[٤]، ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ يحتمل أن يكون ﴿إِذَا﴾استفقتم ونهضتم ﴿إِلَى الصَّلاةِ﴾ وهذا إضافة إلى وجوب الوضوء بالنسبة لغير المتوضئ الذي هو المعني الأصل في الآية التي تحتمل أنها تعني الحالات الثلاث معاً، والله أعلم بمراده.

روى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات " .وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " الوضوء على الوضوء نور ".

وقال أبو داود : (حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا أبو المليح ، حدثنا الوليد بن زوران عن أنس بن مالك ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا توضأ أخذ كفا من ماء فأدخله تحت حنكه ، يخلل به لحيته ، وقال : "هكذا أمرني به ربي عز وجل").

وقال الإمام أحمد: (حدثنا أبو سلمة الخزاعي ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس ؛ أنه توضأ فغسل وجهه ، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر ، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا ، يعني أضافها إلى يده الأخرى ، فغسل بهما وجهه . ثم أخذ غرفة من ماء ، فغسل بها يده اليمنى ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى ، ثم مسح رأسه ، ثم أخذ غرفة من ماء ، ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها ، ثم أخذ غرفة أخرى فغسل بها رجله اليسرى ، ثم قال :

[٤] رواه النسائي، كتاب الطهارة، باب النعاس، حديث رقم ١٦٢ عن عائشة رضي الله عنها، وله أصل عند البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم من لم ير من النعسة والنعستين، حديث رقم ٢٠٩، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن، حديث رقم ٧٨٦عن عائشة رضي الله عنها.

هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

عن أبى عبيد مولى سليمان بن عبد الملك، عن عمرو بن عبسة: أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا غسل المؤمن كفّيه انتثرت الخطايا من كفّيه، وإذا تمضمض واستنشق خرجت خطاياه من فيه ومنخريه، وإذا غسل وجهه خرجت من وجهه حتى تخرج من أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت من يديه، فإذا مسح رأسه وأذنيه خرجت من رأسه وأذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت حتى تخرج من أظفار قدميه، فإذا انتهى إلى ذلك من وضوئه كان ذلك حظّه منه، فإذ قام فصلى ركعتين مقبلا فيهما بوجهه وقلبه على ربه، كان من خطاياه كيوم ولدته أمّه "

وروى مسلم في صحيحه ، من حديث يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده ممطور عن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أوعليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها ".

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا توضأ الإنسان فأسبغ الوضوء ثم صلى فيهما ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه"[٥]

وفي صحيح مسلم من رواية سماك بن حرب، عن مصعب بن سعد، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا صلاة بغير طهور ".

هذا في حال إن لم تكونوا على جنابة، أمّا ﴿**وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا**﴾ارفعوا الجنابة عن أنفسكم وهنا يبيّن الله بأن الوضوء لايتحقق بوجود الجنابة.

﴿**وَإِن كُنتُم مَّرْضَى**﴾بما يلحق الأذى بالمرض مثل وصول الماء إلى الجرح

﴿**أَوْ عَلَى سَفَرٍ**﴾كنتم في طريق السفر

﴿**أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ**﴾وكلمة ﴿ **جَاء**﴾تعني أنه ذهب و﴿**جَاء**﴾فمعنى ذلك أنه على المرء أن يتستر في﴿**الْغَائِطِ**﴾، فإن كان في طبيعة، يتجه إلى مكان منخفض، أو ما يمكن له أن يستر جسده وهو في ﴿**الْغَائِطِ**﴾وتشير الآية بأنهم كانوا يفعلون ذلك، فقد عاد ﴿**مِّنَ الْغَائِطِ**﴾بعد أن ذهب إليه لقضاء الحاجة. لكن إذا اقتصر الأمر على البول فحسب، فيمكن أن يحدث ذلك دون أن ينعزل المرء، ولكن يستر عورته، وفي زماننا يحدث ذلك في بعض المرافق، فنرى أن موضع الغائط يكون مغلقاً يستر الداخل، في حين أن موضع الذي يبول يكون مفتوحاً فيرى الناس بعضهم البعض وهم يقفون على بول، وقد تم تصميم ذلك بعناية يتم فيها ستر العورة عند البول، وقد سبق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقدم على ذلك، وروي أنه صلى الله عليه وسلم كان في حالة بول، فألقى رجل عليه السلام، فلم يرد حتى تيمم ثم ردّ السلام قائلاً:

---

[٥] رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، حديث رقم ١٥٨، ومسلم، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، حديث رقم ٢٢٦ عن عثمان بن عفان.

" إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر " رواه الدارقطني وروي عن حذيفة أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرآه أتى سُباطة قوم، وبال قائماً[٦]

﴿أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء﴾لعل المراد: ﴿أَوْ﴾جامعتم نساءكم، ويجوز أن يكون للمداعبة التي تكون قبل الجماع، فهي مقدّمة للجماع، ويُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى شيء من الملاطفة التي تسبق الجماع بين الرجل وامرأته، وإلاّ لكان الحكم في مجرّد اللمس بين الرجل وأي امرأة كانت، لأنها داخلة ضمن كلمة ﴿النِّسَاء﴾، وذلك يشمل الأم، والابنة، والأخت، وسائر ﴿النِّسَاء﴾ المحرّمات في حال مجرّد حصول لمس بينهما. وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يُقبّل بعض نسائه، ثم يخرج إلى الصلاة ولايتوضأ[٧] بعد ذلك بيّن الله:

﴿فَ﴾إن﴿لَمْ تَجِدُواْ مَاء﴾﴿فَ﴾أجيز لكم أنت﴿تَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً﴾عندذاك﴿فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ وهذا يعوّضكم عن الماء ﴿مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾فتلبثوا على جنابة، وعلى غير صلاة ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ﴾ يوجد لكم أسباب الطهارة عندما تحدثون، وعندما تجنبون أينما كنتم حتى دون وجود الماء، ويرفع عنكم الحرج، جاءت كلمة ﴿حَرَجٍ﴾بالغة الدقة، فالحرج هنا هو الحياء من الله إلى مبلغ الضيق، فيضيق الصدر حياء من الله، فإن أردتَ أن تحرج شخصاً، أتيت به إلى شخص آخر يستحي منه شديد الحياء، ثم أفشيت عيباً له في حضرة ذاك الشخص، فيقع له الحرج بسبب مشاعر الحياء الجمّة التي يشعرها تجاه ذاك الشخص، فنحن هنا- ولله المثل الأعلى- ما نزال مع نداء الله وخطابه لـ ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ وأمّا الذين لايؤمنون بالله، فلعلّهم لايستشعرون هذا الـ ﴿حَرَجٍ﴾، لأنهم بالأصل على غير طهارة بسبب عدم الإيمان، فنحن هنا مع مقوّمات بنود الإيمان، وتفعيل هذه البنود في سلوك الإنسان المؤمن بموجب العقد الذي عقده مع الله الذي ﴿يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ﴾ أيها المؤمنون، وذلك لتتميّزوا عن الذين لايؤمنون.

﴿ وَ﴾ذلك﴿لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾يا معشر - ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ - ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وجاءت كلمة ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تنبيهية وتحذيرية في العين ذاته، فإن شكرتم، ستدوم عليكم النعمة، وإن لم تشكروا، انقطعت عنكم.

﴿٧﴾

[٦] رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين، حديث رقم ٢٧٣ عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.
ورواه البخاري، كتاب الوضوء، باب البول عند صاحبه والتستر بالحائط، حديث رقم ٢٢٣

[٧] رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء من القبلة، حديث رقم ٧٨، والنسائي، كتاب الطهارة، باب ترك الوضوء من القبلة، حديث رقم ١٧٠، والترمذي، كتاب الطهارة، باب ما جاء في ترك الوضوء من القبلة، حديث رقم ٨٦عن عائشة رضي الله عنها.

﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

تأمّلوا كل ما أنعم به الله عليكم، وأنتم ترفلون في هذه النعمة، تذكّروا بأنها من الله، وجاءت كلمة ﴿نِعْمَةَ﴾ لتشمل كل ما أنعم به الله على الإنسان، والمفرد هنا يأخذ معنى العام أكثر من الجمع، فلو قال نِعَم لكان ذلك مقتصراً على مجموعة من النِعَم التي تعلمها، ويمكنك تعدادها، فـ ﴿نِعْمَةَ﴾تشمل بعموميتها المفتوحة حتى ذاك المجموع الذي تعلمه، إضافة إلى ما تعيشه ولكنك لاتعلمه، مثل اعتقادك بأن هذا الشيء يؤذيك، بيد أنه في حقيقته نعمة من الله عليك، ولكنك لاتدرك بأنه نعمة، ولعل القادم من الأيام يُظهر لك بأنه كان نعمة، ولم يكن نقمة، كذلك ما تكتشفه من ألوان ﴿نِعْمَةَ اللّهِ﴾ خلال السنوات التي تعيشها، فكل سنة تكشف لك ما لم تكشفه سابقتها فالـ ﴿نِعْمَةَ﴾ هي كل ما تدركه، وما لاتدركه، ولعل ما لاتدركه من ﴿نِعْمَةَ اللّهِ﴾ التي أنعم بها عليك يفوق ما تدركه. ثم ذكّرهم الله بعهد الإيمان الذي تعاهدوا به مع الله، وقالوا بموجبه: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فوجههم إلى التقوى، وألاّ ينقضوا الميثاق وأخبرهم بأنه ﴿عَلِيمٌ﴾﴿بِ﴾ما يجري في﴿ذَاتِ﴾أعماق ﴿الصُّدُورِ﴾.

الباب الرابـع
العدل والشنآن

﴿٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

ما دمتم قد عقدتم على الإيمان، وأن المعاهدة هي بينكم وبين الله، فلا تأذنوا لأحد أن يتدخل في لب هذا الميثاق الذي بينكم وبين الله فـ ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ قوموا عابدين لله، موفين بعهدكم معه ، فتحملوا مسؤولية إيمانكم و ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ قوموا بمسؤولياتكم تجاه الإيمان بالله، ولاتتكاسلوا، أو تتخاذلوا، ثم:﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ اشهدوا بالعدل، وما رسوه حتى مع أقرب الناس إليكم، وجاء ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي ساووا بين الجميع في شهادتكم دون أن تميّزوا بين شخص وغيره مهما كان بالنسبة إليكم، فجمع ﴿الْقِسْطِ﴾ هنا بين الصدق والعدل كون الأمر يمس الشهادة، والشهادة يُبنى عليها الحُكم. في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال :(نحلني أبي نحلا فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجاءه ليشهده على صدقتي فقال : " أكل ولدك نحلت مثله " ؟ قال : لا . قال : " اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم " . وقال : " إني لا أشهد على جور ". قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة). ثم بيّن جل شأنه:﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ لايجعلنكم﴿شَنَآنُ﴾حقد﴿قَوْمٍ﴾يكتون لكم الغل﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أن تنقضوا بميثاقكم مع الله، وتحيدوا عن شهادة العدل، فيجعلكم ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ - ﴿شُهَدَاءَ﴾- بالجور بدل ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ فتقوموا على الـ ﴿شَنَآنُ﴾ بدل أن تـ ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ فالـ ﴿شَنَآنُ﴾ هو استدراج من العدل إلى الجور، ومن الوفاء بالعهد إلى النقض به.ثم بيّن للمؤمنين به: ﴿اعْدِلُوا﴾بأن تـ ﴿كُونُوا﴾-﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ - فذلك﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ وذلك يعني أنكم إذا رضختم لـ ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ فهو أبعد ﴿لِلتَّقْوَى﴾.

يقول ابن القيم: (إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعا ش والمعاد وهي عدل كلها ورحمة كلها وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل الى الجور وعن الرحمة الى المفسدة وعن

الحكمة الى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه).

فالعدل هو سلوك إنساني، ولذلك جاء أمر الله بـ ﴿**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ**﴾ أي لايُخرجنكم شنآنهم من العدل الذي أمر به الله، فتجنحوا إلى الظلم.

يقول الغزالي: (مقصود الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم و نسلهم ومالهم فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة).

إن الظلم الإنساني الذي يتجرد فيه الإنسان من مشاعر ه الإنسانية مهما تمظهر بمظهر القوة، فإنه مبني على هشيم، والعدل المبني على مشاعر الأخوة الإنسانية والتكاتف الإنساني مهما تمظهر بمظهر الوهن فإنه مبني على أسس لا تزحزحها أعتى الرياح .يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من ابتلي بالقضاء بين النا س فليعدل بينهم في لفظه وإشارته ومقعده ومجلسه ولا يرفعن صوته على أحد الخصمين ما لا يرفعه على الآخر". لايقتصر العدل على وقت دون غيره، أو على موقف دون عيره، بل يكون شاملاً في كل شيء.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا"[٨]

يقول ابن الحداد:(أما بعد فإن من وصف الرياسة العدل في السياسة لتعمر البلاد ويأمن العباد ويصلح الفساد وتجري الأمور على وفق السداد وتنتعش الرعية وتقوى على أداء الفرائض الشرعية ، وتلك نعمة من الله أودعها قلوب الولاة والملوك والغني والصعلوك والسياسة سياستان : سياسة الدين وسياسة الدنيا فسياسة الدين ما أدى الى قضاء الفرض وسياسة الدنيا ما أدى الى عمار الأرض وكلاهما يرجعان الى العدل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان لأن من ترك الفرض ظلم نفسه ومن خرّب الأرض ظلم غيره قال أفلاطون الحكيم : بالعدل ثبات الأشياء وبالجور زوالها)[٩] فبعد النهي عن ذلك، يقول الله: ﴿**وَ**﴾على ما تبيّن لكم﴿**اتَّقُواْ اللّهَ**﴾في إيمانكم به﴿ **إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾والخبير هو الذي يخبر دقائق الأمور وتفاصيلها مهما بلغت من الدقة، وفلان خبير في الأمر، أي متنفّذ ومتمكّن فيه، قال عز وجل: ﴿**فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً**﴾الفرقان٥٩ ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾فاطر١٤ ومن هنا يُطلق على الموضع الذي يتم فيه اكتشاف دقائق الذرات بـ المَخبَر ويختص فيه الطبيب المَخبَري، ولذلك يستعين به الأطباء مهما بلغوا من إمكانات، فهم يعتمدون على بيانه المخبري في وسائل العلاج، والخبير من أسماء الله الحسنى: ﴿**فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**﴾التحريم٣ وخبرة الناس هي خبرة وعلم بعد إجراء الاختبار، بمعنى هي اكتشاف، في حين أن الله عليم وخبير معاً، فلا جديد بالنسبة إليه، وليس بوسع أحد أن يخبره خبراً

---

[٨] صحيح مسلم ٣ / ١٤٥٨

[٩] الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ابن الحداد

جديداً لايعلمه من قبل، فإن كنت ستفعل شيئاً بعد عدّة سنوات، فهو يعلم بأنك ستفعل ذاك الشيء، ويعلم تفصيل الزمان والمكان، ثم أنه يأذن بذلك سواء أكان ذلك الفعل خيراً أو شراً، فلا شيء يمكن له أن يقع خارج إذن الله، وعندما يقع هذا الفعل، فإن الله يكون خبيراً بوقوعه، عالماً به قبل وقوعه، وهذا ما لايكون للإنسان مهما بلغ من إمكانات.

﴿٩﴾

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

يبيّن الله تعالى لـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾بوحدانيته وَ تفاعلوا مع إيمانهم بأن﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ومن ذلك: التقوى، والعدل، والصدق، والاستقامة، فهؤلاء قد ﴿وَعَدَ ﴾هم ﴿اللَّهُ﴾بأن يغفر لهم، ويؤجرهم أجراً عظيماً. ووعد الله هو وفاء، كون لاشيء يمكن له أن يحول بين أن يفي الله بوعد وعده لعباده، فعندما يكون الوعد من الله، فذلك مُحقق كون الله لايُخلف الوعد. وهذا يبث الطمأنينة للناس كونهم أمام وعد الله لهم.

﴿١٠﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

أمّا ﴿الَّذِينَ﴾ أنكروا الإيمان بالله، ﴿وَكَذَّبُوا﴾ بما أنزل من آيات على أنبيائه ورسله ﴿أُولَئِكَ﴾على نحو خاص﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾يصحب الشيء، أي يكون في صحبته، والصاحب هو الذي يلازم صاحبه، فهم الذين ﴿كَفَرُوا) أنكروا﴿وَكَذَّبُوا﴾الأنبياء الذين جاؤوا﴿بِآيَاتِنَا﴾و ذلك لا يعني الذين لم يـ ﴿كَفَرُوا﴾﴿وَ﴾ لم يـ ﴿كَذَّبُوا﴾بها الذين بيّن منزلتهم في الآية السابقة.

﴿١١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

النعمة هنا، هي حماية المؤمنين، فإن الله يحميهم ولا يتخلى عنهم أينما كانوا، والخطاب موجّه إلى سائر المؤمنين في كل زمان ومكان بأن الله ينعم عليهم بنعمة الحفظ والحماية، وذِكرُ النعمة، بمعنى شكر المُنعِم

بها، وهذا الشكر بذاته يحقق الطمأنينة في قلب المؤمن بأن الله معه ويحميه من أشكال الغدر، وقد نزلت الآية في مسألة الغدر، عندما أراد بعض بني النضيرة أن يغدروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، بعد أن عاهدوهم على عدم القتال، فأنجاهم الله، فهؤلاء الـ ﴿قَوْمٌ﴾همّوا أن يمدّوا ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ الغادرة إلى إيقاع الأذى برسول الله صلى الله وعليه وسلم وأصحابه من خلال طرحهم حجراً عليهم وهم جلوس عندهم، فجاء جبريل وأخبره بمكيدتهم، فقاموا. ﴿يَبْسُطُوا﴾يمدّوا﴿ إِلَيْكُمْ﴾بسبق إصرار وترصّد وتركيز﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ لقتلكم ﴿فَكَفَّ﴾أمسك ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾قبل أن يبسطوها﴿عَنكُمْ﴾ للشروع في قتلكم فـ ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ واتقوه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإن الله معهم.

ذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد وعكرمة : (أنها نزلت في شأن بني النضير ، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحى ، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين ، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك ، وأمروه إن جلس النبي صلى الله عليه وسلم تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحى من فوقه ، فأطلع الله رسوله على ما تمالؤوا عليه ، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه ، فأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغدو إليهم فحاصرهم ، حتى أنزلهم فأجلاهم .

الباب الخامس

الضلال

﴿١٢﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾

إن بنود هذا الميثاق تقضي بـ ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ﴾التي فرضتها عليكم، ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ التي فرضتها عليكم﴿وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾وجاءت كلمة﴿بِرُسُلِي﴾جمعاً ولعل ذلك يعني: الآن من خلال موسى، ثم فيما بعد من خلال ما أرسل بعده مثل : داوود، وابنه سليمان، وزكريا وابنه يحيى، وعيسى، ومحمد، عليهم جميعاً الصلاة والسلام، فالميثاق لاينغلق على الأجيال القادمة، كون هؤلاء نقضوا به، والوفاء به يبقى مفتوحاً ومُتاحاً أمام ذرياتهم في كل زمان ومكان.

﴿وَأَقْرَضْتُمُ﴾أنفقتم في سبيل﴿اللَّهَ قَرْضاً ﴾ مالاً﴿حَسَناً﴾ طيباً لأن الله يقبل المال الطيّب ، ولايقبل المال الخبيث، فالإنفاق هنا يكون بطيب نفس لمال طيّب حلال ابتغاء مرضاة الله.

عندئذ ستكونون قد وفيتم مع الله بميثاقكم، و﴿لَئِنْ﴾ شرطية كي يكون الله ﴿مَعَكُمْ﴾ ويؤازركم في الدنيا، كذلك ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ في الآخرة، وقد ضرب الله مثلاً في زمن مضى من بني إسرائيل، فأخذ الله منهم الميثاق، من خلال رسوله موسى عليه السلام، لكنهم نقضوه، ولم يفوا ببنوده، فلقوا جراء ذلك عقاب الله. وهذا استئناف للآية السابقة عندما ﴿هَمَّ﴾بنو النضير من اليهود ﴿أَن يَبْسُطُواْ﴾ إلى النبي وأصحابه ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ بالغدر ونقض العهد الذي بينهم بعدم القتال، فهنا يُذكّر الله الحدث بالحدث، وأن هذا امتداد لذاك، ومَن ينقض ميثاقه مع الله، يسهل عليه أن ينقض ميثاقه مع رسول الله، ومَن ينقض ميثاقه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يسهل عليه أن ينقض ميثاقه مع الناس جميعاً سواء أكانوا مؤمنين أو غير مؤمنين، لأن الأمر يقف على مبدأ، ولذلك فإن المؤمن يفي بعهده سواء مع المؤمنين، أو مع غير المؤمنين، لأنه قبل ذلك يكون قد أوفى بعهده مع الله،

والدليل على وفاء المؤمنين هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب إلى بني النضير من أجل دفع الدية نتيجة خطأ في قتل شخصين من اليهود، وقد حدث ذلك كما في رواية ابن عباس والكلبي ومقاتل، عندما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم:(سرية إلى بني عامر فقتلوا ببئر معونة إلا ثلاثة نفر،أحدهم عمرو بن أمية الضمري، وانصرف هو وآخر معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبراه خبر القوم، فلقيا رجلين من بني سليم معهما أمان من النبي صلى الله عليه وسلم فقتلاهما ولم يعلما أن معهما أمانا، فجاء قومهما يطلبون الدية، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي حتى دخلوا على بني النضير، وقد كانوا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "رجل من أصحابي أصاب رجلين معهما أمان مني فلزمني ديتهما، فأريد أن تعينوني" فقالوا أجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد، ثم هموا بالفتك برسول الله وبأصحابه، فنزل جبريل وأخبره بذلك، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحال مع أصحابه وخرجوا، فقال اليهود: إن قدورنا تغلي، فأعلمهم الرسول أنه قد نزل عليه الوحي بما عزموا عليه). فالذي دفع النبي صلى الله عليه وسلم هو وفاؤه بالعهد، وأنه لايريد أن يُسجّل على نفسه موقفاً بنقض العهد، وهو الأسوة الحسنة للمؤمنين.

إذن يُخبر الله رسوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾

النقيب بمعنى مدير ورئيس، فهو يدير ويرأس الذين ينتمون إلى نقابته، ومن هنا جاءت كلمة النقابة، وهي التي تضم المنتمين والتابعين لها، ويُسيّر أمر النقابة وأعضاءها النقيب، فهو نقيب النقابة، ونقيب أعضائها، ونقباء بني إسرائيل هم رؤساء أسباطهم.

يقول الزجاج: (النقيب فعيل أصله من النقب وهو الثقب الواسع، يقال فلان نقيب القوم لأنه ينقب عن أحوالهم كما ينقب عن الأسرار ومنه المناقب وهي الفضائل لأنها لا تظهر إلا بالتنقيب عنها، ونقبت الحائط أي بلغت في النقب إلى آخره).

وقال مجاهد والكلبي والسدي: (أن النقباء بعثوا إلى مدينة الجبارين الذين أمر موسى عليه السلام بالقتال معهم ليقفوا على أحوالهم ويرجعوا بذلك إلى نبيهم موسى عليه السلام أن يحدثوهم، فنكثوا الميثاق إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا، ويوشع بن نون من سبط إفراثيم ابن يوسف).

وعن ابن إسحاق قال: (أمر موسى أن يسير ببني إسرائيل إلى الأرض المقدّسة، وقال: إني قد كتبتها لكم دارا وقرارا ومنزلا فاخرج إليها، وجاهد من فيها من العدوّ، فإني ناصركم عليهم، وخُذ من قومك اثني عشر نقيبًا من كل سبط نقيبا يكون على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به، وقل لهم: إن الله يقول لكم:﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ إلى قوله : ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وأخذ موسى منهم اثني عشر نقيبا اختارهم من الأسباط كفلاء على قومهم بما هم فيه، على الوفاء بعهده وميثاقه. وأخذ من كل سبط منهم خيرَهم وأوفاهم رجلا. يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ فسار بهم موسى إلى الأرض المقدّسة بأمر الله، حتى إذا نزل التيه بين مصر والشام وهي بلاد ليس فيها خَمَرٌ ولا ظلّ دعا موسى ربه حين آذاهم الحرّ، فظلّل عليهم بالغمام، ودعا لهم بالرزق، فأنزل الله عليهم المنّ والسلوى. وأمر الله موسى فقال: أرْسل رجالا يتحسسّون إلى أرض كنعان التي وهبت لبني إسرائيل من كل سبط رجلا. فأرسل موسى الرءوس كلهم الذين فيهم، فبعث الله جل وعزّ من برّية فاران بكلام الله، وهم روءس بني إسرائيل . وهذه أسماء الرَّهط الذين بعث الله جل ثناؤه من بني إسرائيل إلى أرض الشام، فيما يذكر أهل التوراة ليجوسوها لبني إسرائيل من سبط روبيل: / شامون بن زكوّن / ومن سبط شمعون: / شافاط بن حُرّي / ومن سبط يهوذا: / كالب بن يوفنا/ ومن سبط أتين /يجائل بن يوسف /ومن سبط يوسف وهو سبط أفرائيم/ يوشع بن نون/ ومن سبط بنيامين / فلط بن رفون / ومن سبط زبالون/ جدي بن سودي/ ومن سبط منشا بن يوسف /جدي بن سوسا/ ومن سبط دان/ حملائل بن جمل/ ومن سبط أشر/ساتور بن ملكيل / ومن سبط نفتالي/ نحى بن وفسي / ومن سبط جاد/ جولايل بن ميكي/ .

فهذه أسماء الذين بعثهم موسى يتحسّسون له الأرض ويومئذ سمى /هوشع بن نون / : /يوشع بن نون/ فأرسلهم وقال لهم: ارتفعوا قِبَل الشمس، فارقوا الجبل، وانظروا ما في الأرض، وما الشعب الذي يسكنون، أقوياء هم أم ضعفاء، أقليل هم أم كثير؟ وانظروا أرضهم التي يسكنون أسمينة هي أم هزيلة ؟ أذات شجر أم لا؟ اجتازوا، واحملوا إلينا من ثمرة تلك الأرض. وكان ذلك في أول ما أشجن بكر ثمرة العنب).

وإذا نظرنا إلى العدد ﴿اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ سنراه يتكرر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فممّا يُذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما بايع الأنصار، كان منهم ثلاثة من الأوس وهم كما يُروى: أسيد بن الحضير وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر - ويقال بدله : أبو الهيثم بن التيهان - رضي الله عنهم ، وتسعة من الخزرج وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة ورافع بن مالك بن العجلان والبراء بن معرور وعبادة بن الصامت وسعد بن عبادة وعبد الله بن عمرو بن حرام والمنذر بن عمرو بن خنيس ، رضي الله عنهم) .

يقول الإمام أحمد : (حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن زيد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق قال : كنا جلوسا عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن هل سألتم رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبد الله : ما سألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ، ثم قال : نعم ، ولقد سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " اثنا عشر كعدة نقباء بني إسرائيل ") .

فمن ينقض هذا الميثاق ﴿مِنكُمْ﴾ بعدما تبيّن ﴿فَقَدْ﴾ حينذاك يكون قد ﴿ضَلَّ﴾ ومعنى ﴿ضَلَّ﴾ أنه علم الحق ثم ﴿ضَلَّ﴾ عن ﴿سَوَاءَ﴾ استقامة ﴿السَّبِيلِ﴾ إليه ، وكما أن الوفاء بالميثاق يؤدي بكم إلى الثواب،

وإلى مغفرة الذنوب، فالنقض به يؤدي بكم إلى خسران الثواب، وإلى حلول العقاب بما أذنبتم، فتكونوا قد ضللتم من ﴿سَوَاء السَّبِيلِ﴾ إلى ملتوياته.

﴿١٣﴾

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

إن شرط ﴿لَئِنْ﴾لم يتحقق، وهذا يُرتب عليهم ﴿فَبِ﴾عدم تحقق ﴿لَئِنْ﴾ الشرطية ﴿مَا﴾﴿نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ جرّاء ذلك ﴿لَعنَّاهُمْ﴾أبعدناهم عن رحمتنا﴿وَجَعَلْنَا﴾نتيجة بعدهم عن رحمتنا﴿قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾فلين القلب يكون على مقدار القرب من رحمة الله، وقسوته تكون على مقدار البعد عن رحمة الله، فالذي يملك قلباً قاسياً تصدر منه أفعال قاسية، ذلك أن رحمة الله بعيدة عنه، هذه الرحمة التي تلين بها القلوب، فهم والحال هذه يتمادون، و: ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يغيّرون﴿الْكَلِمَ﴾الذي أنزله الله﴿عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ كي يؤوّلوه على غير تأويله، ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ حروف كلمات ﴿الْكَلِمَ﴾من كلام الله لتصبح الكلمة بحروف محرّفة عن مواضعهاحتى تتغير المعاني التي وضعها الله في هذا﴿الْكَلِمَ﴾الإلهي فيُمسي كلاماً محرّفا في سياقه العام، حيث يتم اجتزاء الكلمة من كَلِم الله وتحريف حروفها، ثم وضعها في غير موضعها فيتغير بذلك السياق العام للمعنى الإلهي فيها، ويحل معنى الكلمة المنحرفة بحروفها، ولا ريب أن السفينة المنحرفة عن مسارها الصحيح، ينحرف معها ركّابها أيضاً عن المسار، فالذين يتبعون ﴿الْكَلِمَ﴾ المحرّف، يكونون أيضاً في مسار منحرف عن الاستقامة ولايقدم على ذلك إلاّ مَن قست قلوبهم ﴿وَنَسُوا﴾تركوا وحرموا أنفسهم﴿حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ فالذي يمضي في سفينة منحرفة يكون قد حرم نفسه الوصول إلى برّ الأمان. وهذا أمر لم يقتصر على الزمن الذي تم فيه التحريف، بل هو ممتدّ بالنسبة للذين يتبعون هذا التحريف، وهنا جاء الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَزَالُ ﴾يا محمد﴿تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾وهذا يعيدنا إلى الغدر الذي أرادوه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه عندما كانوا عندهم بموجب عهد الأمان وعدم القتال، فخانوا العهد عندما: ﴿هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾فما تزال الخيانة بادرة ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾باستثناء القليل الذي علِم هذا التحريف ولم يتبعه، وبالتالي خرج من السفينة التي تمضي في مسار منحرف، وفي ذلك دعوة لعدم القطيعة العامة اللا استثنائية، أي تقاطع قوماً بأكمله، حتى الذين يرفضون ﴿خَآئِنَةٍ﴾ قومهم ولا يوالوهم في انحرافهم عن الحق، ذلك أن الإسلام هو دعوة لصلاح العقيدة، وليس دعوة لانسلاخ الناس عن قومياتهم، أو مللهم، وعلى هذا المبدأ تتحقق فيه معالم العالمية، فيكون آخر الأنبياء والرسل ليس رحمة لقوم دون غيره ، بل أرسله الله رحمة لسائر أبناء العالم، وبذلك فإن الله يوجه خطابه لشخصه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾الأنبياء١٠٧﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ

﴿إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾سبأ٢٨ وهذا الخطاب يعمل على أساسه المسلمون من بعده وهم يقومون باستئناف نشر الرسالة في كل أرجاء العالم للناس كافة، وألاّ يأخذوا الناس بأخطاء غيرهم، أو أخطاء سابقة بدرت منهم، وقد ندموا عليها، أو يأخذوا منهم المواقف لمجرّد انتماءاتهم العرقية، أو القومية، أو الجغرافية، فكان أمر الله جلياً لشخص رسوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾عن المستثنى بـ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾فهؤلاء رغم أنهم أخطأوا بحق المسلمين، إلاّ أنهم تابوا، فأصبحوا بتوبتهم مستثنين من الاستمرار في الخيانة، ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتل بني قينقاع، وبني النضير رغم أنهم نقضوا عهدهم، وقد عفا أيضاً عن بني قريظة الذين خانوه وألّبوا عليه الأحزاب، وقد رضوا أن يُنزلهم إلى حكم سعد بن معاذ، وفي هذا توجّه إلهي للعفو عمّن يتراجع عن العداوة بشكل عام، ومواقف العفو كثيرة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء مع أهل الكتاب، أو مع غيرهم، ولذلك عندما قيل له: (أخ كريم وابن أخ كريم) قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" فلم يأمر الله بالعفو فقط، بل أضاف: ﴿وَاصْفَحْ﴾ فليس كل مّن يعفو، يصفح، فولعل المرء يعفو عن ﴿خَآئِنَةٍ﴾ ارتكبت بحقه من قِبل شخص، وذلك بأن يتنازل عن حقه تجاهه كي لاينال العقوبة ، بيد أنه لايصفح عنه، أي يبقى يشعر بأن هذا عدوه، ولنعد إلى التوجّه ﴿وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾فهؤلاء القليل خرج عن ﴿وَلاَ تَزَالُ﴾ أي كان سابقاً، وندم الآن عمّا بدر منه من ﴿خَآئِنَةٍ﴾ سواء أكانت قدر بدرت منه شخصياً، أو بدرت من قومه وهو كان موافقهم عليها، إلاّ أن الأمر اختلف الآن بعد أن هداه الله إلى الحق سواء إن دخل الإسلام، أو هو حالياً في موقف مؤازرة للإسلام، ويدين ما يبدر من قومه تجاههم، وهذه المرحلة قد تؤدّي به إلى دخول الإسلام كما حصل للكثيرين، فإذن دعوا هؤلاء يؤازرونكم سواء أأشهروا إسلامهم، أم ما زالوا قيد ذلك، وموقفكم السلمي هذا تجاههم يشجعهم أكثر ليُصبحوا موالين لكم، ومُدينين لتصرّفات قومهم السلبية تجاهكم، فهم رجالكم ونساءكم فيهم، فهؤلاء لاتصبحوا على قطيعة معهم نتيجة ما بدر منهم سابقاً، فالذي يُجدي ماهم عليه اليوم، وهذا أيضاً يمكن أن يكون معاكساً، فيمكن لمسلم أن يرتدّ عن دينه، ويُصبح عدواً للمسلمين، فهل تتعامل معه على أنه كان، أم على ما هو عليه الآن؟ ثم تأتي خاتمة الآية لتبيّن بأن العفو المقترن بالصفح، هو أعلى مراتب قبول الآخر الذي بدرت منه ﴿خَآئِنَةٍ﴾ وهي مرتبة الإحسان ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فبالعفو المقترن بالصفح تبلغ مرتبة الإحسان، وبذلك تبلغ مرتبة أن يحبك الله، والكلام موجه للرسول صلى الله عليه وسلم، ومن خلاله إلى عامة المسلمين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾الأحزاب٢١

.

الباب السادس

مِـتـان

﴿١٤﴾

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

علينا الانتباه إلى الكلمة الأولى من الآية ﴿وَمِنَ﴾ أي ﴿وَ﴾ - ليس الكل - ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ فلم يقل الله من النصارى، بل أتى إلى قولهم ﴿إِنَّا نَصَارَى﴾فهم يقولون﴿إِنَّا نَصَارَى﴾بمعنى نناصر الله، ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾قبل الله هذا الميثاق منهم، كما قبل من قبلهم الميثاق من اليهود، ومن بعدهم الميثاق من المسلمين، وقبل ذلك كله من عموم أبناء آدم الذين آمنوا، ﴿فَ﴾هؤلاء الـ - ﴿مِنَ﴾ - ﴿نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ لم يُصبحوا على حظ العمل بالميثاق، كونهم لم يؤمنوا بوحدانية الله، وبمحمّد صلى الله عليه وسلم خاتماً لأنبياء الله ورسله، وما نجم عن ذلك من سلوكيات ناقضة لهذا الميثاق، فلبث ميثاقهم قولاً دون أن يرتقي بهم إلى الظفر بحظ الفعل. ويُستنتج هنا من النسيان، التناسي نظراً لورود الكلمة المعاكسة لها وهي ﴿ذُكِّرُوا﴾ فتعمّدوا نسيان، وتناسوا ما ﴿ذُكِّرُوا بِهِ﴾ فالذكر هنا متلازم مع التناسي ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وإلاّ فإن النسيان الخارج عن الإرادة لا يؤاخذ به المُصاب بهذا الداء، مثل الزهايمر وما شابه حيث ينسى الإنسان، بسبب ما أصاب ذاكرته من عطب، ولعل ذلك يُحدث إشكالاً لدى المسلمين،

فكيف جعل الله ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ بين النصارى، وهناك بوادر منهم لا تشير إلى ذلك، ثم كيف يجيز الله لك أن تتزوّج بامرأة نصرانية تأصلت فيها ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ ، ثم كيف تجعل لأبنائك أخوالاً، وخالات، وأجداداً، وجدّات كتب الله فيهم أن يكونوا على ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ثم كيف تدعو أناساً كهؤلاء إلى الولائم في بيتك، أو تقبل دعوتهم إلى هذه الولائم ما دام أمر الإصلاح مفروغ منه، فقد أغرى الله ﴿بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وبذلك فإن باب الإصلاح قد أُغلق أمامك، وما عليك سوى أن تدعهم في هذه ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾.

لكننا إن أمعنّا النظر في مدخل الآية، سنجد أن العبارة الأولى ﴿مِنَ﴾ تفرّق بين النصارى، والنصارى، ﴿فَ﴾-﴿مِنَ﴾- هم مَن﴿نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وبقي ﴿مِنَ﴾هم مَن لم يـ ﴿نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا

﴿بِهِ﴾، وعلى هذا نجد أن ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ ليست للنصارى جملة واحدة، أي لعموم ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾بل هي لخصوص الـ﴿مِنَ﴾جملة﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾رغم أنها قد تعني الأكثرية التي نقضت الميثاق، ولكن الباب يبقى مفتوحاً للإصلاح، وعندذاك، أي وعند زوال سبب ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ فإنهما سترفعان. ذلك أن الله تعالى يقبل توبة المشرك إن تاب، والشرك من أكبر الكبائر، وبذلك فلا شيء على الإطلاق يمكن له أن يقف عائقاً بين توبة العبد وربه إن أراد التوبة. فما ذنب النصراني الحفيد اليوم، أو غداً إن كانت قد كُتبت عليه ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لنقض ميثاق بدر من أجداده، وهو الآن يُدين ذاك النقض، بل يعقد ميثاقاً جديداً مع الله، وكل شخص عندما يرشد يحق له أن يعقد ميثاق الإيمان مع الله مهما كان انتماء هذا الشخص، فإذن تبقى ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ ما داموا مستمرّين على النقض بالميثاق ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وتظهر الآية من الجانب الموازي بأن هؤلاء ادّعوا بأنهم﴿نَصَارَى﴾وهذا الادعاء جعلهم ينفصلون عن الروح النصرانية التي تناصر الله، فهم ﴿قَالُوا﴾بأفواههم﴿ إِنَّا نَصَارَى﴾وما رسوا بأفعالهم ما لايمت إلى الـ ﴿نَصَارَى﴾

﴿فَ﴾جزاء لذلك﴿أَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ جعلناهم يغترّون بـ ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ فيمابين بعضهم البعض، ويتبعون أهواءهم في ذلك، أي يجعل الله عزّ شأنه مغريات الدنيا مستفحلة فيهم بما يجعل حالة ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ قائمة ﴿بَيْنَهُمُ﴾ ما بقيت الدنيا، فهي حالة ملتصقة بهم وكلمة الإغراء تعني اللصق، وهي من الغراء الذي يُلصق شيئاً بشيء مثل الصمغ وما شابهه من المواد اللاصقة، بحيث لاينفك ذلك عنهم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾. ولعل ذلك يؤدّي بهم إلى العزلة، وإلى القطيعة الاجتماعية، فيمكن أن ترى بناءً تقطنه عشر عوائل منذ خمسين سنة، ولا أحد يعرف أحداً فيه، بل أن الجار لايلقي السلام على جاره، إن لقيه في مكان لأنه لا يعرفه، ثم أن حميمية علاقة الجيرة والتواصل الاجتماعي مفقودة في بنية هذا المجتمع، في حالة من استفحال روح الأنانية، ولذلك ترتفع في هذه المجتمعات شعارات المحبة، وهذه علامة كبرى من علامات فقدان المحبة بتفاعلاتها الحقيقية، كما الأمر بالنسبة للإنسان المسلم الذي يتمتع بقوة علاقات الصداقة الحقيقية، وكذلك علاقات الحب العفيفة، والإخلاص، والتضحية، والكرم، والشجاعة، والبطولة، والعفو، أي أنه يستمتع بمزايا إنسانيته أكثر مما يكون لغيره، وهو كائن ينتمي إلى روح المجتمع، وروح العلاقات الإنسانية أكثر من غيره.

ولعلنا نقف أمام تاريخ من ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ بالنسبة لهؤلاء الذين ينتمون إلى الـ ﴿مِنَ﴾ السلبي لعموم النصارى ، فقد أقاموا كبرى الحروب العالمية على الناس البسطاء، وتسببوا في إحداث كوارث بشرية مروعة في العالم، وحتى بعض ما قدّمه أهل النبوغ والاختراع من أجل رفاهية الإنسان، ففي كثير من الأحيان يُستخدم لأغراض غير إنسانية مثل الديناميت الذي صُنع لغرض استخراج الحجارة من الجبال من خلال تفتيتها، أو فتح الطرقات، كذلك بعض الأدوية والعلاجات الكيماوية، للتخفيف من آلام الإنسان ، فيتم استخدامها لإلحاق الويل بالإنسان. بل أن أياديهم امتدّت إلى ديار المسلمين أيضاً، فصنعوا تنظيمات

متطرّفة، ومدّوها بالعتاد، والسلاح، وكل ما يمكنه أن ينقل ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ إلى المسلمين، وحتى ما يحدث في ديار المسلمين فإنهم ليسوا أبرياء من تأجيج وقوع هذه الكوارث، ونحن الآن في السنة الخامسة ممّا يحدث في ديار الشام، ومن المحقق أنهم يتسببون في إطالة أمد الحرب الأهلية الطاحنة التي أدّت إلى تشريد ملايين الناس من ديارهم، وقتل وإصابة نحو مليون شخص، وهدم بنية البلاد الفوقية، والجانبية، التحتية معاً، ولا شك أن أسلحتهم تتلاحق في الإمداد، فمنهم مَن يقف مع هؤلاء، ويمدّه بكل وسائل الدعم، ومنهم من يقف مع أولئك، ويمدّه بكل وسائل الدعم، أي أنهم بمثابة الوقود التي تلهب الحريق بين الأطراف المتقاتلة فيما بينها في البلاد التي تحوّلت إلى ساحات للقتال، فدخولهم إلى أي بقعة من شأنه أن يُدخل معهم ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ إلى تلك البقعة، كما حصل في الشيشان، وأفغانستان، والعراق، وليبيا، والسودان، واليمن، ومصر، وسورية، وغيرها من ديار المسلمين. وقد حصل ذلك عندما استعان بعض المسلمين بهذا الـ ﴿مِنَ﴾ السلبي منهم، واستجلبوهم إلى ديار المسلمين، وقد رأينا أن الـ ﴿مِنَ﴾ الإيجابي للنصارى هو معارض لهذه الانتهاكات، وهذه التدخلات، فهو يدين، ويتظاهر، ويندد بشتى الوسائل بأن يكف هذا الـ ﴿مِنَ﴾ السلبي أياديه الآثمة من ديار المسلمين، لأن ذلك عمل غير أخلاقي، وغير إنساني، من جهة، ومن جهة أخرى من شأنه أن يولّد ردّات فعل من قبل بعض أهل الغلو والتطرف من المسلمين للانتقام من المتّين معاً للنصارى سواء أذهبوا لذلك إلى ديارهم، أو وهم في ديار المسلمين للعمل، أو السياحة، أو أصلاء في السكن في ديار المسلمين، فردّ الفعل يكون للكنيسة، والمسيحية عموماً دون تمييز، وهذا ما تفرزه أوبئة هذا الـ ﴿مِنَ﴾ السلبي، وتعدي كل مَن يدنو إليه، لأن لاخير فيهم، لا لأنفسهم، ولا لقومهم، ولا لعموم الناس، ولذلك فإن المسلم هو الذي يؤازر المسلم، ومن الخير أن يرجع المسلم للمسلم عند نشوب الخلافات، لأن المسلم، إن لم يستطع فك الخلاف، فإنه لايؤججه على أقل تقدير، ولايسهم في تصعيده، من هنا أصبحت حاجة المسلمين ماسة إلى قوة إسلامية رسمية تشارك في تشكيلها كل ديار المسلمين، من أجل منع الاستعانة بالخارج الإسلامي عند نشوب الأزمات، وتكون هذه القوة كفيلة بالتدخل السريع، ومعالجة الخلاف وفق ما ينص كتاب الله عز وجل. ذلك أن المسلم يجنح إلى السلم أكثر من غيره، ويمكن له أن يحقق السلم أكثر من غيره، ومعلوم أن غاية هذه التدخلات الأجنبية في ديار المسلمين لاتكون محبة لهم، أو تحقيقاً للأمن فيهم، بل هي مصالح متقلّبة، وسياسات آنية ، في حين أن هدف الجيش الإسلامي يكون الإسلام فحسب، وتكون نصرة المسلمين غايته المنشودة الثابتة التي لاتتغير، ولاتتبدّل.

﴿وَ﴾عندذاك ﴿سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وعيد لهم بأن ذلك لايقتصر على الدنيا فحسب، ففي الآخرة أيضاً ﴿سَوْفَ﴾ وكما الأمر في الدنيا ﴿أَغْرَيْنَا﴾أي جعلنا الأمر نافذاً في الحال ما بقيت الدنيا، كذلك في الآخرة ﴿سَوْفَ﴾ يخبرهم بأفعالهم، ويجازيهم، ويتبيّن هنا بأنهم لا يُظهرون ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ بل أنهم يخفونهما عن بعضهم البعض، ويعيشون بذلك حالة من الازدواجية، فالحزب يُظهر محبته للحزب الآخر، ويتشاركان في إدارة البلاد، ولكن متى ما تمكّن أحدهما من الآخر، فتك به، وهكذا

الأمر بالنسبة لسائر العلاقات التي تنبني على هذه الازدواجية، وبذلك فإن الحقيقة تبقى باطنة، وما يظهر هو الحركات الخارجية، والألفاظ الغير مسؤولة. قال ﴿**يُنَبِّئُهُمُ**﴾ أي يُطلعهم على حقائق ما كانوا يخفون عن بعضهم البعض، وهنا يجب التمييز بين مرادفات الكلمات العربية، فالترادف لايعني التطابق جملة وتفصيلاً، بل يأخذ المعنى، لكن بصيغة مختلفة بحيث أن الكلمة المرادفة لايجوز تكرارها في جملتين مختلفتين، بل يجب استخدام الترادف عند اختلاف الجمل، ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**﴾ آل عمران ١٧٩ ﴿**كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً**﴾الكهف٩١ ﴿**وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾الحجر٣

فهنا، لم يقل: يخبرهم، أو يطلعهم، أو يُعلمهم، بل ﴿**يُنَبِّئُهُمُ**﴾ رغم أن هذه الكلمات تترادف مع بعضها في المعنى، لكن الخطاب القرآني يبيّن بأن ذلك يكون عند الحساب ﴿**ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾الأنعام١٠٨ ﴿**وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا**﴾النور٦٤﴿**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ**﴾المجادلة٦

والله يُطلع الإنسان على ما كان يصنع، سواء عند الثواب، أو عند العقاب، فهنا ﴿ **يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ جراء نقض ميثاقهم مع الله، وعلينا أن ندرك مستفتح الآية بأنه يُستثنى منهم الذي لايدخل ضمن الـ ﴿**وَمِنْ**﴾وهذا الاستثناء يبقى سارياً وفعّالاً كذلك﴿**إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾.

﴿١٥﴾

﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾

الآية السابقة اقتصرت على النصارى، والآن يخص الله تعالى نداءه إلى عموم ﴿**أَهْلَ الْكِتَابِ**﴾ من يهود ونصارى، يبيّن لهم ما جاء به خاتم أنبياء الله ورسله محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله من الحق، هذا الحق الذي ﴿**يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ**﴾ومن هذا الكثير الذي يخفوه، بشارة عيسى برسول يأتي من بعده ﴿**اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ الصف ٦، ورجم المحصنين من الزناة، وما وقع لأصحاب السبت الذين مُسخوا إلى قردة. إلى جانب أنه ﴿**يَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾فلايذكره، لأن الغاية ليست تعدّد كل ما تخفوه مفصلاً، بل الغاية لتعلموا بأنه رسول من عند الله وتؤمنوا به، فنحن أمام كثيرَين، كثيرٌ مذكور لغاية الإيمان والإصلاح، وكثيرٌ معفي عن ذكره، وقد جاءت كلمة العفو لأن ذاك الكثير الثاني يسبب الحرج لهم، ولذلك فقد عفاهم الله من ذاك الحرج وسترهم، فإن صلحوا في ذكر الكثير الأول، ما كان لهم حاجة إلى الحرج، وإن لم يصلحوا، فلا ينفعهم الحرج الكامن في الكثير الثاني.

﴿**قَدْ جَاءَكُم**﴾يا معشر اليهود والنصارى ﴿**مِّنَ اللَّهِ نُورٌ**﴾محمّد﴿**وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾ فيه البيّنات، فنحن هنا أمام النور الذي يتجلّى في محمّد صلى الله عليه وسلم، وأمام بيّنات كامنة في القرآن، ومحمّد صلى الله عليه

وسلم هو نورهم لرؤية هذه البيّنات، كونهم في ظلمة اللا بيّنات من كتابهم الذي تمّ تحريفه، وإخفاء ما تم إخفاؤه فالآن ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ ثم استهلّت الآية بـ﴿**قَدْ**﴾ثانية﴿**جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾ وهذا الرسول هو نور الله إليكم كي تخرجوا من ظلمتكم، وتروا من خلال هذا النور بيّنات القرآن.

﴿١٦﴾

﴿**يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾

فهذا القرآن ﴿**يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ**﴾الذي﴿**اتَّبَعَ**﴾سلك﴿**رِضْوَانَهُ**﴾ما يرضي الله﴿**سُبُلَ**﴾مداخل﴿**السَّلاَمِ**﴾ النجاة ﴿**وَيُخْرِجُهُم**﴾ ينقذهم ﴿**مِّنِ الظُّلُمَاتِ**﴾ العمي عن الحق ﴿**إِلَى النُّورِ**﴾ الاستنارة بنور الحق بإذن الله، ﴿**وَيَهْدِيهِمْ** ﴾هذا القرآن﴿**إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ لا انحراف فيه عن استقامة الصراط.

﴿١٧﴾

﴿**لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾

يبيّن الله بأنه خالق المخلوقات جميعاً، وهو الذي خلق﴿**الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ ، والخالق لايصيبه أذى يصيب أي مخلوق خلقه، لذلك يبيّن الله بكونه الخالق الواحد الذي لاشريك له قادر﴿**أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾، وهذا ما لايكون لمخلوق قط، ولا يوجد مخلوق قط لا يخضع لمشيئة الخالق الذي يتفرّد بأن له﴿**مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**﴾وكل مخلوق لايملك إلاّ أن يخضع لمشيئته﴿**وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ والمخلوق كائناً مَن كان لا يملك أن يكون قديراً ﴿**عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**﴾.

﴿١٨﴾

﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾

يبيّن الله بأن اليهود والنصارى ﴿بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ وأمّا الادعاء بأنهم﴿أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فهو باطل، وما يسري عليهم يسري على الناس كافة، فمحبة الله تتحقق بإذنه من خلال التقوى. يوجه الله خطابه لعامة الناس بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ﴾الحجرات١٣ وردّاً على ادّعائهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾إذا كان ادعاءكم صحيحاً﴿بَلْ﴾الصحيح﴿ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ والله ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾من خلقه الذين أنتم منهم ﴿وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ يعود الْمَصِيرُ﴾ للناس جميعاً.

﴿١٩﴾

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

جاءت كلمة فترة غنية في دلالتها، فهي تعني الزمن، كما أنها تعني الفتور الذي يحدث في هذا الزمن، فالـ﴿فَتْرَةٍ﴾هي المدّة والـ ﴿فَتْرَةٍ﴾ من الفتور أي فتر الناس عن دينهم خلال هذه الفترة التي كانت نحو ستمائة سنة بين الإنجيل، والقرآن بما هو الزمن المتقارب بين التاريخين الميلادي والهجري.

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ومعنى هذا أنهم باتوا بحاجة إلى بيان ما هو غير مَبيَّن﴿عَلَى فَتْرَةٍ﴾نتيجة الفترة المنقطعة التي اصابتهم بفتور في دينهم ﴿مِّنَ الرُّسُلِ﴾ وهي كذلك الفترة التي وقع فيها التحريف، وبذلك فإن القرآن هو تصحيح لمسار الإسلام الصحيح من جهة، وإكمال له من جهة أخرى، لذا بيّنت هذه السورة بأن لارسول ولا نبي بعد ذلك فقد أكمل الله تعالى للناس دينهم، وأتم عليهم نعمته، ورضي لهم الاسلام دينا.

أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال:(دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود إلى الإسلام، فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة، وعقبة بن وهب: يا معشر يهود اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حرملة ووهب بن يهوذا: ما قلنا لكم هذا وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده، فأنزل الله:﴿ يَاأَهْلَ الكتاب قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل﴾ الآية).

الباب السابـع

بنـــو إســـرائيل

﴿٢٠﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ﴾

ذِكرُ النعمة، هو شكرٌ لفضل واهبها، فعندما تذكر النعمة، أي تدرك قيمتها، وأنك ترفل فيها، ولم تأتك هذه النعمة من تلقاء نفسها، بل وهبها الله لك، وكما أنه وهبها لك، فيملك أن يأخذها منك﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ**﴾ أي اشكروا الله على ما أنعم به عليكم﴿**إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء**﴾ بمعنى جعل أكثرية الأنبياء من بني إسرائيل، وجاءت صيغة الجمع في ﴿**أَنبِيَاء**﴾ لدلالة تتابع وتعاقب الأنبياء منهم، ﴿**وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً**﴾وكان مِن الأنبياء مَن يكون نبياً وملكاً في وقت واحد، كما الأمر بالنسبة لداوود، وابنه سليمان، عليهما السلام، إضافة إلى ملوك من بني إسرائيل دون الأنبياء، فقد كثر فيهم الملوك إلى جانب تكاثر الأنبياء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى قال ﴿**جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً**﴾ في الأنبياء قال ﴿**فِيكُمْ**﴾ أي بعضكم، وفي الملوك قال ﴿**جَعَلَكُم**﴾ أي جميعاً، وهذا يُضاف إلى أنهم جميعاً أصبحوا ملوكاً بمعنى الحرية بعد العبودية، والرق، وقد حرّرهم الله فأصبحوا أحراراً يملكون أمرهم، بعد أن كانوا يُستعبدون من القبط.

يقول الضحاك: (كانت منازلهم واسعة وفيها مياه جارية، وكانت لهم أموال كثيرة وخدم يقومون بأمرهم، ومن كان كذلك كان ملكا).أخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سأله رجل: (ألسنا من فقراء المهاجرين. قال: ألك امرأة تأوي إليها، قال نعم، قال: ألك مسكن تسكنه،قال نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: إن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك).

﴿**وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ**﴾ فقد أظلل فوقهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفلق لهم البحر، ونجاهم من فرعون، وجعل فيهم الحكماء، والعلماء، ففي ذاك الوقت آتاهم الله ﴿**مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ**﴾، وهذه الآية مستأنفة للآية ١٢﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ لكن الذي حصل أنهم

نقضوا ميثاقهم مع الله، فبدأ العدّ التنازلي بالنسبة إليهم، في نقض الميثاق رغم استمرار التكريم الإلهي لهم سواء في النبوة، أو المُلك، أو العِلم ، حتى بعث الله منهم عيسى عليه السلام حاملاً الإنجيل بعد كل تلك القرون. أخرج ابن سعد في كتاب الطبقات، عن ابن عباس قال: (كان بين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة، و أرسل بينهما ألف نبيّ من بني إسرائيل) لكنهم لبثوا على نقض الميثاق حتى ما آلوا إليه. وهذا درس يمكننا استنتاج العبرة منه، فمهما ملك المرء من نعمة ، ونفوذ، وملك، وقوة، فإن ذلك يتعرض للزوال دون شكر الله، فبعد كل ما كانوا يملكون من الأرض، اقتصر ذلك على ما هو أصغر من مدينة، بل من ضاحية من مدن، أو ضواحي بعض الدول، وكذلك لايجدون الاستقرار حتى في هذه البقعة الصغيرة من الأرض، إلى جانب ذلك فقد شمل العدّ التنازلي، الملوك، والأموال، والعِلم، والأمان وقول النبي موسى عليه السلام ﴿**مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ ترك احتمال أنه إن شاء سيؤتي ما هو أكثر من ذلك لقوم آخرين فانسحب بذلك من تحتهم بساط النعمة ليُصبح للمسلمين الذين سيقول لهم الله فيما بعد في القرآن: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾آل عمران١١٠ وقد شرحنا ذلك في تحليل سورة آل عمران.

لقد أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وجعله خاتماً لجميع أنبيائه ورسله، وبذلك فقد حل الازدهار على عموم المسلمين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وأصبحوا يملكون أجزاء كثيرة من الأرض، إلى جانب الثروات، والعِلم، والنفوذ، والحضور، وقد تحقق لهم ذلك عندما أنعم الله عليهم، وأنزل القرآن ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾الشعراء١٩٥ و﴿**هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**﴾ فصلت ٤٤ وفي ذلك عبرة للناس جميعاً ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾الزخرف٣ وإن كان سياق ذلك عاماً بالنسبة للأقوام والملل، فهو يشمل كذلك الحالات الفردية، فنرى كثيراً من أهل المُلك والنفوذ والجاه ينتهون نهايات مخزية، بعد أن أعزّهم الله، بيد أنهم استكبروا، وطغوا، وتمادوا، كذلك الأمر بالنسبة لأصحاب النفوذ، والجاه، والمال في عامة الناس، الذين تنقلب بهم الأحوال نتيجة ما يُصبحون عليه من التعالي، والاستغلال، فيتحوّل العز إلى ذل بالنسبة إليهم بين ليلة وضحاها.

﴿٢١﴾

﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾

استئناف نداء موسى عليه السلام لقومه أن ﴿**ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ ولعلّها بلاد الشام، أي ما يُعرف الآن بـ سورية، والأردن، وفلسطين. ﴿**الْمُقَدَّسَةَ**﴾ بمعنى مباركة، وطاهرة، ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي**

أسرَى بعَبدِهِ لَيلاً مِنَ المَسجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسجِدِ الأَقصَى الَّذِي بَارَكنَا حَولَهُ﴾ الإسراء١، وهذه ﴿الأَرضَ المُقَدَّسَةَ﴾ شهدت كثيراً من الأنبياء في مراحل مختلفة من الزمن.

قال :﴿ادخُلُوا﴾ ومعنى هذا أنهم أصبحوا في المدخل، وشارفوا على الدخول، وهناك توقفوا، ولو استأنفوا، لما قال لهم ﴿ادخُلُوا﴾، فإذن هؤلاء جاؤوا من مصر بعد أن نصرهم الله على فرعون بالغرق ، وحررهم من استعباد القبط، والآن اتجهوا إلى ﴿الأَرضَ المُقَدَّسَةَ﴾، وقد شارفوا على دخولها، أي باتوا على حدودها، وهم لن يقدموا للزيارة، أو للترفيه، أو للنزهة، بل قدموا للمكوث فيها، ولذلك كان عليهم قتال الجبارين، وهم من بقايا قوم عاد، وأن الله هو الذي ﴿كَتَبَ﴾ لهم، أي أمرهم بدخولها، ثم حذّرهم في حال عدم الاستجابة لأمر الله أنهم سينقلبون﴿خَاسِرِينَ﴾. فبعد أن تقدّمتم، وبلغتم المدخل، اكملوا، و﴿ادخُلُوا﴾ الباب ولا تتراجعوا لأن الرجوع يعني الانقلاب إلى الخسارة.

﴿٢٢﴾

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾

إشارة إلى عدم استجابة قومه له كون ﴿فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾ أي أقوياء لامقدرة لنا عليهم، ولكن كيف علموا أن ﴿فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾ ؟ وذلك عندما خرج النقباء كما مضى يستطلعون الأمر، وعادوا إلى موسى بالأخبار، فطلب منهم أن يكتموا الأمر، لكن عشرة منهم لم يلتزموا بذلك، وبدأ كل واحد منهم يُخبر قريبه حتى انتشر الأمر بين الناس، فبذلك علم هؤلاء العسكر، وبناء على ما سمعوا، فقد تسرّب إليهم الخوف. ثم اشترطوا لدخولهم أن تخلو هذه الأرض من أولئك الجبابرة ، فلن نستجيب لك ﴿حَتَّىَ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾وتصبح آمنة، ولايعترضنا أحد في دخولنا إليها ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ وفي هذا بيان بأنهم لم يكونوا مطيعين لنبيهم، ثم أنهم أظهروا ما هم عليه من خوف.

﴿٢٣﴾

﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

لكن تميّز عنهم ﴿رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا﴾ فضمّا صوتيهما إلى صوت النبي ووجها إليهم ذات الكلمة: ﴿ادخُلُوا﴾ ثم قالا هنا:﴿عَلَيْهِمُ البَابَ﴾بمعنى حدود ﴿الأَرضَ المُقَدَّسَةَ﴾، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾اجتزتم الحدود﴿فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾وشرحا لهم بأنهما رأيا الجبارين الذين يتمتعون بضخامة

أجسامهم عندما ذهبا ضمن وفد الـ ﴿اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾، وأخبروهم بأن هؤلاء رغم ضخامة أجسادهم وطولها، إلاّ أن قلوبهم ضعيفة، وهذه أول مرة يتحدّثان فيها بما رأيا عندما تحدّث النقباء العشرة لأقربائهم عن الجبارين، والتزما الصمت، وهما ﴿مِنَ﴾مجموع﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ﴾ولكن تحدّثا الآن بصفتهما شهدا الجبارين، وهنا جاء إفشاء السر لمعالجة ما سبق من إفشاء السر من خلال النقباء العشرة، ولعله هنا حدث بإذن من موسى، لأن إفشاء السر الأول غدا عائقاً للاستجابة بدخول﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾، وقد بث في روعهم الذعر، بيد أن وقت قول الحقيقة كاملة قد آن، وهي أن هؤلاء رغم كل ما هم عليه من جبروت ظاهري، إلاّ أنهم على وهن في القلوب، وهذا من شأنه أن يضع العسكر أمام الحقيقة كاملة، ومن شأنه أن يحضهم للتوجه إلى﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ بشجاعة وإقدام، وهنا يتبيّن لنا أن كل شيء يجب أن يُقال في وقته، وعند الحاجة إليه، فالنقباء العشرة أفشوا الأسرار التي دعاهم نبيهم بكتمانها، وكان الوقت لايستدعي ذلك مما جعل الخوف مبثوثاً في نفوس الناس دون الحاجة إلى ذلك، ولكن الآن حان وقت الحقيقة، فأخبر بها الرجلان، وهما كما مرّ معنا، كالب بن يوفنا من سبط يهوذا، ويوشع بن نون من سبط إفراثيم ابن يوسف. وإن كان ما قاله أولئك العشرة قد دعاهم إلى الخوف، فإن ما أفصح عنه النقيبان دعاهم إلى ألاّ تتردّدوا، ولاتخافوا، وتوكلوا على الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿٢٤﴾

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾

يشير ذلك بأن هؤلاء القوم الذين تمت مخاطبتهم رفضوا قول النقيبين، وهم على الأغلب من مقاتلي بني إسرائيل، إي هم الجيش والقوات المسلّحة لأن موسى خاطبهم:

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ وهذا لايعني أن الخطاب موجه للأطفال، والنساء، والشيوخ، بل هو موجه لفئة الشباب الذي يشكّلون جيشاً، وقوّة مسلّحة، وتذكر بعض المصادر أن عددهم كان نحو ستمائة ألف مقاتل. ثم قال لهم ﴿يَا قَوْمِ﴾ بمعنى دغدغ فيهم المشاعر القومية، فقد ﴿كَتَبَ﴾ها﴿اللَّهُ لَكُمْ﴾ يا قوم، وهذا إضافة إلى تذكيرهم بنعمة الله.

﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ﴾

لكن يبدو أن الجبن قد نال منهم ما نال، فأصرّوا على تردّدهم، ورفضهم، بل أرادوا رجم النقيبين بالحجارة، وقالوا لهما: (نصدّقكما وندع قول العشرة)! ثم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ وفي مزيد من التعنّت والتصعيد مع نبيّهم ﴿فَاذْهَبْ﴾بفصاحة الفاء وبشيء من التحدّي لشخصه عليه السلام﴿ فَ﴾إن صح ما تقول يا موسى﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ الجبارين﴿إِنَّا هَاهُنَا﴾على

الحـدود﴿فَاعِـدُونَ﴾ فكـان الجـواب موجهـاً إلى صـميم العقيـدة فــ ﴿أَنــتَ﴾بصـفتك رسـول﴿رَبُّــكَ﴾ ، ﴿وَرَبُّكَ﴾بكونه مرسلك﴿فَاتِلا﴾نيابة عنّا.

﴿٢٥﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

إزاء هذا الموقف الخائب الذي بدر منهم، توجه موسى عليه السلام إلى ربه و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ بمعنى أنه لايملك إلاّ أمر نفسه، وأن أخاه هارون كذلك لايملك إلاّ أمر نفسه، ولا يملكان السلطة على الذين فسقوا من القوم، ونسألك اللهم أن ﴿تفرّق بَيْنَنَا وَبَيْنَ﴾ هم، ولعل ذلك لايعني أن ينعزلا عن قومهما، لأن في القوم مَن هو صالح غيرهما أيضاً مثل النقيبين وغيرهما، فالتفرقة بين الطاعة التي هي لهما، وبين المعصية التي هي لهم، فإن عصوك يارب، فنحن نطيعك.

﴿٢٦﴾

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

وهذا هو عقاب الله لهم نتيجة معصيتهم، وتحديد المدّة يعني أن التحريم ينتهي بعدها، وبذلك لايكون التعارض بين ﴿الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ فالعصيان أدّى إلى تيه ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ كعقوبة لهم من الله.وكلمة ﴿عَلَيْهِمْ﴾إشارة إلى الرافضين للأمر، وهنا تخصيص للتحريم واقتصار على فئة دون أخرى، وإلاّ لقال: عليكم، بصفة الجمع، والاقتصار كذلك يحدّد الأشخاص بعينهم دون أن يشمل ذلك ذرياتهم، فقولهم ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ يعني سندخلها إن خرج منها الجبابرة، ولكن كردّ لهذا الشرط الذي اشترطوه، جاء عقاب الله تعالى لهم ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾من التيه وتحمّل ما نجم عن ذلك من مشاق في مساحة الأرض الشاسعة ما بين الشام ومصر، وقد عاينتُ جانباً من تلك المساحات الشاسعة حيث مضيتُ براً من دمشق إلى مصر ذهاباً، وإياباً بوسائط نقل عامة. و﴿فَلاَ تَأْسَ يا موسى عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ الذين فسقوا من قومك، يشير ذلك إلى استجابة الله له بأن فرّق بينه ومَن معه من الصالحين والمطيعين، وبين الذين فسقوا، فعندما دخل موسى عليه السلام ومن معه ﴿الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ لبث أولئك دونها وفي تيه ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فقد ضلوا طريق العودة إلى مصر، كما أنهم ضلوا طريق الالتحاق بموسى، وهذا هو التيه ، وهذا هو معنى قوله لهم ﴿وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ فإنكم لاتستطيعون العودة إلى

مصر باليسر الذي أتيتم به، وكان ذلك عندما قال بعضهم لبعض:(تعالَوْا نجعلْ لنا رأساً ينصرِفْ بنا إلى مصر). فإن فسق بعض القوم، فإنهم يلقون جزاء فسقهم.

الباب الثامـن

التقوى والطغيان

﴿٢٧﴾

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

هذه هي لغة الأحداث والوقائع، وهي دليل البراهين، فكل ذاك السرد التاريخي هو للناس فيما بعد، ولهم فيه العبر، والنبي صلى الله عليه وسلم يتلقى كل هذه الأحداث التي وقعت قبله، وتبلغه العِبر منها، ثم أنه يقدّمها لعموم الناس، فنحن الآن أمام ما أنعم به الله تعالى على محمّد صلى الله عليه وسلم بنعمة ختم النبوة، وهذا يعني بأننا أمام المسلمين الذين أصبحوا خلاصة البشر في الإصلاح الإنساني، وأن الله أكمل الدين، وأتم النعمة، ورضي بالإسلام ديناً على أياديهم، فهم يمثلون هذه الخلاصة، وبالتالي تقع على عاتقهم مهمة نشر الصلاح، ولاريب أن ذلك لن يمرّ بيسر، ولن يكون السبيل مفروشاً بالياسمين، فهناك مَن سيضع كثيراً ليس من الأشواك فقط، بل من الألغام أيضاً لتصبح الأرض الطيبة محفوفة بالألغام، ولا يجعل ذلك أهل الصلاح في يأس من أمرهم، بل يتحمّلون المشقة، ويمضون في استئناف مسيرة الصلاح رغم أنف أهل الشر والطغيان. إذن الخطاب هنا موجه إلى شخص خاتم الأنبياء صاحب النعمة الكبرى في ختم النبوة، فيا محمّد ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ لاعليك ذلك، وهذا ليس بالأمر الجديد، ولا الطارئ، وقد ذكر الله كل تلك الوقائع التي قام بها أهل الفساد تجاه الأنبياء والرسل، والآن يعيد الله رسوله إلى أول جريمة وقعت في التاريخ البشري، وكان سببها الحسد على النعمة.ذكّر يا محمّد الذين همّوا ﴿أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ من اليهود﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً﴾القربان، هو ما يتقرّب به الإنسان إلى الله، وهو من التقرّب.

في هذا الباب نكون مع أول جريمة وقعت في التاريخ البشري، وتضعنا الآيات أمام البراهين والمؤشرات التي تؤدّي إلى الجريمة، فنتعرّف على بنية الإنسان الشرير، كما نتعرف إلى بنية الإنسان الخيّر، ويتبيّن لنا بأن

المجرم لايميّز بين قريب وبعيد، فإن فعل الجريمة بحدّ ذاته هو تجاوز لكل علاقات القربى، والعلاقات الإنسانية، فمادام الإنسان قد أجمع على فعل الجريمة، فيكون بذلك قد تجاوز كل الحدود، ولعل ذلك لايقتصر على جريمة القتل فحسب، بل على سائر الجرائم والموبقات التي يتجاوز فيها المرء الحدود والقيم والمبادئ الإنسانية، مثل: السرقة، والكذب، والزنى، والوشاية، والبخل، والأنانية، والاستعلاء. حيث لايقتصر ذلك على حالات محدّدة، فمادام الإنسان قد سرق، ولم يتب عن السرقة، وهو مستمرّ فيها، فيمكن له أن يتوسع في دائرة السرقة، وما دام الإنسان قد زنى، ولم يكف عن ذلك، ولم يتب، وهو ما يزال مستمرّاً في الزنى، فيمكن له أن يُعدّد ويتوسع في دائرة الزنى، وعلى هذا النحو بما يشمل سائر ألوان الفواحش، والموبقات، والفساد، ولاشيء يمكن له أن يضع حدّاً لذلك سوى التوبة، أي بتر الحالة من الجذر.

إن قابيل عبّر عن نزعته السلبية عندما رفض التشريع الإلهي بأن يتزوّج كل رجل مما يشاء من النساء، بشرط واحد، هو ألاّ تكون هذه المرأة توأمته في الولادة، وكانت أم البشر حواء رضي الله عنها تنجب في كل ولادة توأماً من ذكر وأنثى، فعندما قال له قابيل: ﴿**لأَقْتُلَنَّكَ**﴾ قال هابيل: ولِمَ؟ قال: لأن الله تعالى قبل قربانك وردّ قرباني، وتنكح أختي الحسناء وأنكح أختك الدميمة، فيتحدث الناس أنك خير مني ويفتخر ولدك على ولدي، قال هابيل: وما ذنبي؟ ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾

إذن كان التشريع أن يكون التكاثر من خلال ذاك اللون من الزواج، لكن الذي حصل أن قابيل عندما رأى توأمته جميلة، خطر له أن يرفض هذا التشريع، ليطالب بأن يتزوّج من توأمته /أقليما /، فهو قد استكثرها على أخيه هابيل الذي كانت توأمته/ لبودا/ أقل جمالاً، وقد وضعت حواء ابنها الثاني هابيل، وابنتها الثانية لبودا، بعد سنتين من ولادة البطن الأول، ونظراً لهذه الأسبقية في الولادة، يكون الأربعة قد كبروا معاً، وأصبحوا في سنّ الزواج معاً، فجاء التشريع الإلهي، ومن هنا بدأ رفض قابيل لهذا التشريع، فلم يتدخل آدم عليه السلام بشكل مباشر ليمنعه، بل عبّر له بأن الأمر ليس منه، بل هو عائد لله عز وجل، فإن أذن الله لمطلبه، فلا اعتراض على أمر الله. وطلب أن يجعل كل واحد منهما قرباناً، والذي يتقبّل الله قربانه، تكون أقليما زوجة له.

كان هابيل يملك ماشية، فاختار كبشاً من خيرة ما لديه، وكان قابيل يملك زرعاً، فاختار أردأ ما لديه من الزرع، حيث أخذ حزمة من السنابل، وعندما وجد سنبلة جيدة بينها، فركها وأكلها. عندئذ اتجهوا جميعاً إلى الجبل، ووضعوا قربانيهما في أعلاه ، فدعا آدم عليه السلام ربه بالاستجابة، فنزلت نار من السماء، أكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، عندئذ أحس قابيل بأن أخته ستذهب لأخيه، ويُروى أنه عندذاك قال له: (﴿**لأَقْتُلَنَّكَ**﴾حتى لا تنكح أختي، فأجابه هابيل:﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾). بمعنى: لو كنت تقياً يا قابيل، لتقبّل الله منك قربانك، وقد تقبّل مني قرباني لأنني تقي. لقد أدرك قابيل ما رمى إليه أخوه، ولذلك هدّده بالقتل.

عن هشام بن سَعْد، عن إسماعيل بن رافع قال: (بلغني أن ابني آدم لما أمرا بالقربان ، كان أحدهما صاحب غنم ، وكان أنتج له حمل في غنمه، فأحبه حتى كان يؤثره بالليل ، وكان يحمله على ظهره من حبه ، حتى لم يكن له مال أحب إليه منه . فلما أمر بالقربان قربه لله ، عز وجل ، فقبله الله منه ، فما زال يرتع في الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم عليه السلام).

ويُروي أنه لما قتله (اسودّ جسدُه وكان أبيضَ، فسأله آدمُ عن أخيه فقال: ما كنت عليه وكيلاً، قال: بل قتلته ولذلك اسود جسدُك)

إنها فاجعة كبرى تلقاها الأبوان في ابنيهما الأولين، ولكنهما لم ييأسا، ولبثا مع بعضهما البعض يستمرّا في الحياة، وقد ولدت حواء عشرين مرة، أي عشرين ولداً، وعشرين بنتاً، وقد ولدت في البطن الأول قابيل، وتوأمته أقليما، وفي البطن الأخير عبد المغيث، وتوأمته أمة المغيث، لكن بعد موت هابيل بخمس سنوات، ولدت ولداً بمفرده هو/ شيث/ كتعويض من الله لهما عن هابيل، ويُروى أن جبريل عليه السلام قال لحواء عندما ولدت ابنها شيث مفرداً: (هذا هبة الله لك بدل هابيل) وكان آدم إذذاك قد بلغ مائة وثلاثين سنة من العمر ، وممّا يُروى (أن الله تعالى علّمه ساعات الليل والنهار، وعلّمه عبادة الخلق في كل ساعة منها، وأنزل عليه خمسين صحيفة فصار وصي آدم وولي عهده).

فالأصل في الجريمة الأولى، هو الحسد، وعدم الرضى بالتشريع الإلهي، هذا التشريع الذي يبيّن للإنسان الرشد من الغي، ويضعه على صراط مستقيم، ويجعله تقياً، وبذات الوقت يجتبه الوقوع في براثن الطغيان.

﴿٢٨﴾

﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

إنها التقوى التي تمنعه من الردّ بالمثل، حتى لايكون مثله، ثم أنه يتحدّث مع أخيه الذي يكبره بسنتين بأدب، لن أكون مثلك ببسط يدي للقتل، لأنني تقي، وخوفي من الله يمنعني من ذلك. ولعل ذلك يشير بأنه لم يكن يخافه، رغم أن قابيل كان يكبره، فقوله ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتقْتُلَنِي﴾ يشير إلى أنه سيقاومه بمنعه من القتل، وليس للرد عليه بالقتل، فقولك لشخص: إن أردتَ أن تضربني، فتعال، ولن أضربك، لايعني ذلك أنك تستدعيه لضربك، وتستسلم له، بل لتثبت له بأنه لا يستطيع أن يضربك، كونك قادر على منعه من ذلك، وهذا ما حدث بالنسبة لقابيل، فجواب هابيل بث إليه حقيقة أنه لايستطيع أن يتقدم إليه وجهاً لوجه، وأنه سيرضخ مستسلماً له، بل إنه قادر على منعه بذلك، لكنه لن يقتله لسبب أنه شاب تقي في مقتبل عمره، ومقبل على الزواج، ويخاف الله، كما أن أخاه أيضاً في مقتبل عمره، ومقبل على الزواج بيد أنه ليس تقياً، وهذا شأن خاص به، فثق يا قابيل بأنني لن أدعك تقتلني ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتقْتُلَنِي﴾ وسوف أردك، لكن في الوقت عينه لأنني تقي ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ

﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ونحن الآن في مرحلة ولادة فكرة القتل لدى قابيل، وقد ولدت هذه الفكرة عند شخص مهيأ لها، فهو قد رفض في البدء التشريع الإلهي، ثم أنه عبّر عن حجم أنانيته وحسده عندما قال لأخيه بأنه يفضّل أن يقتله على أن يتزوّج أقليما، ثم أنه عبر عن بخله عندما قدّم قرباناً من أردأ ما لديه من الزرع، فهذه من أشكال الطغي، ثم نجد أن هابيل أبدى موافقته على التشريع، وعبّر عن كرمه عندما اختار أفضل مما لديه من ما شية للتقرّب إلى الله، ثم أنه لم يردّ على التهديد بالتهديد، وتلك من علامات التقوى التي تؤدّي بصاحبها إلى مخافة الله، كما أن الطغيان يؤدّي بصاحبه إلى اللاخوف من الله، فيقدم على فعل كل شيء كونه ليس تقياً، وقد أفضت به اللاتقوى إلى عدم الخوف من الله. الخوف من الله هنا هو الخوف الإيجابي الذي يمنع الاعتداء على حقوق الغير، واعلم أن الخوف من الله هو أعلى مراتب التخلص من الجبن، وأعلى مراتب الشجاعة، فالخوف من الله يبث إليك شجاعة الطمأنينة،﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾النحل٥٠

إنه يرسخ في ذاتك حضور الله تبارك وتعالى، حتى تبلغ بك مرتبة متقدمة تلمس فيها بأنه سبحانه وتعالى معك في كل خطوة تخطوها، وفي كل هنيهة تدركك.

عندئذ يستكين فؤادك بسكينة الخوف من البارئ، فتتطيب نفسك بما ينثره الخوف الإلهي إلى ذراتها من نور الله، عزّ اسمه، فتدرك آنذاك لأول وهلة أن كل خوف به خصلة جبن، إلا الخوف من الله ، يكون شجاعة خالصة، كل خوف يحمل شكلاً من أشكال الجبن، إلا الخوف من الله، فهو أعلى مراتب الشجاعة.

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾السجدة ١٦

﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾الإسراء٥٧

يتحوّل خوفك من الله إلى حصانة تتحصّن بها من أي خوف دونه، حينها يستكين في جنباتك يقين أن كل خوف من دون الله، إنما منبته اللاخوف من الله، وكل لاخوف من دون الله، إنما منبته الخوف من الله.

﴿ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾النور٣٧

يكون الخوف من عقاب الله، وهذا ما يعزّز الطاعة لديك، لأنك نظير ذلك تدرك بأنه يثيبك على طاعتك له، ولا شيء يضيع عنده مما تقوم به من عمل صالح، بل يضاعفه لك بما يشاء، وهذا هو الخلاف بين خوفك من عقاب القانون المدني، وبين خوفك من عقاب الشرع الإلهي، فهناك قد تخاف من ارتكاب مخالفة حتى تتجنّب العقاب، وتكتفي بذلك، لأنك مهما تجنّبت المخالفات، وصلحت في عملك، فإن القانون لايهبك شيئاً، إنه في أحسن الأحوال لايتعرّض لك، لكن الخوف من انتهاك حدود وشرائع الله، يجعلك غير مكتفياً بذلك، بل تعمل الصالحات ما استطعت إليها سبيلاً، لأنك الله يثيبك في الدنيا، وفي الآخرة، إلى جانب أنه

يقيك عذابَي الدنيا، والآخرة. عن أبي المغيرة، عن عبد الله بن عمرو أنه قال:(وايم الله، إن كان المقتول لأشدَّ الرجلين، ولكن منعه التحرُّج أن يبسُط إلى أخيه).

إن بلوغ حالة الخوف من الله، هي بلوغ لحالة الشعور برؤية الله لك في جميع الأوقات، وأن كل ما تشعر به، أو تفكر به، لايخفى عن الله،

﴿٢٩﴾

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾

وهذه إشارة قوية له كي يمتنع عن تنفيذ تهديده، فيا أخي، إن أقدمتَ على قتلي، لن تترك دون عقاب، بل سيدخلك الله النار عقاباً لك، وعندها لا تبوء بإثم قتلي فحسب، بل تبوء بإثم حرماني من الزواج الذي شرّعه الله لي مرتين، وحرّمه عليك مرتين، مرّة عند التشريع، ومرة عند تقبّل قرباني، وعدم تقبل قربانك، واعلم يا أخي أنك إن قتلتني، كذلك سـ ﴿**تَبُوءَ بِإِثْمِي**﴾ لأن الله لن يضيّع حقي منك، فإن لم تكن لديك حسنات، يأخذ الله من سيئاتي لتكون لك، فتعاقب ﴿**بِإِثْمِي**﴾ الذي لم ترتكبه، ﴿**فَتَكُونَ** ﴾ بقتلي﴿**مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**﴾ لاتكون فيها بشكل مؤقت، بل تكون مصاحباً لها ﴿**وَ**﴾أن﴿**ذَٰلِكَ**﴾العقاب هو﴿**جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**﴾ فلا تكن ظالماً حتى لاتبوء بـ ﴿**ذَٰلِكَ**﴾

﴿٣٠﴾

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

رغم كل هذا النصح الذي بدأ يتنوّع في توجهه من خلال ثلاث آيات متواصلة، حتى أنه في الآية الثالثة بدأ يأخذ شكلاً من التصعيد في لغة الخطاب السلمي، إلاّ أنه لم يرتدع، وقدرفض كل ما سمع واتبع ما﴿**طَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ**﴾جعلته يطيعها في﴿**قَتْلَ أَخِيهِ**﴾﴿**فَ**﴾استجاب لها و﴿**قَتَلَهُ**﴾وقد تحوّل القول إلى الفعل وقعت أول جريمة في التاريخ الإنساني، إذا أقدم أخ في الثانية والعشرين، على قتل أخيه الذي يصغره بسنتين، وهمّا أوّل ولدين لأبويهما، ولا شك أن ذلك كان بمثابة المأساة الحقيقية لأبويهما، فقد قُتل الثاني، وأمّا الأول تحوّل إلى قاتل أخيه ﴿**فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾. ويُروى أن آدم عليه السلام لم يضحك بعد ذلك مائة سنة، ثم جاءه ملك فقال له: (حياك الله يا آدم وبياك. فقال: ما بياك؟ قال: أضحكك). وكانت المرة الأولى التي عرف فيه الإنسان معنى الأبوة.

يقول الأصفهاني: (وأصل أب فعل، ويقال أبوت القوم كنت لهم أبا أبوهم، وفلان يأبو بهمه أي يتفقدها تفقد الأب.

وزادوا في النداء فيه تاء فقالوا يا أبت.

وقولهم: بأبأ الصبي فهو حكاية صوت الصبى إذا قال بابا)[10]

إذن، لقد لجأ قابيل إلى الغدر دون أن يتجرأ على مواجهته وجهاً لوجه، فقد استغفله وهو نائم في رعاية أغنامه، وانظر هنا إلى الطريقة الجبانة التي اغتاله فيها، فهو لم يوقظه كي يتبارزان، أو يتصارعان، ليظفر أحدهما بأقليما، بل لجأ إلى وسيلة اغتيال سريعة للتخلص منه بأن حمل صخرة كبيرة ، وأوقعها على رأسه، وهو نائم وقتله.

﴿٣١﴾

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾

بانتهاء الجريمة، رأى نفسه أمام معضلة ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾، وهذا يعني أن هابيل هو ليس أول إنسان قُتل فحسب، بل هو أو إنسان مات، وأن قابيل ليس أول إنسان رأى إنساناً مقتولاً فحسب، بل أول إنسان رأى أول إنسان مات أيضاً، ولذلك وقع في حيرة كيفية مواراة جسده حتى يتمكن من نكران ارتكاب الجريمة، عندما يعود أبوه من مكّة، وكان آدم عليه السلام عند وقوع الجريمة في أول زيارة لمكة عندما قال له الله عز وجل: (هل تعلم أن لي بيتا في الأرض ؟ قال : اللهم لا . قال : إن لي بيتا في مكة فأته . فقال آدم للسماء : احفظي ولدي بالأمانة ، فأبت . وقال للأرض ، فأبت . وقال للجبال ، فأبت . فقال لقابيل فقال : نعم ، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك). فهو الأخ الأكبر للعائلة، وهنا يتبيّن أيضاً بأنه خان الأمانة.

واعلم أن هيأة الإنسان كانت مختلفة عمّا هو عليه الآن، وقد ورد في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص" ولعل ذلك يعني أن حواء كانت على شيء من ذلك، لأنها تحمل في كل بطن جَنينَين، ولعل طول الجَنين يكون نحو خمسة أذرع، لأنه سيُصبح في طول قريب من أبَوَيه، ثم أن نسبة الدم التي ستسيل منه تكون كثيرة.

لذلك حمل ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾وهو يبحث عن طريقة كي يواريها دون أن يفلح في ذلك، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ البحث هنا هو الحفر، ومن عادة الغراب أن ﴿يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾سواء ليخفي شيئاً، أو يُخرج شيئاً كان قد أخفاه سابقاً، ويبدو أن الحفر قد لفت نظر قابيل، وصار يتخيّل أنه سيوسّع الحفرة حتى تتسع لأخيه، ثم يردمه بالتراب، وهنا ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ وقوله ﴿يَاوَيْلَتَا﴾بمثابة توبيخ للذات، فكيف ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ وليس من باب الندم، أو التوبة، وذلك لأنه استمرّ في العصيان، والذي يتوب، يتقبّل الله منه التوبة إن شاء، لأن باب التوبة لاينغلق أمام أي إثم يمكن للإنسان أن يرتكبه، حتى الشرك ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ

[10] غريب

عَن عِبَادِهِ﴾الشورى٢٥، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَن عِبَادِهِ﴾ التوبة ١٠٤. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: " الإسلام يهدم ما قبله " أخرجه مسلم. فالويل هنا موجّه إلى عجزه في طريقة إخفاء جريمته، وليس ندماً منه على ارتكاب فعل الجريمة.

قال عبد المطلب بن عبد الله بن حنطب: (لما قتل ابن آدم أخاه وجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ثم شربت الأرض دمه كما يشرب الماء، فناداه آدم أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري ما كنت عليه رقيبا، فقال الله تعالى: إن دم أخيك لينادين من الأرض، فلم قتلت أخاك؟ قال: فأين دمه إن كنت قتلته؟ فحرم الله عز وجل على الأرض يومئذ أن تشرب دما بعده أبداً).

وقيل:(لما قتل قابيلُ هابيلَ هرب إلى عدن من أرض اليمن، فأتاه إبليسُ فقال له: إنما أكلت النارُ قربانَ هابيلَ لأنه كان يخدُمها ويعبُدها، فإن عبدتها أيضاً حصل مقصودُك، فبنى بيتَ نارٍ فعبدها وهو أولُ مَنْ عبد النار).

إنها الخسارة الكبرى التي يُمنى بها الإنسان العنيد المتجاوز لحدود الله، وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها لأنه أوّل من سنّ القتل".

تتعلّم من هذه الآيات بأن الله خلق الإنسان كي يعيش، ويستمرّ من خلال الحياة، والإستمرار الطبيعي يكون من خلال الضوابط الإلهية التي تكفل للإنسان أن يعيش حياة عادلة، طبيعية، ومشرقة، منتجة، تقية، نافعة، لكن الإنسان إن تجاوز هذه الضوابط الإلهية سواء سرّراً أو علناً، فإنه يخرج عن مسار العدل، ومسار فطرة الطبيعة البشرية، فلن يكون له إلاّ أن يكون جائراً، مؤذياً، مظلماً، طاغياً. ثم أن شجاعة الإنسان لاتكمن في عدم خوفه من الله، بل تكمن ذروتها من قوة خوفه من الله، ولذلك يلجأ الذي لايخاف الله إلى منعرجات خفية، مثل السرقة، والوشاية، والزنى، والنفاق، والرياء، والقتل، ولذلك نرى أن كل هذه الممارسات تحدث سرّاً لأن المرتكب لايملك شجاعة أن يمارسها علناً، وأنه سيلقى الإدانة المجتمَعية.

من هنا يمكنك ملاحظة أن جرائم القتل في غالبيتها تقع في السرّ، وبشكل غادر، نسبة إلى الجريمة الأولى، فلكل شيء أصل، وقد أطلعتك الآيات على تفاصيل واقعة الجريمة الأولى، ثم عرّفتك على البنية النفسية للإنسان المجرم، فهو إنسان متهزهز في الأعماق، ومضطرب في التصرفات، أناني النزعة، حسود النظرة، سوداوي التفكير. في المقابل عرّفتك على البنية النفسية للإنسان التقي، فهو إنسان مستقرّ في الأعماق، منضبط في التصرّفات، إنساني النزعة، مُبارَك النظرة، مشرق التفكير. ثم انظر إلى لاأدب قابيل في حديثه، وإلى أدب هابيل في جوابه، رغم أن هابيل هو أكثر شجاعة من قابيل، فلو كان ضعيفاً، لما احتاج قابيل إلى قتله كي يأخذ أقليما، بل لأخذها رغماً عن أنفه، وهو ينظر إليه نظر العين لأنه أقوى منه، ولم يكن بحاجة أن يردعه بالقتل، بل بشيء من الضرب المبرح، أو حتى بوضعه في عزلة، لكن هابيل كان مانعاً قوياً أمامه في ارتكاب هذا التجاوز على حدود الله، وأن قابيل لم يكن يُشكّل هذا المانع القوي أمام هابيل كي

يتزوّج من أقليما، بل كان سيتزوّجها رغماً عن أنفه، ودون أن يجسر على فعل شيء، لأن قوة هابيل كانت واقفة له بالمرصاد لأي تجاوز، إلاّ أن هذا هو مسلك أهل الطغيان، وهو اللجوء إلى الغدر ، وهذه علامة كبرى من علامات الجبن، وعدم مخافة الله.

إن هذه الآيات تبيّن لك بأن الحب، هو أكثر جدوى من البغض، والحالة الإنسانية، هي أكثر جدوى من الحالة الأنانية، وأن الإنسان لن يكون بوسعه أن يقدّم شيئاً مجدياً وهو يتجاوز حدود الله، بل يستطيع أن يقدّم شيئاً مجدياً من خلال مراعاته لحدود الله، وبالتالي لايستطيع أن يكون سعيداً من خلال انتهاك حدود الله، بل تكمن سعادته على قدر مراعاته لحدود الله، وأن المستقبل البشري يكمن في النزوع الإنساني، ولايكمن في النزوع العدواني، ولذلك لم ينتصر الطغيان بمقتل قابيل لأخيه هابيل، رغم أنه لبث وحيداً، وقد غاب الطرف الذي يمثل حالة التقوى، بل أنه بدا يتخبّط ، فانظر إلى قوله: ﴿**يَاوَيْلَتَا**﴾إذن لقد أدرك بأنه ألحق بنفسه الويل، فهو غير سعيد في قتل أخيه، لأن الاعتداء على حياة إنسان بريد لايمكن له أن يُحقق سعادة حقيقية للقاتل بأي شكل من الأشكال، لأن ذلك تجاوز لفطرة الإنسان التي فطره الله عليها، فالويل لي، ثم بصيغة السؤال الذي فيه توبيخ واستصغار للذات ﴿**أَعَجَزْتُ**﴾وهذا اعتراف ضمني له يواجه به نفسه، لأنه قال ذلك لنفسه، ولم يقله لأحد، فقد أصبح في حالة عجز بعد إرتكاب الجريمة، وهو يفقد صوابه في كيفية إخفاء معالم جريمته: أعجزتَ يا قابيل أن تـ ﴿**أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا الْغُرَابِ**﴾ بمعنى لم تكن حتى بذكاء وفطنة هذا الغارب، ولذلك استخدم لأول مرة كلمة ﴿**أَخِي**﴾وكأنه فطن للتو بأنه خسر شيئاً لايمكن تعويضه، فهذا الأخ هو بمثابة القوة له، وأنه لم يعد بإمكانه أن يرى هابيل، وقد كبرا معاً سنة بعد سنة، وعاشا طفولتهما معاً يوما بيوم، هاهو رفيق العمر الوحيد، هاهو رفيق الطفولة الوحيد، مسجى أمامك وقد قتلته غدراً يا قابيل، إنه هابيل الذي لم منعه أدبه أن يردّ عليك حتى بكلمة جارحة، عندما قلت له بأنك ستقتله، بل قال لك: ﴿**لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ فهاهي كلمات قابيل تشتعل في مسمعه، وهاهي ذكريات عشرين سنة مضت تتداعى في مخيلته:﴿**يَاوَيْلَتَاأَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي**﴾ واعلم أن استخدامه لكلمة ﴿**أَخِي**﴾ هي إشارة بانتباهه للتو بأنه خسر أخاً له لن يكون بوسعه أن يراه ثانية: ﴿**فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**﴾ ليس على ارتكاب الجريمة، بل على خسارة الأخ. لأنه لو كان ندماً على فعل الجريمة، للجا إلى الله متضرعاً بالتوبة، واعترف لأبيه بهذه الجريمة، وأنه قد ندم عليها، ولكن هذا الذي حصل، فمهما كانت النتيجة، يكون قد تاب، وأصبح صالحاً، والندم بذاته توبة، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" الندم توبة" رواه أحمد والبخاري في تاريخه والحاكم والبيهقي.

لكن لاشيء يشير بأنه أصبح صالحاً، بل أنكر جريمته، كما رأيت، رغم أن معالم الجريمة بدت واضحة عليه، عندما تغيّرت بشرته من البياض إلى السواد، ثم أنه انتهى إلى طاعة الشيطان بأن غدا أول عابد للنار.

لقد كان هابيل رمزاً للتقوى، وكان قابيل رمزاً للطغيان، وقد استمرّت الحياة رغم أن رمز الطغيان اغتال رمز التقوى، لكن الله يعمّر الأرض بمزيد من المتقين، فقد كثر الأتقياء في الأرض بموازاة تكاثر الطغاة، إلاّ أن كفة العمار رجحت بكفة الدمار، و كفة دعاة السلم الإنساني رجحت كفة دعاة الحروب، وكفة زارعي الورود، رجحت بكفة زارعي الألغام، لذلك عُمرت الأرض أكثر مما دُمّرت، أشرقت الأرض بالأتقياء أكثر مما أظلمت بالطغاة.

﴿٣٢﴾

﴿مِن أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾

إن الذي يقتل شخصاً، يمكن له أن يتمادى ليقتل غيره، فتكون لديه القابلية لذلك، ﴿**فَ**﴾ بناءً على هذا ﴿**كَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**﴾ لأنه مهيأ أن يقتل أي شخص بعد ذلك، كون غريزة القتل محققة فيه، وهو شخص عدواني بامتياز. إذن يكون قد ارتكب جريمة بحق الإنسانية جمعاء، كونه اعتدى على فرد من هذه الإنسانية دون وجه حق، وهو بذلك يكون قد غدر بالإنسانية التي ينتمي إليها . ونظير ذلك، فإن الذي يشعر بمسؤوليته الإنسانية، فإن ذلك يدفعه كي يخلص لانتمائه الإنساني، ويسعى إلى إنقاذ حياة الناس، فإن رأى شخصاً في كرب، سعى للتخفيف عنه، إن رأى شخصاً في خطر، سارع إلى إنقاذه،﴿**فَ**﴾هو إن خفف عن شخص، ﴿**كَأَنَّمَا**﴾ خفف عن الإنسانية جمعاء، وإن أنقذ حياة شخص، ﴿**فَكَأَنَّمَا**﴾ أنقذ حياة ﴿**النَّاسَ جَمِيعاً**﴾. ويمكن أن يحدث هذا في موقف عفو، أو موقف ستر، لأن الإنسان يمكن أن يرتكب خطيئة، ويندم عليها، ويتوب إلى الله، ويصلح في شأنه، ثم يطلب منك أن تعفو عنه، أو تستره، فيبدأ هذا الشخص صفحة جديدة من حياته، ولم يكن ليظفر بذلك لو أنك ما عفوت عنه، أو أنك ما سترته.

لقد بيّنا يا محمّد لـ ﴿**بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ كتابنا من خلال ما﴿**جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**﴾ وهذا يعني أن الإسراف ليس عاماً لـ ﴿**بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾و ﴿**إِنَّ**﴾ ما تبقى﴿**مِّنْهُم**﴾ غير مسرفين. وبذلك فإن الصلة بين الناس الأتقياء تبقى قائمة، دون أن يتحمّل أحد وزر أحد، لأنك إن أدنتَ هذا الإسراف في مجتمعهم، فإنهم قبلك يدينون هذا الإسراف في مجتمعهم ، وأنتما شركاء في هذه الإدانة.

فـ ﴿**مِنْ أَجْلِ**﴾ ما تترتب على مرتكب جريمة القتل ﴿**كَتَبْنَا**﴾ و ﴿**مِنْ أَجْلِ**﴾ما يترتب لمحيي النفس ﴿**كَتَبْنَا**﴾ وعبارة ﴿**مِنْ أَجْلِ**﴾ تعني أنها تحمل الثواب، وتحمل العقاب، فـ ﴿**مِنْ أَجْلِ**﴾ هذا تلقى العقاب، و﴿**مِنْ أَجْلِ**﴾ ذاك تلقى الثواب.

﴿٣٣﴾

﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

لكن هناك مَن يمتهنون الأذى، والفساد، ولذلك أذن الله بعقاب هؤلاء، أو إبعادهم عن المجتمع، حتى لا يتمكنوا من إفساد الناس، ونشر رقعة الفساد في المجتمع،

فمن طبع الكافر التمادي في الذنب والسعي جاهداً لجعل المعصية قاعدة بغية نشر الفساد في الأرض والناس . وهو مصر على ذنوبه وموسعاً لها يوماً إثر يوم وباحث عن رفاق سوء له لتوسيع رقعة الفساد ما أمكن بالاعتماد على أكبر عدد من الناس . إنه متمثل للشر ومدافع عنه فلا يكاد يترك جمعاً من الناس إلاّ ويلحق به داعياً الناس التخلي عن الفضيلة بكل الوسائل إلى بلوغ تحمّل الوزر لإغراء مؤمن كأن يقول لمؤمن تقي : تعال نرتكب هذه المعصية و ذنبك لي . بغية استدراجه واكتسابه إلى صفّه ، وجعل الفساد حالة علنية طبيعية ما أمكن ليكون في متناول الناس . إنه لا يكتفي بمعاداة نفسه ، بل يتجاوزها لمعاداة الناس وهو متمسك بمهمته التي يمضي عمره فيها فيشعر بالظفر على قدر ما أفسد من ناس .

إنه هنا يسعى إلى إلحاق الأذى بالناس ونشر الفساد فيهم حتى إذا تجاوز له الله عن حقه وجد حشداً هائلاً من الناس لا يتجاوزون له عن حقوقهم ، وعمّا لحقهم من أذاه في الدنيا ، والله لا يُرغم عليهم ليتجاوزوا عن حقوقهم ، ليلبثوا أحراراً في أمر يعنيهم وجعَلهم الله فيه أحراراً متعهداً بأنه لا يظلمهم ، وليرى الإنسان مرة أخرى أن العدالة الإلهية متحققة في كل زمان ومكان .

إن مجرد ترك هذا الفاسد في الناس هو ظلم للناس، والله ليس ظالماً للناس ولذلك أمر ولاة الأمور إبعاد المفسدين عن الناس بشتى الوسائل وقد وضع لهم ما ذكره الله جل شأنه في الآية من وسائل متعددة تمنع المتمادين من الاعتداء على غيرهم، فهؤلاء ﴿يُحَارِبُونَ اللّهَ﴾من خلال تجاوز حدوده، وارتكاب المعاصي، ﴿وَرَسُولَهُ﴾ من خلال رفض ما أتى به الرسول ، وهم ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا في عهد الرسول ويحاربونه بشكل مباشر، و ﴿الَّذِينَ﴾ من بعدهم يحاربون أتباع الرسول. ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ يلجأون إلى كل وسيلة يتمكنون منها﴿فِي الأَرْضِ﴾ ليعيثوا﴿ فَسَاداً﴾ هؤلاء جزاؤهم على ما يبدر منهم ﴿أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ﴾ بما يتوافق كل عقاب مع نوع الجريمة ﴿ذَلِكَ﴾العقاب﴿ لَهُمْ﴾بمثابة﴿خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿٣٤﴾

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يُستثنى من هؤلاء ﴿الَّذِينَ﴾ ندموا على ما ارتكبوا من تجاوزات، وذلك قبل أن يتم التمكّن منهم لتنفيذ العقاب، فقد كانوا أحراراً، ومن تلقاء أنفسهم،﴿تَابُوا﴾. يوجه الله خطابه إلى الذين بأيديهم زمام العقاب ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ و ﴿إِلَّا﴾مستثنية بشمولها كل ألوان العقوبات المذكورة، فهؤلاء يمكن لهم أن يُصبحوا أفراداً صالحين في المجتمع، فلا تقفوا في وجه صلاحهم.

﴿٣٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

انتهت كل تلك المراحل، ومضت، وما يهمكم الآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾أن تتخذوا العبرة ممّا وقع لأسلافكم الذين طغوا حتى لاتكونوا مثلهم، وما يجتبكم أن تكونوا مثلهم هو أن تـ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، فإن تقوى الله مجلبة لمخافته، ومخافته تجتبكم الطغيان﴿وَ﴾ في ذلك ﴿ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ ألاّ تقتصر التقوى في الكلام، بل تفعيل الكلام إلى ممارسات حسية ملموسة ، فأن تقودك التقوى إلى الأفعال التقية، فينتفع الآخرون من تقواك، وعندذاك تنفعك تقواك بما انتفع بها الآخرون، واعلم أن ﴿الْوَسِيلَةَ﴾إلى الله هي العمل الصالح الذي تتوسل به إلى الله، فأنت تأخذ من مالك وتنفقه في سبيل الله متخذاً بذلك ﴿وَسِيلَةً﴾ تتقرّب بها إلى الله، ولا تقتصر ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ على المال، بل على الكلمة الطيبة، والبسمة في وجه أخيك، وإماطة الأذى عن الطريق، والإصلاح بين الناس، والستر، وقول الحق.

الوسيلة هي كل عمل ينتفع به الناس، تتوسل بفعله إلى الله كي يرضى عنك، فإذا جاءك سائل يطلب حاجة، فإن أداء حاجته بقدر المستطاع هي ﴿وَسِيلَةً﴾ لك عند الله، فعليك أن تشكر الله لأنه يسّر لك ﴿الْوَسِيلَةَ﴾، إذا جاءك شخص محتاج، ثم أن الله منّ عليك بالمقدرة على تلبية هذه الحاجة، فأنت هنا تؤدّي الحاجة مبتغياً بذلك وجه الله، وتشكر الله الذي يسّر لك هذه ﴿الْوَسِيلَةَ﴾، كما تشكر الله الذي يسّر لك أمر إماطة الأذى عن الطريق، أو قول الكلم الطيب، أو إرشاد سائل إلى سؤاله، أو التسبب في رفع ظلم عن مظلوم، أو كرب عن مكروب، أو إعادة حق إلى أهله.

في لسان العرب: (الوَسِيلةُ: المَنْزِلة عند المَلِك.والوَسِيلة الدَّرَجة.والوَسِيلة القُرْبة. ووَسَّل فلانٌ إِلى الله وسِيلةً إِذا عَمِل عملاً تقرَّب به إِليه.والواسِل: الراغِبُ إِلى الله؛ قال لبيد: أَرى الناسَ لا يَدْرونَ ما قَدْرُ أَمرِهم، بَلى كلُّ ذي رَأْيٍ إِلى الله واسِلُ وتوَسَّل إِليه بوَسيلةٍ إِذ تقرَّب إِليه بعَمَل. وتوَسَّل إِليه بكذا: تقرَّب إِليه بحُرْمَةِ آصِرةٍ تعْطفه عليه)[11]

[11] لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبوالفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي ، ط٣، ج١٥، دار صادر، بيروت.

المؤمن يُكرم وسيلته التي هي خالصة إلى الله، فإن أخذ حاجة إلى محتاج، غلّفها غلافاً جيداً، وجعلها أنيقة، ثم قدّمها إليه برضى، وطيب، فهي وسيلته إلى الله من خلال هذا المحتاج، فعطاء المؤمن يكون مما هو جيّد من ماله، لأنه يريد أن يرى عند الله جيداً. ولايتحقق لك ذلك من تلقاء نفسه، بل عليك أن تجاهد في بيل الله كي تبلغ ذلك، فقال جل ثناؤه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾بكل ألوان وتفرّعات الجهاد بما استطعتملعلّ ذلك يجعلكم ﴿تُفْلِحُونَ﴾ فتلك الوسائل هي بذور بذرتها في سبيل الله، والفلاح هو المحصول الذي يباركه الله، فتجنيه.

﴿٣٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِن عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

في هذه الآية اجتمع التحذير مع الإخبار، والخطاب هنا لم يُخصص لفئة من الناس دون أخرى، بل لبث مفتوحاً للعموم، فيا أيها الناس كونوا على يقين ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ﴾بمعنى أن كفرهم لايحقق لهم كل هذه المنافع الدنيوية، ولكن افتراضاً بأنكفرهم جلب ﴿لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾من خيراتدون أن يتركوا شيئاً لغيرهم، وجاءت الملكية شمولية، فلا تقتصر على ملكية كل ما في الأرض من جواهر، أو ثروات حيوانية، أو مزارع، أو مناصب، بل يكون مالِكين لكل ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾، وملوكاً على كل مَن ﴿ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ثم تضاعف ذلك كله لهم بالمثل ﴿ مَعَهُ﴾لاينفعهم ذلك بشيء يوم القيامة، لأنه يعجز أن يحول بينهم وبين أن يلقوا عذاب كفرهم الأليم إن أرادوا أن ﴿يَفْتَدُوا بِهِ﴾ للنجاة﴿مِن عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾كونهم ماتوا وهم يصرّون على كفرهم دون أن يتوبوا ليُصبحوا مُستثنين بـ ﴿إِلَّا﴾ فأخبر الله﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾لأن في ذاك اليوم العظيم لم يعد ﴿يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾الشعراء٨٨ ، ومن الطرف الآخر يمكنك أن تستنتج حال المؤمن مع ما يملك، فإن هذا المال ينفعه في الدنيا، وفي الآخرة، كونه يتنعّم به في الدنيا، وينفق منه في سبيل الله، فيلقى الثواب في الآخرة، وهذا إخبار من الله تعالى ذكره بأن خسارة الإيمان هي الخسارة الكبرى التي يُمنى بها الإنسان، الخسارة التي لايمكن تعويضها بأي شكل من الأشكال.

ثم لو أنك نظرتَ إلى هذه المعادلة سيجلو لك بأن المؤمن كائن حرّ يمارس حريته، ويستمتع بها أكثر من الكافر، كون الإيمان بذاته هو ذروة أشكال الانفتاح، في حين أن الكفر هو ذروة أشكال الانغلاق، والإيمان يتيح للمؤمن أن يعيش حالة وضوح، يمارس الوضوح حتى يغدو كائناً واضحاً، مستنيراً، في حين أن الكفر يتيح للكافر أن يعيش حالة غموض، يمارس الغموض حتى يغدو كائناً غامضاً ظلامياً، فالمؤمن إن رأى شخصاً في خطر، أنقذه في العلن، إن رأى شخصاً في ضائقة، أعانه في العلن، رأى شخصاً في كرب، خفف عنه في العلن، في حين أن الكافر، يُسبب الخطر للناس في السر، يسبب لهم الضيق في السر، يسبب لهم الكرب في السر، كذلك فإن المؤمن يمارس حياته بطلاقة، ويمكن له أن يُذنب، ويتوب، وهو غير معصوم من الذنوب، لكنها

ذنوب الإنسان المؤمن، وقد قدّمتُ شرحاً عن ذلك في كتابي (فقه المعرفة)[١٢] موضوع: (ذنوب المؤمن) فالمؤمن هو إنسان لايكون بوسعه ألاّ يرتكب ذنباً لأن ذلك فوق مقدرته، لكنها تختلف عن طبيعة ذنوب الإنسان الكافر، والخلاف أن المؤمن لا يتمادى في ذنبه وهو في حالة ارتكاب الذنب مضطراً أو منغراً ، وأن قلبه يكون وجلاً من الله ، وهو يكون في حالة حياء كاملة من الله الذي ينظر إليه، إن كل حواسه ومدركاته تكون في حالة اضطراب خجلاً من الله كمن يسرق شيئاً على مرآة من صاحبه .

على الأغلب فإن ذنوب المؤمن تنتمي إلى نوع الذنوب التي لا تلحق الأذى بأحد غير صاحبها، وهو يسعى ما بوسعه في سبيل مواراة آثار ذنبه، وينكره أشد النكران إذا ما سُئل عنه ، ويكره أن يعود إليه كما يكره أن يُقذف في النار . إنه وهو يستر نفسه في ذنبه في معزل كامل عن الناس ويرتكب الذنب بينه وبين ربه ، يرفع قلب التضرع إلى ربه ويذرف دموع الندم على ما اقترف من ذنب. لقد شاء رب العزّة أن تسجَّل للإنسان حسناته وهو قائم بها ، وألاّ تكتب ذنوبه وهو يرتكبها لعله يتوب فلا تكتب عليه، ففي الليل يتقبّل الله توبة مذنب النهار ، وفي النهار يتقبّل توبة مذنب الليل، ويبقى باب التوبة مفتوحاً أمام الإنسان سواء أكان مؤمناً، أو كافراً حتى يومه الأخير. فهؤلاء الكفار يكون ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾بما كفروا، وهتكوا الأعراض، وجاروا، وأذوا، وفتنوا، وفسقوا، وطغوا، وأفسدوا، ولبثوا في عناد وإصرار على مسلك الكفر الذي سلكوه، فعذابهم يكون أليما، لأنهم سبّبوا الآلام للناس جراء كفرهم، فاليوم يذوقون ما أذاقوه للأبرياء، فاليوم، لامَلك، ولا مالك، الجميع يرضخون لعدالة الله حيث يتساوى الناس جميعاً في هذه العدالة، ويأخذ أضعف الناس حقه، من أقواهم، يأخذ أفقر الناس حقه من أغناهم.

﴿٣٧﴾

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾

عندئذ يُدركون أنهم دخلوا ناراً ليس بوسعهم ﴿أَن يَخْرُجُوا﴾﴿مِنْهَا﴾ ، و ﴿يُرِيدُونَ أَن﴾ يفعلوا أي شيء كي ﴿يَخْرُجُوا﴾لكن لا شيء ينفعهم لأن الشيء الوحيد الذي يمكن له أن ينفعهم هو الإيمان، وهو ما يفتقدوه. ذلك أن الإيمان يؤدّي بالمؤمن إلى العمل الصالح، كما أن الكفر يؤدّي بالكافر إلى العمل الطالح، فهؤلاء لا يجدون سوى سيئات ما فعلوا، وهم يقفون على تاريخ من الجور، والمآسي، والأذى، والفساد، والعصيان، والفسوق، والاستكبار، والاستهزاء، لذلك ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ﴾لا تتحقق إرادتهم بالخروج﴿مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ يُصبحون موضعاً لإقامة العذاب، حيث يسكنهم العذاب الأليم في النار التي لا تتحقق إرادتهم بالخروج منها، وما داموا فيها، فإن العذاب الأليم يلبث قائماً فيهم.

[١٢] فقه المعرفة – عبد الباقي يوسف – منشورات دار المنارة – دمشق – بيروت – ٢٠٠٤

الباب التاسـع

لوثـة السـرقـة

﴿٣٨﴾

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

إن أيدي المؤمنين تمتدّ للعطاء، والنفع، لكن إن جنحت يدٌ نحو السرقة، والضر، فإنها تكون قد فسدت، وجلبت الفساد لصاحبها، وبذلك فهي تستحق العقاب، وكأن في ذلك إشارة، كي ترتدع الأعضاء الأخرى عن التمادي، فهي يمكن لها أن تعدي بقية الأعضاء، هذا من جهة، ثم من جهة أخرى، فهي من شأنها أن تفسد أيادٍ أخرى في المجتمع، والقطع هنا يكون بمثابة بتر مصدر العدوى، سواء للسارق ذاته، أو للمجتمع الذي يعيش فيه السارق، فقطع يدٍ يمكن أن يؤدّي إلى سلامة بقية أعضاء الجسد، كما يمكن أن يؤدّي إلى ردع الكثير من الأيادي التي كانت ستمتدّ لسرقة شقاء أعمار الناس، والسرقة بذاتها عمل غير إنساني، فشخص يشقى عدّة سنوات، ثم يأتي شخص آخر متخاذل، متكاسل، لايقوم بأي عمل في المجتمع، ويتخذ من السرقة مهنة له، يتفنّن بسرقة أموال العباد، فيقع على مال هذا العامل الكادح، ويسرقه، ليحصل في يوم على ما جناه ذاك العامل في سنوات ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

فإن تركت هذه اليد، كان ذلك بمثابة تشجيع لها على الاستمرار في السرقة، ثم أن ذلك قد يُعدي العين أيضاً، فتسترق النظر إلى ما حرّم الله، ويُعدي الأذن، فتسترق السمع، ويُعدي اللسان، فيسترق القول، حتى تفسد جميع الأعضاء، فتغدو سارقة. ثم هل لخير هذا الشخص أن تبتر له يد سارقة، ويَصلح بعد ذلك شأنه، أو تبقى اليد الفاسدة، فتفسد جميع الأعضاء؟ وعندما قال عزّ شأنه بهذا الصدد ﴿وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يشير ذلك بأن هذا العقاب من شأنه أن يُصلح السارق، ويجعله يتوقف عن السرقة، إن اتخذ العبرة. يقول الزجاج:(الْعَزِيز أصل ع ز ز فِي الْكَلَام الْغَلَبَة والشدة وَيُقَال عزني فلَان على الْأَمر إِذا غلبني عَلَيْهِ. - ويقول - : الحكيم من الرِّجَال يجوز أن يكون فعيلا فِي معنى فاعل وَيجوز أن يكون فِي معنى مفعل وَالله

حاكم وَحكِيم، فحكيم بمَعْنى مُحكم وَالله تعَالَى مُحكم للأشياء متقن لَهَا)[13] وصف الله هذه العقوبة بـ ﴿نَكَالاً مِّنَ اللّهِ﴾ أي يكون المُعاقب بهذا العِقاب الظاهري، عبرة جعلها الله ليرتدع بها السرّاق.

﴿٣٩﴾

﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

في الآية السابقة كان العقاب، الذي من شأنه أن يؤدّي إلى التوبة، وهناك تم ضبط السارق في سرقته، لكن هنا اختلف الأمر، فقد سرق، ثم ندم على ذلك، واعترف بين يدَي الله بـ ﴿ظُلْمِهِ﴾ ولم يكتف بذلك، بل ﴿وَأَصْلَحَ﴾وأول الإصلاح أنترفع ظلمك عن الناس، وتؤدي إليهم حقوقهم التي ظلمتهم فيها، وهنا يحدث كل هذا مع السارق من تلقاء نفسه بموجب التوبة بينه وبين ربه، دون أن ينكشف أمر سرقته، ﴿فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فهناك ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في العقاب بالنسبة لغير التائب، وهنا ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في المغفرة بالنسبة للتائب، وعقاب ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هناك من شأنه أن يؤدّي إلى توبة سارق لم ينكشف أمره بعد، كي يظفر بمغفرة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هنا. وما يجعل ذلك أكثر فعّالية أن العقاب هو ظاهري، أي يراه كل سارق لم ينكشف بعد، وكذلك كل شخص خطرت له فكرة السرقة. ثم أن الذي تقطع يده، كذلك يدخل في مغفرة الله ورحمته، عند إقامة الحدّ عليه، فيكون مثله مثل الذي لم يسرق.

﴿٤٠﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

الخطاب موجه للإنسان بصفة عامة، فاعلم أيها الإنسان ﴿أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾فلا أحد سواه يستطيع أن يتصرّف بهذا المُلك، أو يديره سوى المالك، فهو يملك أن ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾لبثت المشيئة مفتوحة، لكن كونه لايظلم أحداً، فلا يعذب دون ذنب، فهو يعذب المذنب على ذنبه، سواء أكان ذنباً صغيراً، أو كبيراً، فلا يغفره له، ويعذبه به إن شاء، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ لايأخذ المذنب بذنبه، بل يأخذه بمغفرته

[13] تفسير أسماء الله الحسنى ، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج
تحقيق: أحمد يوسف الدقاق

مهما كان هذا الذنب، صغيراً، أم كبيراً ، فهنا أنت أمام إنسان يمكن أن يلقى العذاب بذنب صغير، وأمام إنسان يعفو عنه الله ولا يعذبه وقد ارتكب ذنوباً كثيرة كبيرة، ﴿وَ﴾ اعلم أيها الإنسان بأن﴿**اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ يتبيّن لك هنا أن اليأس من رحمة الله لايكون في موضعه بأي حال من الأحوال، وأن الانسان لاغنى له عن الله، فمهما كان صالحاً، فإنه يكون قد ارتكب ذنباً ولو صغيراً، إن لم يكن قد ارتكب صغائر كثيرة، أو كبائر ليست كثيرة، وأنه لن يدخل الجنة إلاّ برحمة الله، ومغفرته له، ثم أن مرتكب الكبائر، يدخل ضمن ﴿**وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ**﴾ وهذا من شأنه ألاّ يجعل الناس يتكهنون، فيقولون: أن فلاناً في الجنّة، أو فلاناً في النار. فلعل الذي تراه قليل الذنب في النار، ولعل الذي تراه كثير الذنب في الجنة، وعلى ذلك فاعلم أنك لن تدخل الجنّة إلاّ إذا شاء لك الله أن تدخلها، واعلم أنك لن تدخل النار، إلاّ إذا شاء لك الله أن تدخلها ﴿**يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ**﴾ وهذا من شأنه أن يجعلك ساعياً إلى رضى الله، ومتجنّباً سخطه، فلعلك قدّمت عملاً صالحاً أرضى الله، فعفا لك عما قد سلف. ثم لعلك كنت في صلاح في شأنك، لكنك ارتكبتَ ذنباً، فلم يغفره الله لك، فدخلتَ النار. وهذا يعزّز لديك حالة التوكل على الله: اللهم اجعلنا ممّن تشاء أن تغفر لهم، ولا تجعلنا ممّن تشاء أن تعذّبهم.

الباب العاشـر

القسـط

﴿٤١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

الحزن هنا على الحالة الازدواجية التي يراها الرسول صلى الله عليه وسلم لدى هؤلاء﴿**الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ**﴾، فهذه الازدواجية تجعلهم في حالة تسارع إلى الكفر، وهذا أمر طبيعي كونهم غير مستقرّين، فهم في اللسان هنا، وفي القلب هناك، وتصادم هنا مع هناك يؤدّي إلى ردّ فعلٍ نفسي مضطرب، فكأنهم يتخبطون بالتسارع في الكفر﴿**قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ**﴾يبيّن الله﴿**لاَ يَحْزُنكَ**﴾ ما يبدر من هؤلاء يا محمّد. ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ هَادُواْ**﴾اليهود﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾يقولون الكذب على لسانك، بمعنى يُسمّعون الآخرين ما لم يسمعوه منك، وهم بنو قريظة﴿**سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ**﴾حيث جاؤوا من قِبل أهل خيبر الذين ﴿**لَمْ يَأْتُوكَ**﴾ ومجيؤهم إليك كي ﴿**يُحَرِّفُونَ**﴾يزوّرون﴿**الْكَلِمَ**﴾كلامك﴿**مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**﴾ ليتغيّر الحكم بذلك، فإذن جاء بنو قريظة بطلب من أهل خيبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كي يجد لهم مخرجاً لرجل وامرأة من أعوانهم وقد زنيا، لأن حكم الزنى في التوراة هو الرجم، فلعلهم يجدون ما هو أخف من ذلك من خلال إيجاد صيغة كاذبة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويُروى أن أهل خيبر قالوا:(إن هذا الرجل الذي بيثرب ليس في كتابه الرجم ولكنه الضرب، فأرسلوا إلى إخوانكم من بني قريظة فإنهم جيرانه وصلح له فليسألوه عن ذلك. فبعثوا رهطا منهم مستخفين وقالوا لهم: سلوا محمدا عن الزانيين إذا أحصنا ما حدهما؟ فإن أمركم بالجلد فاقبلوا منه، وإن أمركم بالرجم فاحذروه ولا تقبلوا منه، وأرسلوا معهم الزانيين فقدم الرهط حتى نزلوا

على بني قريظة والنضير فقالوا لهم: إنكم جيران هذا الرجل ومعه في بلده وقد حدث فينا حدث فلان وفلانة قد فجرَا وقد أحصنا، فنحب أن تسألوا لنا محمدا عن قضائه فيه، فقالت لهم قريظة والنضير: إذًا والله يأمركم بما تكرهون.

ثم انطلق قوم، منهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وسعيد بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدهما في كتابك؟

فقال صلى الله عليه وسلم: "هل ترضون بقضائي"؟ قالوا: نعم، فنزل جبريل عليه السلام بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به.

فقال له جبريل عليه السلام: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، ووصفه له.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هل تعرفون شابا أمرد أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا"؟ قالوا: نعم، قال:" فأي رجل هو فيكم"؟ فقالوا: هو أعلم يهودي بقي على وجه الأرض بما أنزل الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام في التوراة.

قال:" فأرسلوا إليه"، ففعلوا فأتاهم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " أنت ابن صوريا " ؟ قال: نعم، قال: "وأنت أعلم اليهود"؟ قال: كذلك يزعمون، قال:" أتجعلونه بيني وبينكم"؟ قالوا: نعم.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " أنشدك بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام وأخرجكم من مصر، وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذي ظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى، وأنزل عليكم كتابه وفيه حلاله وحرامه هل تجدون في كتابكم الرجم على من أحصن"؟

قال ابن صوريا: نعم والذي ذكرتني به لولا خشية أن تحرقني التوراة إن كذبت أو غيّرت ما اعترفت لك، ولكن كيف هي في كتابك يا محمد؟ قال: " إذا شهد أربعة رهط عدول أنه قد أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليه الرجم " ، فقال ابن صوريا: والذي أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله عز وجل في التوراة على موسى عليه السلام، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " فما كان أول ما ترخصتم به أمر الله"؟ ، قال: كنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فكثر الزنا في أشرافنا حتى زنا ابن عم ملك لنا فلم نرجمه، ثم زنى رجل آخر من الناس فأراد ذلك الملك رجمه فقام دونه قومه، فقالوا: والله لا ترجمه حتى يرجم فلان - لابن عم الملك - فقلنا: تعالوا نجتمع فلنضع شيئا دون الرجم يكون على الوضيع والشريف، فوضعنا الجلد والتحميم، وهو أن يجلد أربعين جلدة بحبل مطلي بالقار ثم يسود وجوههما، ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما، فجعلوا هذا مكان الرجم، فقالت اليهود لابن صوريا، ما أسرع ما أخبرته به، وما كنا لما أثنينا عليك بأهل ولكنك كنت غائبا فكرهنا أن نغتابك، فقال لهم: إنه قد أنشدني بالتوراة ولولا خشية التوراة أن تهلكني لما أخبرته، فأمر بهما

النبي صلى الله عليه وسلم فرجما عند باب مسجده، وقال: "اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه"، فأنزل الله عز وجل ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ** ﴾). فهؤلاء يُمتون بالخزي والفضيحة في الدنيا، أي يُصبحوا فيها مُهانين، ويُذكرون بسوء أعمالهم التي اقترفوها، ﴿**وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.

﴿٤٢﴾

﴿ **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾

جاء الوصف ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾ مكرراً في آيتين متتاليتين، وهذا يشير بأن الكذب استفحل فيهم، حتى غدا سلوكاً بالنسبة إليهم، فهم ﴿**سَمَّاعُونَ**﴾ أي باتوا يبتغون سماع الكذب، ويفضلونه على سماع الصواب، وسمّاع الكذب هو كذلك قائله، فتصديقه للكذب، هو كذب بعينه، فهو يميل أن يُكذَب عليه، وهو سمّاع للكذب، ومروّج له. ثم ﴿**أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ**﴾وجاءت على وزن﴿**سَمَّاعُونَ**﴾ فهم ﴿**سَمَّاعُونَ**﴾ يداومون على السماع﴿**أَكَّالُونَ**﴾ يداومون على الأكل، فكثر فيهم هذا إلى جانب كثرة ذاك، وهم في حالة تسارع إليهما، والسحت هو كل ما أتى من مال بشكل غير مشروع، مثل الربا، والوشاية، والسرقة، والاحتكار، والغصب، والغش. وهو غير صالح للتصدّق به، كون الله لايقبل الخبيث. رُوي عن ابن مسعود:(من شفع شفاعة ليردّ بها حقًّا، أو يرفع بها ظلمًا، فأهدِيَ له فقبل، فهو سحت).

وفي لسان العرب: (السُحْتُ والسُحْتُ: كلُّ حرام قبيح الذِّكر؛ وقيل: هو ما خَبُثَ من المكاسب وحَرُم فلَزِمَ عنه العارُ، والجمعُ أسْحاتٌ؛ وإذا وَقَع الرجلُ فيها، قيل: قد أسْحَتَ الرجلُ. والسُحْتُ الحرامُ الذي لا يَحِلُّ كسْبُه، لأنه يَسْحَتُ البركة أي يُذْهِبُها. وأسْحَتَتْ تجارته: خَبُثَتْ وحَرُمَتْ)[١٤]

﴿ **فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾

خيّر الله رسوله في حال مجيء اليهود إليه للحكم، لأن الأصل في مجيئهم هو الالتفاف حول شرع الله، وإيجاد مخارج للاعتداء على حدود الله كما الشأن بالنسبة للزاني والزانية مما سبق، ﴿**فَإِن جَآؤُوكَ**﴾ طوعاً رغم أنهم لم يدخلوا الاسلام، فلك الخيار، وأعطى الله ضمانة لرسوله بأنهم لن يتمكنوا من ضره إذا أعرض عنهم، لكن ﴿**إِنْ حَكَمْتَ**﴾وهذا لك من أحد الخيارين﴿**فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ**﴾ الذي يتساوى فيه الجميع دون أن يتميّز أحد في ميزان القسط على أحد، فمن له حق، حقّ له، ومن عليه حق، وجب عليه.

[١٤] لسان العرب، (سحت)

جاء في الحديث الصحيح: "أن المقسطين على منابر من نور عن يمين الله عزّ وجل، الذين يعدلون في أهليهم وما ولوا عليه"[15] وفي معجم مقاييس اللغة : (السين والحاء والتاء أصلٌ صحيح منقاس، رجلٌ مسحوت الجوف، إذا كان لا يشبَع، كأنَّ الذي يبلعه يُستأصل من جوفِه، فلا يبقى. المال السُحْت: كلُّ حرامٍ يلزمُ آكلَه العارُ؛ وسمّي سُحتاً لأنّه لا بقاء له،وأسحَت مالَهُ: أفسده)[16]

﴿٤٣﴾

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾

إن تصرّفهم هو تصرّف غير طبيعي، فما داموا لا يؤمنون بك، ويقولون بأنهم يؤمنون بالتوراة، فكيف بعد ذلك يتركون التوراة، و﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾ في أنفسهم، فهذا في ظاهره إيمان بك، لكنهم ليسوا كذلك، ولذلك بيّنت الآية ماهم عليه من إرباك وعدم استقرار، فإن بحثوا عندك عن ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ فإن ﴿التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ بيد أنهم﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ عن التوراة ﴿مِن بَعْدِ﴾ ما علموا﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ فاعلم يامحمّد أن ﴿أُولَٰئِكَ﴾ ليسوا ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ لابك، ولا بالتوارة.

﴿٤٤﴾

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

عندما اختار النبي صلى الله عليه وسلم أن يحكم على هذين الزانيين المحصَنين من أشراف بني إسرائيل، كان الحكم من ذات التوراة، وفي ذلك إشارة بأن يعودوا إلى التوراة، وأنه صلى الله عليه وسلم لايدعوهم للقطيعة عن التوراة، فهم الذين قاطعوا التوراة من تلقاء أنفسهم، وقد أعادهم النبي إلى توراتهم، فكأنه يقول لهم: إن لم تأتوني عن طريق التوراة، فسوف آتيكم عن طريق التوراة، لأن رسالتي الخاتمة لاتتناقض معها، كما أنها لا تتناقض مع رسالتي، فرسالتي هي الجزء المتمم للتوراة، والإنجيل. ولذلك نرى بأن الحكم الذي حكم به النبي من خلال التوراة بقي سارياً مفعوله على المسلمين أيضاً دون أن يرد في المصحف نص يقول بالرجم، لكن يعمل المسلمون به وفق السنّة. فقد أنزل الله ﴿التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ والإيمان بـ ﴿

[15] رواه أحمد (٣٦٧/٣) (١٤٦٩٦) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وابن حبان (٦٠٧/١١) (٥١٩٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما، والطبراني في الأوسط (٣٠٣/٧) (٧٥٦٥) عن عائشة رضي الله عنها، والبيهقي في السنن الكبرى (١١٥/٦) (١١٤٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[16] معجم مقاييس اللغة، (سحت) أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

﴿التَّوْرَاةَ﴾ من الإيمان بالقرآن، ولذلك عندما خرج أهل التوراة عنها، وجاؤوا إلى القرآن، أعادهم النبي إليها، لأن الإيمان بالقرآن لايكون دون الإيمان بالتوراة، ففي البدء عليهم أن يؤمنوا بالتوراة، ثم يؤمنوا بالإنجيل، ثم بالقرآن. ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى﴾يهدي الضال﴿وَنُورٌ﴾يستنير به الذي يكون في ظلمة من أمره ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾لعلهم أنبياء بني إسرائيل الذين جاؤوا بعد موسى وحكموا بموجب التوراة، ولعل ذلك يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم نظراً لأنه حكم بموجب التوراة على الزانيَين. قال الحسن والزهري وعكرمة وقتادة والسدي:(يحتمل أن يكون المراد بالنبيين الذين أسلموا هو محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم حكم على اليهوديين بالرجم، وكان هذا حكم التوراة، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً﴾ النحل ١٢٠ وذلك لأنه كان قد اجتمع فيه من خصال الخير ما كان حاصلاً لأكثر الأنبياء).

ثم﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾جمع رباني،الذين يجتهدون في العلم ويترسخون فيه، ويبيّنون للناس الأحكام الشرعية، ويتولّون أمورهم. كذلك ﴿وَالأحْبَارُ﴾جمع حبر، وهو العالم الفقيه المجتهد،

﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾حفظوا أصل الكتاب الذي لاتحريف فيه﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ يشهدون بالأصل الذي لم يمسه التحريف. وقد اعتمد النبي صلى الله عليه وسلم في حكمه على شهادة عالمهم /صوريا/ كما تبيّن. وحيث أن كل فترة تأتي بالتجدّد في الأحكام، فإن القرآن الكريم هو آخر التجدّد الذي لاتجدّد بعده، فيلبث دائم التجدّد بصفته ضم كمال الذين، وبصفة حامله خاتم الأنبياء والمرسلين، فالأحكام تتجدّد وتتطوّر منذ بدء الخليقة كما في شريعة الزواج، وهذا لم يقتصر على التوراة والإنجيل فحسب، بل يأتي إلى القرآن أيضاً، حيث يتعرض فيه شرع للنسخ من خلال شرع جديد حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من كمال الدين، وتمام نعمة الله على الناس.

يقول ابن سلامة: (أعلم أن الناسخ والمنسوخ في كلام العرب هو: رفع الشيء، وجاء الشرع بما تعرف العرب، إذ كان الناسخ يرفع حكم المنسوخ.

والمنسوخ في كتاب الله عز وجل على ثلاثة أضرب: فمنه: ما نسخ خطه وحكمه.

ومنه: ما نسخ خطه وبقي حكمه.

ومنه: ما نسخ حكمه وبقي خطه.

فأما ما نسخ حكمه وخطه: فمثل ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة تعدلها سورة التوبة، ما أحفظ منها غير آية واحدة: (ولو أن لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى إليها ثالثا، ولو أن له ثالثا لابتغى إليها رابعا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب).

وروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم آية، فحفظتها وكتبتها في مصحفي، فلما كان الليل رجعت إلى مضجعي فلم أرجع منها بشيء، وغدوت على

مصحفي فإذا الورقة بيضاء، فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: "يا ابن مسعود، تلك رفعت البارحة".

وأما ما نسخ خطه وبقي حكمه: فمثل ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لولا أكره أن يقول الناس: قد زاد في القرآن ما ليس فيه، لكتبت آية الرجم وأثبتها، فوالله لقد قرأناها على رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا ترغبوا عن آبائكم، فإن ذلك كفر بكم. الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالا من الله والله عزيز حكيم).

فهذا منسوخ الخط ثابت الحكم.

وأما ما نسخ حكمه وبقي خطه: فهو في ثلاث وستين سورة، مثل: الصلاة إلى بيت المقدس، والصيام الأول، والصفح عن المشركين، والإعراض عن الجاهلين)[١٧]

ثم قال:﴿فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ﴾في الأخذ بشريعتيلأنكم ستكونون ضعفاء أمامهم وأمام أنفسكم ﴿وَاخْشَوْنِ﴾لأن خشيتي ستجعلكم أقوياء أمامهم، وأمام أنفسكم﴿وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾

لأنكم مهما قبضتم نتيجة عدم تطبيق شريعتي، فإن ذلك سيكون، نظير ما تخسروه ﴿قَلِيلاً﴾ فلا جاه، ولا منصب، ولا منزلة، ولا مال يمكن له أن يعوضكم عمّا تمنون به من خسارة فادحة تصيبكم فمهما أجزلوا لكم العطاء، ورفعوكم في المنازل، كي لاتحكموا ﴿بِمَا أَنزَلَ اللّهُ﴾اعلموا أن ذلك يكون ﴿قَلِيلاً﴾ . لقد جاء ذلك على الذين أرادوا حماية الزانيَين من الرجم حتى يحصلوا منهما على مال، أو جاه، أو مناصب، وتبقى الآية مفتوحة للناس جميعاً، ولاتقتصر على هؤلاء، أو على قوم، أو زمن، فهي صالحة لكل مكان وأوان ولدى جميع ملل الناس ونِحلهم، كوننا الآن أمام القرآن، والخطاب هو ليس للذين مضوا، بل للذين سيأتون، وهو ليس لليهود فقط، أو للنصارى، بل للمسلمين أيضاً فالعالِم المقرّب من أولي الأمر يمكن له أن يخشى الناس ولا يخشى الله ويشتري بآياته﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾طمعاً في جاه، أو منزلة، أومال، فلعله يُصبح وزيراً، أو مفتياً للبلاد، أو ماشابه، أو يخاف على ما هو فيه من رغَد العيش، فيوجد مخرجاً لحاكم، أو لِمن هو محسوب عليه، ويحكم بما لم يُنزل الله، ويقبض بذلك ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ فكان تحذير الله شديداً﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. فقد أخرجه الله تعالى من ملة الإسلام، وجرّده من مزايا الإنسان المسلم، وجعله جمعاً مع الكافرين ليكون منهم وفيهم، فكما أن الهداية مفتوحة أمام الكافر ليُصبح مؤمناً، كذلك فإن الضلال مفتوح أمام المؤمن ليُصبح كافراً.

[١٧] الناسخ والنسوخ ، هبة الله بن سلامة بن نصر المقري، ط١
تحقيق: زهير الشاويش، محمد كنعان، المكتب الاسلامي، بيروت ١٤٠٤

﴿٤٥﴾

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فحكم الله موجود في التوراة، ولم يقتصر على رجم المحصَنين من الزناة فحسب، بل: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ وقد رأى بعض المفسرين ﴿وَكَتَبْنَا﴾ فرضنا.

يقول الجلالان في تفسيرهما:(﴿وَكَتَبْنَا﴾ فرضنا ﴿عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾أي التوراة (أن النفس) تقتل (بالنفس) إذا قتلتها

يقول البغوي في تفسيره:(ويعني بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا﴾، وفرضنا عليهم فيها أن يحكموا في النَّفس إذا قتلت نفسًا بغير حق

يقول القرطبي في تفسيره:(﴿وَكَتَبْنَا﴾ بمعنى فرضنا

يقول ابن عثيمين في تفسيره:(﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ كتبنا: أي: فرضنا، وكما قال تعالى في آية أخرى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ البقرة ١٨٣ فالكَتْبُ بمعنى الفرض).

بيد أن المعنى أقرب إلى رخّصنا، وهذا مختلف مع فرضنا، فالفرض يجب تنفيذه كونه فُرِض من الله، لكن هنا وضَعَ المجني عليه أمام خيارَين، فإن شاء نفّذ ﴿وَكَتَبْنَا﴾ وإن شاء ما نفّذها كون ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ﴾تنازلّ عن حقه في مضمون ﴿وَكَتَبْنَا﴾ عندئذ ﴿فَهُوَ﴾التنازل عن الحق﴿كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ونرى أن ذلك لايقاس على ما ورد بالتقارن مع ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ لأن الحق هناك خاص بالله، فالصيام لله، والإنسان القادر على الصوم لاخيار أمامه سوى أن يصوم، لكنك هنا لديك القدرة على تنفيذ ﴿وَكَتَبْنَا﴾ ، بيد أنك لوجه الله تصفح عن الجاني، ولذلك لعل المقارنة لاتكون متقاربة بين الآيتين، فنرى ﴿وَكَتَبْنَا﴾ بمعنى أذنّا، أو رخّصنا، فإن شئت، عملت بهذه الرخصة، وعاقبتَ بمثل ما عُوقِبت، وإن شئت، عفوتَ عن حقك تصدّقاً ﴿بِهِ﴾ بل ويُشجعك الله على التصدّق بتقديم التعويض الأفضل لك، لأنه جعل هذا الصفح ﴿كَفَّارَةٌ﴾لك مما اقترفت، أو لعل مما ستقترف أيضاً من ذنوب، ثم أنك تسببتَ في إعطاء فرصة جديدة للمُعتدي في الحياة الدنيا، وكذلك تسببتَ في عفو الله عنه في الآخرة، ولعل ذلك يحضه نحو الإصلاح، فيُصبح فرداً صالحاً في المجتمع، وينتفع الناس من أعماله الصالحة. روى عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من تصدق من جسده بشيء كفر الله تعالى عنه بقدره من ذنوبه".وأخرج أحمد، والترمذي، وابن ماجه، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من مسلم يصاب بشيء في جسده فيتصدّق به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة". فذلك معنى قول الله﴿وَكَتَبْنَا﴾ في مستهل هذه الآية والله أعلم بمراده، ثم قال:

﴿عَلَيْهِمْ﴾بني إسرائيل﴿فِيهَا﴾التوراة﴿أَنَّ﴾ قتل ﴿النَّفْسَ﴾الذي يقتل نفساً بغير حق سواء أكان القاتل أو المقتول رجلاً، أم امرأة، ﴿بِ﴾﴿قَتْلِ﴾﴿النَّفْسِ﴾﴿وَ﴾ فقئ﴿الْعَيْنَ﴾﴿بِ﴾فقئ ﴿الْعَيْنِ﴾﴿وَ﴾جدع ﴿الْأَنْفَ﴾﴿بِ﴾جدع﴿الْأَنْفِ﴾، ﴿وَ﴾قطع﴿الْأُذُنَ﴾﴿بِ﴾قطع ﴿الْأُذُنِ﴾﴿وَ﴾ قلع﴿السِّنَّ﴾﴿بِ﴾قلع﴿السِّنِّ﴾، ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾قص الجرح نظير الجرح. ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ﴾عفا عن حقه لوجه الله تعالى ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾يحتمل أن تكون الكفارة للمتصدّق العافي عن حقه، وكذلك للمعتدي لأن صاحب الحق تنازل له عن حقه، فحصل بذلك على كفّارة للذنب الذي ارتكبه، فالمُعتدى عليه يُجازيه الله نظير عفوه، والمُعتدي يعفو عنه الله، لأن المُعتدى عليه أسقط عنه حقه، وعفا عنه.

قال الإمام أحمد : (حَدّثنَا مُحَمّد بْن أبي عَدِيّ حَدّثنَا حُمَيْد عَنْ أَنَس بْن مَالِك أنّ الرُبَيّع عَمّة أَنَس كَسَرَتْ ثَنِيّة جَارِيَة فَطَلَبُوا إِلَى الْقَوْم الْعَفْو فَأَبَوْا فَأَتَوْا رَسُول اللّه صَلَى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَمَ فَقَالَ "الْقِصَاص" فَقَالَ أَخُوهَا أَنَس بْن النّضْر : يَا رَسُول اللّه تُكْسَر ثَنِيّةُ فُلَانَة، فَقَالَ رَسُول اللّه صَلَى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَمَ :"يَا أَنَس كِتَابُ اللّه الْقِصَاصُ" قَالَ فَقَالَ : لَا وَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَا تُكْسَر ثَنِيّةُ فُلَانَة. قَالَ فَرَضِيَ الْقَوْم فَعَفَوْا وَتَرَكُوا الْقِصَاص فَقَالَ رَسُول اللّه صَلَى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَمَ :"إنّ مِنْ عِبَاد اللّه مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللّه لَأَبَرّهُ "). وقد بدأ قوله تبارك وتعالى بـ ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ وهي نفس الإنسان مهما كان عمره، فلو اعتدى رجل على طفل ولد للتو سواء بالقتل، أو بغير ذلك من المذكور، يلقى الجزاء الذي نصّه الشارع في الآية، فالجميع يتساوى في ﴿النَّفْسَ﴾ رجل، امرأة، طفل، مجنون، مريض، عجوز.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾من تشريع﴿فَأُولَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأننا أمام شخصين، أحدهما المعتدي، والثاني المعتدى عليه، والحكم على الجاني ﴿بِمَا﴾لم ينزل الله يلحق ظلماً بالمجني عليه، ولذلك يكون هذا الحاكم الجائر ظالماً. ونهاية هذه الآية مطابقة لنهاية الآية السابقة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ والخلاف أن الكلمة الأخيرة هنا جاءت ﴿الظَّالِمُونَ﴾ وهناك ﴿الْكَافِرُونَ﴾ ذلك أن التجاوز هنا هو على حقوق الناس، والإنسان يظلم الإنسان، وهناك كان التجاوز على حقوق الله، والإنسان لا يستطيع أن يظلم الله، لكنه عند ذاك يكفر بالله، فهناك أصبح كافراً بالله، وهنا أصبح ظالماً للإنسان.

﴿٤٦﴾

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قفى الله آثار بني إسرائيل ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، والاقتفاء هو التتبع، أي قفى الله رسوله عيسى ابن مريم على آثار بني إسرائيل، مقرّاً لهم بالتوراة التي لم يمسها التحريف، فقال﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾أي التي بيّنها له الله في أصلها غير المحرّف، لا المحرّفة التي بين أيديهم ﴿وَ﴾لأننا أردنا أن نرسله بالجديد، وهو رسول جديد

﴿آتَيْنَاهُ﴾أنزلنا عليه﴿الإِنجِيلَ﴾ فقد آتاه الله ﴿ الإِنجِيلَ﴾ ليقوم بالتبشير به، فهو رسول الإنجيل ومبشره والداعي إليه، دون أن ينكر شيئاً ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ﴾﴿وَ﴾بذلك فإن

﴿ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾يهدي إلى وحدانية الله الذي لا شريك له﴿وَمَوْعِظَةً﴾ فيه النصح، والإرشاد، والوعظ البليغ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم ينتفعون بهذه المنافع الكامنة فيه، ويزدادون تقوى. أمّا غير المتقين، فلا يصيبهم شيء مما يحتويه من سائر هذه المنافع. فجاء ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾ قبل ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأن القلوب أولاً تهتدي من هديه، وتستنير من نوره، ثم تصبح مؤهلة وقابلة لتلقي الموعظة، لأنها عند ذاك تصبح تقية.

﴿٤٧﴾

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

حتى لا يقتدي ﴿أَهْلُ الإِنجِيلِ﴾ بالذين يتبعون التحريف من أهل التوراة، عليهم أن يحكموا ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ وليس بالتحريف، فهذا ﴿الإِنجِيلِ﴾ هو تصديق ، كما أنه مبشّر بخاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أصبحنا أمام قول الله ثلاث مرات: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ﴾ ففي الأولى: ﴿الْكَافِرُونَ﴾ وفي الثانية ﴿الظَّالِمُونَ﴾ والثالثة ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ فالحكم بغير ما ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يؤدّي إلى الكفر، والظلم، والفسق.

الباب الحادي عشـر

الاختبار

﴿٤٨﴾

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

بعد أن بيّن الله لرسوله عن نزول التوراة، والإنجيل، وأن الإنجيل هو تصديق للتوراة، أخبره: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ**﴾يا محمد﴿**الْكِتَابَ**﴾القرآن﴿**بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً**﴾موافقاً﴿**لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾يتضمّنه﴿**مِنَ الْكِتَابِ**﴾التوراة، والإنجيل لأن تصديق الإنجيل للتوراة كما لو أنه جعلهما كتاباً واحداً﴿**وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ**﴾ وتصديق القرآن يجعل الرسالات الثلاث كتاباً واحداً، هذا ﴿**الْكِتَابَ**﴾ الذي يحتوي على ما ورد في التوراة، والإنجيل، ويتم فيه العمل بتلك الإحكام بموجب التصديق ﴿**وَ**﴾ هذا ما يجعله﴿**مُهَيْمِناً عَلَيْهِ**﴾ كون الأحكام فيه تتحدّث، فكما أن الإنجيل تحدّثت فيه الأحكام، فالقرآن حدّث الأحكام، ونسخ ما انقضى وقت العمل به وفق حكمة الله من التدرّج في أحكامه، وبذلك فقد أصبح أصل الناسخ والمنسوخ في الرسالات الثلاث، وإليه ترجع الأحكام، فما ينسخه، فهو منسوخ، وما يقرّه فهو مُقرّ به من الله مُنزل الرسالات الثلاث، فهو بذلك الحافظ، والشاهد، والأمين على التوراة، والإنجيل، وهو يمتلك مقوّم أن يحكم، ولا يُحكم، ينسخ، ولاينسخ، يُهيمِن، ولايُهَيمَن، ولايوجد بعده كتاب، ولايوجد بعده حكم:﴿**هُوَ اللّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾الحشر٢٣ ، يقول الزجاج في تفسيره لأسماء الله الحسنى: (﴿**الْمُهَيْمِنُ**﴾ يُقَال إِنَّه الشَّاهِد تقول فلَان مهيمنى على فلَان إِذا كَانَ شَاهِدي عَلَيْهِ، وَقَالَ مُحَمَّد بن يزِيد تخاصم أعرَابيَّانِ إِلَى عمَارَة بن عقيل بن بلَال بن جرير فِي بعض الْأَمر فَقَالَ لأحَدهمَا أَلَك مهيمن فَقَالَ مهيمني حِجَارَة اللابَة وَيُقَال إِن ﴿**الْمُهَيْمِنُ**﴾ الرَّقِيب الْحَافِظ وَيُقَال بل الْمُهَيْمِن أَصله المؤيمن فأبدلت الْهمزَة هَاء كَمَا قَالُوا هرقت المَاء وأرقته وهنرت الثَّوْب وأنرته وهرحت الدَّابَّة وأرحتها وهياك وَإِيَّاك

وَقَالَ بَعضهم ﴿**الْمُهَيْمِنُ**﴾ اسْم من أسمَاء الله تَعَالَى وَهُوَ غير مُشْتَق)[١٨] القرآن هو رسالة الكمال في الدين، وبذلك يمتلك الهيمنة على ما سبق، ولايمسه تحريف:﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون**﴾ الحجر ٩

[١٨] تفسير أسماء الله الحسنى ، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج.

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ﴾

إذا حاكمك أهل الكتاب يامحمّد ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ لم يقل القرآن، كونه أصبح حاكماً على كل ما ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾والقرآن أصبح ﴿مُهَيْمِناً﴾ على كل ما﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾من قبله ﴿وَ﴾على ذلك ﴿لاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ﴾أهل الكتاب﴿عَمَّا جَاءكَ﴾سطع عليك﴿مِنَ﴾نور﴿الْحَقِّ﴾ الهوى هو نقيض الهدى، فاتباع الحق، هدى، واتباع الباطل هوى، فأرادوا للرسول صلى الله عليه وسلم أن يتبع﴿أَهْوَاءهُمْ﴾سواء في الحكم على الزانيين المُحصَنين، أو في غيرهما، فهؤلاء يتبعون الأهواء. على هذا النحو، يُعلّم الله رسوله، ويبيّن له الحق حتى ﴿لاَ﴾يـ ﴿تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ﴾، فقبل نزول الوحي: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾الشورى ٥٢،﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ النساء١١٣بنزوله. وهذا بيان للناس بأن العلم والحق يكمنان في القرآن، والاّ يتبعوا أهواء بعضهم البعض، وأن تكون الأحكام ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾. ثم قال:﴿لِكُلٍّ﴾التنوين هنا جاء عوضاً عن كلمة محذوفة، ولعل المحذوف أمّة﴿جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾جعل الله لكل أمة ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الناس شريعة عادلة، وصراطاً مستقيماً ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾دون أن يجعلكم أمماً ﴿لِكُلٍّ﴾منها شريعتها ومنهاجها﴿وَلَكِن﴾شاء الله أن يجعلكم أمماً، كل أمة تتميّز عن غيرها بالشرائع، والسنن، وفي ذلك يكون التجدّد، فلو اتبع الناس جميعاً شريعة واحدة، ومنهاجاً واحداً، لكان أبناء كل حقبة زمنية تكراراً لِما مضى، لكن كل أمة بما أنها جديدة، فلها شرائعها، وسننها الجديدة ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾البلاء هنا بمعنى الاختبار، فمن خلال هذه الشرائع والسنن المختلفة يختبركم الله ﴿فِي مَا آتَاكُم﴾من هذا التنوّع والغِنى،﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾الاستباق هو التقدّم، ففي التسابق يتقدّم المجتهد على غيره، تبادروا في العمل الصالح، وتقدّموا فيه، ويتبيّن هنا أن الأولوية لفعل الخير هي للتعجيل، وليست للتأجيل، فمن أراد أن يعمل خيراً، فليسرع في عمله، ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ اجعلوا أنفسكم في تسابق إلى فعل ﴿الْخَيْرَاتِ﴾وانتهزوا الفرص، ثم أن المتسبّق يسن سنّة لغيره، فقد يقتدي به آخرون في فعل الخير، فيكون هو الذي سنّ هذه السنّة الحسنة باستباقه إلى فعلها.

وقد جاءت ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ جمعاً للخير، وذلك يعني أن أبواب الخير كثيرة، ويمكن للمرء أن يفعل خيرات كثيرة في يوم واحد، بل في ساعة واحدة. تجعلك الآية أن تكون حريصاً على فعل الخير في كل وقت من أوقاتك، وقوله ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أي هي متواجدة، ومتوافرة، ولايحتاج الأمر سوى العزيمة منكم، ففي الصباح عندما تفتح عينيك في الفراش، يمكنك أن تفعل خيراً بفعل أي شيء طيب في البيت، تؤمّن الطعام لعيالك، تقضي لهم حاجاتهم، وعندما تخرج، يفرح برؤيتك الجوار، فتلقي عليهم السلام، وتجيب على سلامهم، وفي العمل تيسّر في بيعك، وفي شرائك، تقدّم عملاً متقناً ينتفع به الناس. إن وجدتَ أذى على الطريق، ازحته، ابتسمت في تعاملك مع الناس، فرّجت كرباً عن مكروب، نفّست همّاً عن مهموم، قضيتَ حاجة سائل، أصلحتَ بين شخصين متخاصمَين، ذهبتَ إلى عريس وباركتَ له زواجه، عدتَ مريضاً، أرشدتَ شخصاً عن مكان سألك عنه، زرعتَ بذرة، سقيتَ شجرة، أخرجتَ حيواناً من ضائقة ألمّت به. فإلقاء السلام، والرد عليه

خير، وإماطة الأذى عن الطريق، هو فعل خير، التيسير في البيع والشراء، خير، تبسّمك في وجه أخيك خير، وضعك اللقمة في فم زوجتك، أو أبنائك، خير، تفريج كرب عن مكروب، خير، تنفيس هم عن مهموم خير، قضاء حاجة سائل، خير، صلحك لشخصين متخاصمّين، خير، ذهابك لمباركة زواج، خير، عيادتك لمريض، خير، إرشادك لشخص، خير، زرعك لبذرة، خير، سقيك لزرع خير، إنقاذك لحيوان، خير، فتكون في فعل خير حتى تعود إلى فراشك للنوم، وعندذاك أيضاً يمكن لك أن تفعل خيراً، بأن تختلي بزوجتك، تلاطفها، وتأتيها، فإن إتيانك لزوجتك هو فعل خير، واستجابتها لرغبتك، هو فعل خير لها. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال:"أرأيتم إن وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال، كان له بها أجر".

وفي الحديث القدسي أن الله يقول: "يابن آدم مرضتُ فلم تعدني" ، يقول:

يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين!

يقول: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما أنك لو عدته لوجتني عنده ".

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من عاد مريضا ، أو زار أخا له في الله، ناداه مناد : أن طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منزلا "[19]

وروى الأمام البخاري في / التاريخ الكبير / والنسائي وغيرهما عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : " أدخل الله عز وجل الجنة رجلا كان سهلا مشتريا وبائعا ، وقاضيا ومقتضيا "[20]

وفي صحيح مسلم أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه ، إذا أتيت معسرا فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه "[21]

ويقول صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام"[22]

ويقول:"من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار"

ويقول: "من كظم غيظا، وهو يستطيع أن ينفذه ، دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ، حتى يخيره في أي الحور شاء"

---

[19] رواه الترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٦٣٨٧

[20] سلسلة الأحاديث الصحيحة ١١٨١

[21] شرح صحيح مسلم للنووي ١٠/ ٤٨٥

[22] رواه ابن ماجه وغيره، صحيح سنن ابن ماجه ١٠٩٧

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" بينما رجل يمشي بطريق ، وجد غصن شوك على الطريق ، فأخره ، فشكر الله له فغفر له "

روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحصنت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها: أدخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت "[٢٣]

خرج أبو يعلى في مسنده عن أنس قال :(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من كن له ثلاث بنات ،أو ثلاث أخوات، فاتقى الله وأقام عليهن كان معي في الجنة هكذا:،وأومأ بالسبابة والوسطى)[٢٤]

عن أنس بن مالك قال:(بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة "

فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته ماء من وضوئه معلق نعليه في يده الشمال فلما كان من الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة "

فطلع ذلك الرجل على مثل مرتبته الأولى فلما كان من الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة "

فطلع ذلك الرجل على مثل مرتبته الأولى فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاصي فقال إني لا حيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاث ليال فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تحل يميني فعلت فقال نعم قال أنس فكان عبد الله بن عمرو بن العاصي يحدث أنه بات معه ليلة أو ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل بشيء غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر فيسبغ الوضوء قال عبد الله غير أني لا أسمعه يقول إلا خيرا فلما مضت الثلاث ليال كدت أحتقر عمله قلت يا عبد الله إنه لم يكن بيني وبين والدي غضب هجرة ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك ثلاث مرات في ثلاث مجالس

"يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة "

فطلعت أنت تلك الثلاث مرات فأردت آوي إليك فأنظر عملك !

---

[٢٣] صحيح الجامع ٦٦٠

[٢٤] سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٩٥

فلم أرك تعمل كبير عمل فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما هو إلا ما رأيت فانصرفت عنه فلما وليت دعاني فقال ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي غلا لأحد من المسلمين ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه

قال عبد الله بن عمرو هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق)

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال:" قل آمنت بالله ثم استقم "[٢٥]

عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم : " اضمنوا لي ستا من أنفسكم اضمن لكم الجنة ، اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم "[٢٦]كل عمل صالح هو إحراز لـ ﴿الخَيْرَاتِ﴾ لأنكم سترجعون بأممكم المختلفة ﴿إِلَى اللهِ﴾الذي هو﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾وذلك زيادة في الترغيب لإحراز الاستباق إلى فعل ﴿الخَيْرَاتِ﴾فالله هنا يُذكّر الجميع بمرجعهم إليه كي ينبئهم ﴿بِمَا﴾ كانوا ﴿فِيهِ﴾بـ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾. وكلمة ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾فيها وعدٌ، ووعيد، والوعيد هو تعزيز للوعد، وترغيب فيه.

[٢٥]رواه مسلم، شرح صحيح مسلم للنووي ٣٦٧/٢

[٢٦]رواه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٤٧٠

الباب الثانـــي عشــر

حكم اللــه

﴿٤٩﴾

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾

إن مثل هذا التجدّد في القول، يُذيقك شهد عسل القراءة، فلا تملك سوى أن تستلذ بتلقي الكَلِم القرآني، ولا يملك صدرك سوى أن ينشرح، ولا تملك مسامات جسدك سوى أن تتفتح، ولا يملك قلبك سوى أن يخفق خفقات إيمانية لم يخفقها من قبل. عندئذ يدركك شعور بأن لا تكرار في القرآن، وأن كل إعادة لكلمة، أو جملة، فإنها ترد بكل مقوّمات الجديد، وليس هذا فحسب، بل كل إعادة قراءتك للكلمة، أو الجملة المعادة، تقدّم لك شيئاً جديداً لم تقدّمه في أي قراءة سابقة، ثم ترى أن ذلك يشمل جميع آي التنزيل الحكيم، فمهما تعدّدت القراءات، ومهما ختمت، فإنك مع كل قراءة جديدة، تشعر بأنك تقرأ كتاباً جديداً، لأن كل قراءة تمتلك مقوّم أن تعلّمك شيئاً جديداً، بل حتى لو وجدت آية مكتوبة على قصاصة، أو على دفتر، أو على لائحة ما، فإن قراءتك لها تجعلك في مشاعر بأنك تقرأ آية جديدة، لأنك تلمس فيها نوراً لم تلمسه من قبل، ذلك أنه نور ﴿**فَالِقُ الإِصْبَاحِ**﴾ الأنعام ٩٦

يقول الله لرسوله: ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ**﴾ وقد جاء الأمر في مبتدأ الآية، بينما في السابقة فقد جاء ضمن سياق: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ**﴾

ثم بعد تكملة الآية، يُعاد الكلام باختلاف في الكلمة الأولى فورد هنا ﴿**وَأَنِ احْكُم**﴾وهناك﴿**فَاحْكُم**﴾

وتتعرّف على أمر جديد هنا وهو ﴿**وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ**﴾ التحذير هنا هو التنبيه لعدم الوقوع في الخطأ،﴿ **لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين**﴾ يونس ٨٥﴿ **لا تجعلنا فتنة للذين كفروا**﴾ الممتحنة ٥ فالحذر هو التدقيق، والتأكّد لأن هؤلاء يريدوا ﴿**أَن يَفْتِنُوكَ**﴾فالنبي صلى الله عليه وسلّم لايعصى الله من أجل إرضاء أحد كائناً مَن كان وهو القائل: " فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيف تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيف أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدّ وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَة بِنْت مُحَمَّد سَرَقَتْ لَقَطَعْت يَدهَا "﴿**وَاحْذَرْهُمْ** ﴾يا محمد﴿**أَن يَفْتِنُوكَ**﴾ يجعلوك بكلامهم أن تخطئ، أو تنسى، فكن على حذر منهم، ولا تدعهم يتحايلوا عليك، لأنهم يبتغون أن يصدّوك، ويضلّوك

عمّا أنزل الله عليك بالنسبة للأحكام التي يريدون أن تحاكمهم فيها. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾لم يرضوا﴿بِمَا أَنزَلَ اللّهُ﴾و﴿تَوَلَّوْاْ﴾عن الحق﴿فَاعْلَمْ﴾يا محمّد﴿أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ذنوب ارتكابهم المعاصي، وذنوب توليهم عن الحق ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ يتولون عن الحق، وفي ذلك عودة مستأنفة إلى الآية ٤١ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ فلا تحزن لأن هؤلاء ليسوا أول مَن يتولى ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ فمهما سعوا إلى تضليلك، لا تجعلهم يحققوا مبتغاهم منك، وكن حذراً منهم﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾النحل١٢٥

﴿٥٠﴾

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

يريد هؤلاء البقاء على جاهليتهم دون أن يتحاكموا ﴿بِمَا أَنزَلَ اللّهُ﴾ ففي الجاهلية يتميّز الناس عن بعضهم البعض في تلقي الأحكام، والحكم على الغني لايكون كالحكم على الفقير، والحكم على الوجيه، لايكون كالحكم على غيره رغم أن الخطيئة واحدة، فالحدود تقام على الضعفاء والفقراء، وينجو منها الأقوياء، والأغنياء. قال مقاتل: (كانت بين قريظة والنضير دماء قبل أن يبعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام، فلما بعث تحاكموا إليه، فقالت بنو قريظة: بنو النضير إخواننا، أبونا واحد، ودِيننا واحد، وكتابنا واحد، فإن قتل بنو النضير منا قتيلاً أعطونا سبعين وسقاً من تمر، وإن قتلنا منهم واحداً أخذوا منا مائة وأربعين وسقاً من تمر، وأروش جراحاتنا على النصف من أروش جراحاتهم، فاقض بيننا وبينهم، فقال عليه السلام: "فإني أحكم أن دم القرظي وفاء من دم النضري، ودم النضري وفاء من دم القرظي، ليس لأحدهما فضل على الآخر في دم ولا عقل، ولا جراحة"، فغضب بنو النضير وقالوا: لا نرضى بحكمك فإنك عدو لنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾).

وكلمة:﴿أَفَحُكْمَ﴾ تبث شعوراً بالعجب مما يصرّ عليه هؤلاء بالبقاء في ظلمات الجهل، ورفضهم النور الذي أتى من الله، ففي الظلمات جور وغموض، وفي النور عدل ووضوح، وهل الظلمة أفضل من النور، والجور أفضل من العدل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً ﴾ فمهما سنّ الإنسان من أحكام، لن يكون بوسعها أن تكون ﴿أَحْسَنُ مِنَ﴾أحكام ﴿اللّهِ﴾ فيبيّن الله بأنه لايوجد ﴿أَحْسَنُ﴾ منه ﴿حُكْماً﴾ مهما ابتدعتم من أحكام، واردتم أن تستبدلوا بها أحكام الله، فذلك لا يكون لنفعكم، بل يزيد تفاقم الجنايات، والاعتداءات، والمخالفات، والأوبئة فيكم، لأن حكم الله هو الأحسن﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يبلغون اليقين بأنه الأحسن، فيعملون به.

﴿٥١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

لاتجعلوا مصائركم، ومحاكماتكم، وإدارة شؤونكم تحت ولاية ﴿الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى﴾لأنهم لن يكونون موالين لكم، فـ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾، فهم سينظرون إليكم على أنكم لستم منهم، ولن يكونوا عادلين معكم في ولايتهم عليكم، ولعل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تعني ﴿الَّذِينَ﴾ أسلموا وآمنوا من أهل الكتاب بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، إضافة إلى ما تعنيه من المسلمين ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾فإن خروجك عن ولاية المؤمنين، وأخذك لغيرهم أولياء، يعني بأنك لاترضى بحكم المؤمنين، وتفضّل ولاية غيرهم، ولذلك قال الله﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ لأنك شيئاً فشيئاً ستخرج عن جميع أحكام وأعراف وسنن الإسلام لتستبدلها بما لدى ﴿الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى﴾وبذلك تصبح ممّن قال فيهم عزّ اسمه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ ثم تخرج عن هداية الله، ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ كونك جنحت إلى الظلم.

قال جابر بن عبد الله: (جاء عبد الله بن سلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن قومنا قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا، فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء).

الباب الثالث عشـر

مـرض القلوب

﴿٥٢﴾

﴿ فترَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾

هذا شكل من أشكال عقيدة الاستقواء، والاستحماء بهم استنادا إلى ما ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾من﴿مَّرَضٌ﴾ فالمؤمن لايكون قوياً إلاّ بالمؤمن، ولايكون مَحمِياً إلاّ بالمؤمن، فإن رأيتَ شيئاً من التآزر، فإنما ذلك لمصلحة آنية، فترى بعد حين مصلحة أخرى تجعلهم ينقلبون على مَن آزروهم، فهم يقفون على مبدأ أنه لاتوجد صداقات دائمة، ولكن توجد مصالح دائمة، وهذا لايمت إلى روح الإنسانية، ولا إلى روح الإخلاص بشي، فهؤلاء ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾يتبارزون في الذهاب إليهم.

قيل أن ذلك جاء في المنافقين، فقد لبثوا على علاقة مع اليهود ونصارى نجران، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم سينتصرون على النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾وبذلك يبقون محافظين على العلاقة معهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (معناه نخشى أن لا يتم أمر محمد فيدور الأمر علينا). وقيل:(نخشى أن يدور الدهر علينا بمكروه من جدب وقحط فلا يعطونا الميرة والقرض).

قال الواحدي: (الدائرة من دوائر الدهر كالدولة، وهي التي تدور من قوم إلى قوم، والدائرة هي التي تخشى، كالهزيمة والحوادث الخوفة، فالدوائر تدور، والدوائل تدول).

فالمؤمن يتوكل على الله، ويكون واضحاً في مولاته، ويبقى متمسكاً بإيمانه مع المؤمنين في اليسر، والعسر، وأما المرض الذي هو نفاق وشك، فيجعلهم يكونون مع المؤمنين في يسرهم، وعليهم في عسرهم، فيكونون حيثما تقضي المنفعة الدنيوية دون ثوابت يثبتون عليها، فهم أناس بلا مواقف، وقد وصف الله الذي في قلوبهم بالمرض، وهو مرض الإغراء بالدنيا، والمرض في هذا المقام، هو حصولك على شيء بطريق غير مشروع، أي تلتف، وتدور حتى تختلسه لنفسك سراً وهو خلاف مرض البدن، كقوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ البقرة ١٨٤ وانظر هنا إلى مفرزات مرض القلب هذا: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً﴾البقرة١٠﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾التوبة١٢٥﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾الحج٥٣﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴾الأحزاب٣٢

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾محمد٢٩ ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾المدثر٣١

المرض هنا في القلب، لأنه مكمن الصلاح، ومكمن الفساد، ولذلك فإن الإيمان يبدأ من القلب، وأن صلاح الإنسان يبدأ من قلبه.فالإنسان هنا مسؤول عمّا يبدر منه نتيجة هذا المرض، لأنه هو الذي يجعل هذا المرض في قلبه، فلم يقل الله الذين في عقولهم مرض، لأن مرض العقل، لايتحمّل الإنسان مسؤوليته، كونه مفروض عليه، والمرض هنا قد أصاب العقل، خلاف القلب، لأن العقل معه يبقى سليماً، بل أن العقل هو الذي يعزّز هذا المرض كون مريض القلب هو شخص به استكبار، واستعلاء، وهو يدرك ما الذي يفعله، ويتقعّد ذلك بغية الحصول على مآرب، في حين أن مريض العقل هو شخص غير مسؤول عن تصرفاته، كونها تصدر عن شخص أصيب بعطب في عقله: مثل الفصام، أو الزهايمر، أو الخرف، أو فقدان الذاكرة،أو بعض الوسواس القهري، حيث يُصبح المر في شيء من الهلوسة، وهذا ما يُقال عنه / المرض النفسي/ كونه ناجم عن عطب أصاب العقل، وترك أثراً على الجملة العصبية، فهو شخص غير منضبط عقلياً، ونفسياً، وهذا يكون بالنسبة للمجنون، والأحمق، فهؤلاء ليسوا مرضى القلوب، ولذلك يمكن لهم أن يتلقوا العلاج، لكن مريض القلب، لايحتاج إلى علاج، لأنه يعي ويدرك ما الذي يفعله.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾بمعنى لعل، وذلك يبث أمل الفتح في نفوس المسلمين، والله لايخيّب الأمل به، خاصةوأنه جعل هذا الأمل بقوله ﴿فَعَسَى﴾ وهذا يعني أن المسلمين ينتظرون تحقيقه في كل زمان ومكان، وقد تحقق في أزمنة مختلفة، مثل فتح مكة، والفتوحات الإسلامية في مختلف أنحاء الأرض، وتحقيق دولة الاسلام، والحكم وفق ما جاء في القرآن، وانتشار الإسلام في كل بقاع الأرض، فنرى أن لكل زمن فتوحاته، وكذلكنرى بعض الإخفاقات في بعض الأزمنة، لكن يبقى سريان﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾متواصلاً وممكناً لأبناء كل زمان ومكان، ودوماً ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ أي النصر، والفرج، ثم أن ﴿فَعَسَى﴾ تحفز على العمل، والدأب، فإن جاء ﴿يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾دون﴿فَعَسَى﴾ لعل ذلك جعل البعض دون عمل ودأب كون الوعد قاطع، لكن هنا عليك أن تعمل، وتتأمّل خيراً من الله، حتى﴿يَأْتِيَ﴾ ك﴿اللَّهُ﴾﴿بِالْفَتْحِ﴾ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾القصص٦٧ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾التحريم٨فاعلم أن﴿عَسَى﴾الله تختلف عن عسى الناس، فإن الله قادر على تنفيذ عساه في كل الأحوال، لكن الإنسان لايقدر على تنفيذ الـ ﴿عَسَى﴾ إلاّ إذا يسر له الله ثم أنه يأمل بـ ﴿عَسَى﴾ الله : ﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ﴾الكهف٤٠ ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾القلم٣٢ ،﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ﴾القصص٢٢

ويخاطب الله رسوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾الإسراء٧٩ ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾الكهف٢٤

ثم جاء ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾مثل كشف أمر المنافقين للعيان، عندذاك﴿ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ لأنهم لم يصبروا في الشدائد، ولم يكونوا أصحاب مواقف، ولم يحسنوا الظن بالله. ثم أن ما يصيب المسلمين من خصب وسعة، لاينالهم منه شيء.

﴿٥٣﴾

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾

هنا يتحقق فتح الله، ويتحقق الأمر الذي ﴿مِّنْ عِندِهِ﴾ وهذا ما يؤدّي إلى كشف أمر المنافقين بـ ﴿مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾، فيكون ذلك مدعاة للتعجب من المؤمنين الذين يُفاجَؤون بازدواجية هؤلاء الذين كانوا فيهم، ويقولون بأنهم معهم، وبغتة أظهر الله حقيقة ما يكتّون،عندئذ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾لبعضهم البعضبتعجب: ﴿أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ كانوا فينا ويقسمون بأغلظ الإيمان ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ وقد قُرئت بثلاث قراءات ﴿وَيَقُولُ﴾ بالرفع، ثم ﴿وَيَقُولَ ﴾بالنصب ثم﴿يَقُولُ﴾ دون واو: ﴿أَهَؤُلاء ﴾ الذين كنا نرى أننا نعقد عليهم الآمال بأنهم قوة لنا، فتبيّن بأنهم اندسوا في صفوفنا شكلاً، وموالاتهم، وقلوبهم مع أعدائنا! ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ والظاهر أن هذا استئناف لقول الله في مبتدأ الآية، أصبح قول المؤمنين وسط قولي الله تبارك وتعالى، لأن المؤمن لايستطيع أن يقول ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ فما أدراه، وعليه فإن الله يُخبر بأنه قد﴿حَبِطَتْ﴾فقدت﴿أَعْمَالُهُمْ﴾تقديم النفع إليهم، وذهبت سدىلأنها كانت مبنيّة على النفاق والخداع حتى يصدّقهم المؤمنون فيما يقولون ويدّعون والأعمال تشمل كل ما يقوم المنافقون به من صلاة، أو صيام، أو صدقة، وما إلى ذلك مما هو منصوص في الإسلام،﴿يُرَاءونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ النساء١٤٢، وهم على العموم ﴿أَشِحَّةً عَلَى الخَيرِ﴾الأحزاب ١٩، فالنفاق جلب على ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾الإحباط ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ في الدنيا كونهم تعرضوا للفضيحة، وفي الآخرة جزاء نفاقهم.

﴿٥٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

دخول الدين بذاته، هو منّة من الله على الإنسان، ولذلك فعلى الإنسان أن يشكر ربه على دخول الإسلام، وألاّ يحرمه نعمة الإيمان، وألاّ يجعل مصيبته في دينه، فالارتداد عن الدين لايضر الله شيئاً، بل هو خسارة

للمرتدّ في الدنيا والآخرة، خسارة لايمكن التماس تعويضها بأي حال من الأحوال فـ ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ بعد أن أنعم الله عليه بنعمة الإيمان، ودخول ملّة الإسلام، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾

هذا بيان من الله لعموم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾بأن الإسلام سيبقى قوياً بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك في مختلف الأوقات، ومهما ارتدّ الناس عن الإسلام، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ليبقى الإسلام قوياً، ولايتعرض للوهن. ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ محمد٣﴾﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ إبراهيم١٩، ٢٠ فهؤلاء﴿يُحِبُّهُمْ﴾الله﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾﴿يُحِبُّهُمْ﴾ بأن منحهم هذا الفضل، ميّزهم بهذه الميزات، ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ فيخلصون في القول والعمل. يذكر ابن القيم الجوزية تسعة أعمال في محبة العبد لربه:

(أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد منه.

الثاني : التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ، فإنها توصله إلى درجةالمحبوبية بعد المحبة.

الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى .

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة،

فإنها داعية إلى محبته .

السابع: وهو من أعجبها، انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية ثم ختم ذلك بالاستغفار.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم).

يُروى :(أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قبض ارتد عامة العرب إلا أهل مكة والمدينة والبحرين من عبد القيس، ومنع بعضهم الزكاة، وهمّ أبو بكر رضي الله عنه بقتالهم فكره ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وقال عمر رضي الله عنه: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل " فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : كرهت الصحابة قتال مانعي الزكاة وقالوا: أهل القبلة، فتقلد أبو بكر سيفه وخرج وحده، فلم يجدوا بدا من الخروج على أثره. قال ابن مسعود: كرهنا ذلك في الابتداء ثم حمدناه عليه في الانتهاء.

قال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا حصين يقول: ما ولد بعد النبيين مولود أفضل من أبي بكر رضي الله عنه، لقد قام مقام نبي من الانبياء في قتال أهل الردة).

ويروى أنه:(ارتد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث فرق:

منهم /بنو مذحج / ورئيسهم ذو الخمار، عبهلة بن كعب، العنسي، ويلقب بالأسود، وكان كاهنا مشعبذا فتنبأ باليمن واستولى على بلادها، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل ومن معه من المسلمين، وأمرهم أن يحثوا الناس على التمسك بدينهم، وعلى النهوض إلى حرب الأسود، فقتله فيروز الديلمي على فراشه، قال ابن عمر رضي الله عنه فأتى الخبر النبي صلى الله عليه وسلم من السماء الليلة التي قُتل فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قتل الأسود البارحة قتله رجل مبارك " ، قيل: ومن هو؟ قال: " فيروز، فازفيروز " فبشر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بهلاك الأسود، وقبض صلى الله عليه وسلم من الغد؛ وأتى خبر مقتل العنسي المدينة في آخر شهر ربيع الأول بعدما خرج أسامة وكان ذلك أول فتح جاء أبا بكر رضي الله عنه.

والفرقة الثانية: بنو حنيفة باليمامة، ورئيسهم مسيلمة الكذاب، واسمه /ثمامة بن قيس/ وكان قد تنبأ في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر سنة عشر، وزعم أنه أشرك مع محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، وبعث بذلك إليه مع رجلين من أصحابه، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أتشهدان أن مسيلمة رسول الله"؟ قالا نعم. قال النبي صلى الله عليه وسلم " لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما " ، ثم أجاب: "من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين "، ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب في جيش كثير حتى أهلكه الله على يدي وحشي، غلام مطعم بن عدي الذي قتل حمزة بن عبد المطلب، بعد حرب شديد، وكان وحشي يقول: قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الإسلام .

والفرقة الثالثة: بنو أسد، ورئيسهم طليحة بن خويلد بن الوليد، وكان طليحة آخر من ارتد، وادعى النبوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وأول من قوتل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الردة، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد إليه، فهزمهم خالد بعد قتال شديد، وأفلت طليحة فمر على وجهه هاربا نحو الشام، ثم إنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه .

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب واشرأب النفاق، ونزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها).

يخبر الله بأن هؤلاء يتسمون بأنهم: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾رحماء ورفقاء وأرقاء﴿**عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾يتواضعون لهم، وبذات الوقت، اشدّاء ﴿**عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾لايتهاونون معهم على الكفر

﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** ﴾الإسراء٢٤

﴿**أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**﴾ الفتح ٢٩

قال الإمام أحمد:(حدثنا عفان، حدثنا سلام أبو المنذر، عن محمد بن واسع، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: أمرني خليلي صلى الله عليه وسلم بسبع، أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرًا، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول:لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش).

وقال الإمام أحمد:(حدثنا محمد بن الحسن، حدثنا جعفر، عن المعلى القُرْدوسي، عن الحسن، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا لا يمنعن أحدكم رَهْبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يُبَاعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم " تفرد به أحمد.

وقال أحمد:(حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن زُبَيْد عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي البختري، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يَحْقِرَنَّ أحدكم نفسه أن يرى أمرًا لله فيه مَقَال، فلا يقول فيه، فيقال له يوم القيامة:ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا؟ فيقول:مخافة الناس. فيقول:إياي أحق أن تخاف").

الباب الرابع عشـر

منهج الولايـة

﴿٥٥﴾

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾

فبعد النهي عن مولاة اليهود والنصار، بيّن الله بأن ولي المؤمنين هو الله تعالى، ﴿وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، وتبقى المرجعية الأصلية لله عز شأنه، فهو مرسل الرسول،﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يتبعون ما أتى به الرسول من عند الله، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾آل عمران١٠٤﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ التوبة ٧١ فالأصل ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾وهذا إرشاد من الله عز ذكره كي يوالي المؤمنون بعضهم بعضاً، ويؤازروا بعضهم بعضاً ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ لم تحدّد الآية زمناً، أو أشخاصاً بعينهم، لتلبث مفتوحة، لأن الناس يتوارثون الولاية عن بعضهم البعض، لكن بشرط إلاّ تخرج عن المؤمنين، لأنها عند ذاك تخرج عن ولاية الله التي هي الأصل في عدالة الولاية، والأصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي التي تجعل الولاة يكونون ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ فهؤلاء يلتزمون بما أمرهم الله، وهم خير مَن يتولونكم.

﴿٥٦﴾

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾

إخبار من الله عز وجل بأن الغلبة تكون للذين يتولون﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن هؤلاء قد توكلوا على الله، وأسلموا أمرهم له. فهم يصيبون الفلاح لأن أصل الولاية سليم، وقد أرشدتهم إلى الصلاح، وجنبتهم الفساد في أمرهم، والغلبة هي النصر، فهم سيكونون بذلك غالبين، لا مغلوبين ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾المجادلة٢٢ وفي ذلك تحذير من موالاة غير﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾لأنهم سيصبحون بذلك مغلوبين لأن ﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ على الذين لايتولون﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وبذلك ﴿فَإِنَّ حِزْبَ﴾غير﴿اللَّهِ هُمُ﴾ المغلوبون لأن وجود الغالب، هو في الوقت عينه وجود للمغلوب، حتى تتحقق غلبته عليه، فقد شاء هذا أن يكون غالباً، وشاء

ذاك أن يكون مغلوباً، وقد خيّرك الله في المشيئتين، فقال: ﴿وَمَن﴾منكم﴿يَتَوَلَّ﴾ لكن نتيجة الغلبة ترشدك لتكون غالباً، لامغلوباً. و﴿حِزْبَ اللَّهِ﴾ هم الذين يدينون بدين الله، ويتبعون أمره، ويدافعون عن هذا الدين جهد أيمانهم، وكل داخل إلى الإسلام يُصبح من ﴿حِزْبَ اللَّهِ﴾ شأنه شأن عامة المسلمين، لأنه أصبح يدين مثلهم بدين الله. في معجم مقاييس اللغة: الحاء والزاء والباء أصلٌ واحد، وهو تجمُّع الشيء. فمن ذلك الحِزب الجماعة من النّاس. والطائفة من كلّ شيءٍ حِزْبٌ)

﴿٥٧﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

يبيّن الله للمؤمنين سبب نهيه لهم من ولاية هؤلاء، وأنهم ليسوا أهلاً للولاية، وبالتالي سيمضون بهم وفق أهوائهم، لأن لاقاعدة دينية تضبطهم، وإنما يتخذون من الدين ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ومَن لم يحكم وفق الذين، فإنه يحكم وفق أهوائه، وهو لايصلح للولاية، وقد ساوى الله بينهم وبين الكفار، فجاءت ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ لتضيفهم إلى ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وفي ذلك بيان بأن هؤلاء يشتركون مع ﴿الْكُفَّارَ﴾باتخاذ ﴿دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾وعن سبب نزول الآية قيل : (كان رفاعة بن زيد، وسويد بن الحرث أظهرا الإيمان ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية). ثم وجه إلى التقوى للبقاء في الإيمان، وكأن المعنى، فإن لم تتقوا الله في ذلك ما ﴿كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فكيف يؤمن بالله مَن لايثق بولايته له، أو ولاية رسوله، أو ولاية المؤمنين، ثم يتخذ الذين يتخذون الإسلام ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أولياء لهم فقال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾في ولايتكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

﴿٥٨﴾

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

إنهم ينظرون إلى الصلاة عندما تنادون إليها باستهتار وقد ﴿اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ ومردّ ذلك انهم ﴿اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾قال أسباط، عن السُّدّي:(كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمدًا رسول الله قال: حُرّق الكاذب، فدخلت خادمة ليلة من الليالي بنار وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت، فاحترق هو وأهله). رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال الكلبي: (كان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا، وصلوا لا صلوا، على طريق الاستهزاء، وضحكوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية).

لا تتخذوهم أولياء عليكم، يتولون إدارة وولاية شؤونكم﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ والإنسان الذي لايعقل، يكون قد فقد صوابه، ولا ينظر إلى الأمور وفقما يعقل، كونه لا يعقل، بل ينظر إليها وفقما يهوى ، كونه يتبع الأهواء.

﴿٥٩﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾

يخاطب الله رسوله بأن يقول لأهل الكتاب ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾بمعنى إنكم تنقمون منّاالأننا

﴿آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ في معجم مقاييس اللغة:(النون والقاف والميم أُصَيلٌ يدلُّ على إنكارِ شيءٍ وعَيبه.ونَقَمْتُ عليه أَنْقِمُ: أنكرتُ عليه فِعلَه.والنَّقْمة من العذاب والانتقام، كأنَّه أنكَر عليه فعاقَبَه).

﴿قُلْ﴾يا محمد لليهود والنصارى، خاطبهم وناظرهم: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾﴿هَلْ﴾ هذا هو سبب نقمكم، فهذا لايدعو إلى نقمكم ﴿مِنَّا﴾ نحن ﴿آمَنَّا﴾ أيضاً بـ ﴿مَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ في التوراة والإنجيل فأنتم تنكرون علينا إيماننا حتى بكتابَيكم . فجاءت ﴿هَلْ﴾فيالسبك استفهامية وبذات الوقت نافية، فأنتم ﴿تَنقِمُونَ مِنَّا لأننا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ يُروى عن ابن عباس قوله :(إن نفراً من اليهود أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال: أؤمن بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل إلى قوله ونحن له مسلمون، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوّته وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شراً من دينكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وما بعدها)

قال الكسائي: (نقمت بالكسر لغة، ونقمت الأمر أيضاً ونقمته: إذا كرهته، وانتقم الله منه: أي عاقبه، والاسم منه النقمة، والجمع نقمات، مثل كلمة وكلمات، وإن شئت سكنت القاف ونقلت حركتها إلى النون، والجمع نقم مثل نعمة ونعم). وفي لسان العرب:(وقوله تعالى: ﴿هل تنقِمون منّا﴾ أي هل تنكِرون. قال الأزهري: يقال النَّقْمةُ والنِّقْمةُ العقوبة)

والنقمة هي نقيض النعمة، فأنتم تنقمون منا على ما أنعم الله به علينا من نعمة الإيمان ﴿بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾﴿وَ﴾واستناداً إلى هذه الحقيقة﴿أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ تعرفون الحق، وتجحدونه، وتحيدون عنه، وتنقمون من الذين يتبعونه.

﴿٦٠﴾

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾

فقد هزأوا، ولعبوا، ونقموا، والآن يخبر الله رسوله أن ينبئهم﴿بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ﴾الذي هم عليه حيث يصفون الإسلام بالشر ويهزؤون به﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾جاءت ﴿مَثُوبَةً﴾بمنزلة عقوبة، مثل قوله ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾التوبة٣٤وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ★ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ★ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الانشقاق ٢٢،٢٣،٢٤

فالشر ليس في الإسلام كما تقولون، بل الشر في﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ قال ﴿جَعَلَ مِنْهُمُ﴾ أي أن﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾هي موجودة، فمسخهم الله إلى قردة وخنازير، ويروى (أن المسخين كانا في أصحاب السبت لأن شبانهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير). أخرج مسلم، وابن مردويه، عن ابن مسعود قال: (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير هما مما مسخ الله؟ فقال: «إن الله لم يهلك قوماً»، أو قال: «لم يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عاقبة، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك").

وقال أبو داود الطيالسي:(حدثنا داود بن أبي الفرات، عن محمد بن زيد، عن أبي الأعين العبدي، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال:سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير، أهي من نسل اليهود؟ فقال: " لا إن الله لم يلعن قومًا فيمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم، جعلهم مثلهم ")[٢٧] ثم ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الأصل في الطاغوت هو الشيطان، يقول الزمخشري:(عبد بوزن حطم، وعبيد، وعبد - بضمتين - جمع عبيد: وعبدة بوزن كفرة، وعبد، وأصله عبدة، فحذفت التاء للإضافة. أو هو كخدم في جمع خادم، وعبد وعباد، وأعبد، وعبد الطاغوت، على البناء للمفعول، وحذف الراجع، بمعنى : وعبد الطاغوت فيهم، أو بينهم، وعبد الطاغوت بمعنى صار الطاغوت معبودا من دون الله ، كقولك أمر، إذا صار أميراً، وعبد الطاغوت بالجر عطفا على من لعنه الله، فإن قلت : كيف جاز أن يجعل الله منهم عباد الطاغوت؟ قلت : فيه وجهان أحدهما : أنه خذلهم حتى عبدوه، والثاني : أنه حكم عليهم بذلك ووصفهم به، كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ الزخرف١٩ وقيل : الطاغوت : العجل، لأنه معبود من دون الله، ولأن عبادتهم للعجل مما زينه لهم الشيطان ، فكانت عبادتهم له عبادة للشيطان وهو الطاغوت)

وفي لسان العرب:(وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وأبو عمرو

[٢٧] رواه أحمد من حديث داود بن أبي الفرات

والكسائي وعَبَدَ الطاغوت، قال الفراء: وهو معطوف على قوله عز وجل: وجعل منهم القردَة والخنازير ومَن عَبَدَ الطاغوت؛ وقال الزجاج: قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ ، نسق على مَن لعنه الله؛ المعنى من لعنه الله ومن عبَدَ الطاغوتَ من دون الله عز وجل، قال وتأويلُ عبدَ الطاغوت أي أطاعه يعني الشيطانَ فيما سَوّلَ له وأغواه؛ قال: والطاغوت هو الشيطان).

﴿أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾

نلاحظ أن كلمة الشر تكررت، ولعل ذلك مردّه إلى قولهم للرسول صلى الله عليه وسلم (ولا ديناً شراً من دينكم) فيخبر الله رسوله ﴿أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ فقد خرجوا من ﴿سَوَاء﴾ سبيل الحق إلى الضلال الذي أودى بهم إلى المسخ، وعبادة الطاغوت، إن ﴿أُوْلَـئِكَ﴾الذين وصفوا الإسلام بالشر هم﴿شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾. واعلم أن ﴿أُوْلَـئِكَ﴾ لاتقتصر على ﴿أُوْلَـئِكَ﴾ كفعل مضى، بل ﴿أُوْلَـئِكَ﴾ هم أيضاً هؤلاء الذين يقتدون بهم، ويمضون على ضلالهم ﴿عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ فيصفون الإسلام بما ليس فيه، ويهزؤون بفرائض الإسلام، فهؤلاء في كل زمن يستكملون مسيرة ﴿أُوْلَـئِكَ﴾ في ذاك الزمن.

﴿٦١﴾

﴿وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾

تلك هي حلاوة القرآن، وتلك هي منافعه اللامحدودة، وتلك هي أنواره التي تستنير بها النفوس والعقول، وتلك هي العلوم التي يتعلمها الإنسان منه، وتلك هي التعابير البليغة التي لاترتقي إليها أي بلاغة ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ﴾ يأتيك شخص، وهو يُظهر لك مودة، وفي الواقع يكن لك غلاً، يُظهر لك موازرة، وفي الواقع، يخفي لك عدواناً، وهذه من صفات المنافقين المزدوجين الذين يمتلئون بأوبئة الحقد، والغل، ويجنحون من نقاء الحقيقة، إلى ظلمة الرياء، فـ ﴿دَّخَلُواْ﴾ على الرسول صلى الله عليه وسلم محمّلين ﴿بِالْكُفْرِ﴾ لأنهم ﴿قَدْ خَرَجُواْ بِهِ﴾ من مساكنهم ، ثم الأمر الآخر، أنهم أيضاً يخرجون من عند الرسول صلى الله عليه وسلم بذات الكفر الذي خرجوا به من مساكنهم، ودخلوا به عليه، ثم برحوا كذلك به بمثل ما دخلوا، وهنا كان يمكن لهم ألاّيـ﴿خَرَجُواْ بِهِ﴾ وعندئذ كانوا سيـ ﴿دَّخَلُواْ﴾ بالإيمان، ثم يـ ﴿خَرَجُواْ ﴾ من عنده بالإيمان. فاعلم أن الداخل إليك يدخل بما خرج ﴿بِهِ﴾، وقد جاء الخطاب جمعاًللرسول ولأصحابه، ويبقى هذا مفتوحاً لسائر المسلمين للعظة ﴿وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا﴾ وهذا محض قول، امّا المخفي ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ﴾ لكن هذا النفاق لايخفى على الله الذي هو ﴿أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾.

﴿٦٢﴾

﴿وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

تبقى الآية محافظة في سبكها على اللاتعميم، وذلك تنبيه للمسلمين باللاتعميم، فكثير ﴿**مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ**﴾ ولكن ثمة مَن يترفعون عن ذلك، ولايقدمون عليه فـ ﴿**كَثِيراً**﴾ جعل للمّراد طابع التخصيص، دون التعميم. هؤلاء ﴿**يُسَارِعُونَ**﴾ في المعاصي، وهنا يتبيّن بأن التأني مفيد، فعدم التسرّع في المعصية، وتأجيلها قد يحول دون الوقوع فيها، لأن الإنسان قد يتقلّب من حال إلى حال بين ساعة وأخرى. إنهم لاينتظرون، ولايتأنّون، وكأنهم في حالة ترصّد للمعاصي لكي يرتكبوها فور تمكّنهم منها. إنهم ﴿**يُسَارِعُونَ**﴾يتعجلون﴿**فِي الإِثْمِ**﴾الكذب ﴿**وَالْعُدْوَانِ**﴾الظلم﴿**وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ**﴾ الكسب الحرام، وقد تقدم تحليل ﴿**السُّحْتَ**﴾ في الآية ٤٢، ثم ﴿**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ إنه عمل مذموم.

الباب الخامس عشـر

مسؤولية أهل العلم

﴿٦٣﴾

﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾

ينبّه الله هنا إلى أهمية أن يقول أهل العلم كلمة الحق، وأن يتدخلوا، ويستنكروا المعاصي التي تبدر من الناس، ويبيّنوا في ذلك شرع الله، وأن سكوتهم عن ذلك هو إشارة لرضاهم، وإلاّ لِم ﴿**لاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ**﴾ قال ﴿**لَوْلاَ يَنْهَاهُمْ**﴾﴿**لَوْ**﴾أنهم نهوهم،فهؤلاء أهل الربوبية والعلم.

في الصحيح من طريق الأعمش، عن إسماعيل بن رَجاء، عن أبيه، عن سعيد - وعن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن أبي سعيد الخدري- قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم مُنْكَرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان " رواه مسلم.

قال الإمام أحمد:(حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا، شَرِيك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي هم أعز منه وأمنع، لم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعذاب ") .

قال الإمام أحمد:(حدثنا سليمان الهاشمي، أنبأنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي، عن حذيفة بن اليمان؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " والذي نَفْسِي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَرِ، أو ليُوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عِقابًا من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم "). رواه الترمذي عن علي بن حجر، عن إسماعيل بن جعفر، به. وقال هذا حديث حسن.

قال الإمام أحمد:(حدثنا ابن نُمَيْر، حدثنا سَيْف - هو ابن أبي سليمان سمعت عَدِيّ بن عدي الكندي يحدث عن مجاهد قال:حدثني مولى لنا أنه سمع جدي - يعني:عدي بن عميرة، رضي الله عنه- يقول:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله لا يُعذّب العامَّة بعَمَلِ الخاصة، حتى يَرَوا المنكر بين ظَهْرانيْهِم، وهم قادرون على أن ينكروه. فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عَذّبَ الله العامة والخاصة " .

وقال أبو داود:حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو بكر، حدثنا مُغِيرة بن زياد الموصلي، عن عَدِيّ بن عدي، عن العُرْس - يعني ابن عَميرة- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا عملت الخطيئة في الأرض

كان من شَهِدَها فكَرِهها - وقال مرة:فأنكرها- كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرَضِيَها كان كمن شهدها". تفرد به أبو داود، ثم رواه عن أحمد بن يونس، عن أبي شهاب، عن مغيرة بن زياد، عن عدي بن عدي، مرسلا.

قال ابن ماجه:(حدثنا راشد بن سعيد الرملي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال:عَرَض لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ عند الجَمْرة الأولى فقال:يا رسول الله، أيّ الجهاد أفضل؟ فسكت عنه. فلما رَمَى الجمرة الثانية سأله، فسكت عنه. فلما رمى جمرة العَقَبة، ووضع رجله في الغَرْز ليركب، قال: " أين السائل" قال:أنا يا رسول الله، قال: " كلمة حق تقال عند ذي سلطان جائر ") تفرد به.

وقال ابن ماجه:(حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبد الله بن نُمَيْر وأبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي البَخْتَرِي، عن أبي سعيد قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يَحْقِر أحدكم نفسه " . قالوا:يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟. قال: " يرى أمرًا لله فيه مَقَال، ثم لا يقول فيه. فيقول الله له يوم القيامة:ما منعك أن تقول في كذا وكذا وكذا؟ فيقول:خَشْيَة الناس، فيقول:فإياي كنت أحق أن تخْشَى ") تفرد به.

قال ابن ماجه:(حدثنا عمران بن موسى، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا علي بن زيد بن جُدْعان، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام خطيبًا، فكان فيما قال: "ألا لا يمنعن رجلا هَيْبَةُ الناس أن يقول الحق إذا علمه").

يُصدر﴿**الرَّبَّانِيُّونَ**﴾الأحكام الربانية، ويمثلون كلمة الرب في الأرض فوصفهم الله بالربوبية، كونهم تفرّغوا لبيان الشرائع الربانية، وبالتالي يُصادقون على هذه الشرائع ليتم تنفيذها من أجل تفعيل الشرع الإلهي في الناس. فالرباني هو مفتي البلاد، وهو القاضي الشرعي، وكل مسؤولية حكومية يتولاها بصفته العلمية، فهو يُصدر الأحكام الربانية باسم الرب، فالقضاء يسأله: ماذا يقول الرب في هذه الجناية؟ يقول: إن الرب يقول كذا، فيحكم القضاء بما قاله الرب على لسان الرباني الذي هو مفتي البلاد، أو قاضيها الشرعي، وما إلى ذلك من تفرعات الولاية. فإن سكت عن الحق، أو قال بما لم يقل الله، على أنه من الله لمنفعة ما، أو لخوف على جاه، أو منزلة، فيكون بذلك قد ضل، ﴿**وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ**﴾.

كذلك ﴿**وَالأَحْبَارُ**﴾ إنه ذات العالم، بيد أنه هنا لايتولى مسؤولية حكومية، وهو عالم مَدَني، وليس حكومي، وحِبر القوم، أي قلمهم، وعالمهم، وذلك قريب من الحِبر الذي يُكتب به، فلولا الحِبر ما كانت الكِتابة، ولولا أهل العلم، والفقه، ما كانت كل هذه المؤلفات، ونتاجات العقول، ومن ذلك قيل لكعب /كعب الأحبار/ وهو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري أبو اسحق تابعي ، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر.

وقد رُوي عنه أنه وجد كلمات في التوراة فكتبها، وهي:

(يا بن آدم لا تخافن من ذي سلطان، مادام سلطاني باقياً، وسلطاني لا ينفد أبداً، يا بن آدم لا تخش من ضيق الرزق، ما دامت خزائني ملآنة لا تنفد أبداً أبداً، يا بن آدم لا تأنس بغيري، وأنا لك، فإن طلبتني وجدتني، وإن أنست بغيري فتك، وفاتك الخير كله، يا بن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وقسمت رزقك فلا تتعب، و في أكثر منه فلا تطمع، ومن أقل منه لا تجزع، فإن أنت رضيت بما قسمته لك، أرحت قلبك وبدنك، وكنت عندي محمودا. وإن لم ترض بما قسمته لك، فو عزتي وجلالي لأسلطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البر، ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك، وكنت عندي مذموما.

يا بن آدم خلقت السموات السبع، والأرضين السبع، ولم أعي بخلقهن، أيعيبني رغيف أسوقه لك من غير تعب.

يا بن آدم أنا لك محب، فبحقي عليك كن لي محبا. يا ابن آدم لا تطالبني برزق غد، كما لا أطالبك بعمل غد، فإني لم أنس من عصاني، فكيف من أطاعني، وأنا على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط).

يُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الأنصار عندما قدم عالمهم سعد بن عبادة أن ينهضوا بقوله :"قوموا لسيدكم".

وفي رواية :"قوموا لحبركم ".

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (الربانيون الذين يسوسون الناسَ بالعلم ويربُّونهم بصغاره قبل كباره)، وعن الأحبار قال: (هم الفقهاء) . وقيل : (الحبر الرجل العالم وهو مأخوذ من الحبير وهو التحسين، فهم يحبرون العلم أي يبينونه ويزينونه، وهو محبر في صدورهم. قال مجاهد: الربانيون فوق العلماء. والألف واللام للمبالغة. قال الجوهري: والجبر والحبر واحد أحبار اليهود، وبالكسر أفصح: لأنه يجمع على أفعال دون الفعول؛ قال الفراء: هو جبر بالكسر يقال ذلك للعالم. وقال الثوري: سألت الفراء لم سمي الحبر حبرا؟ فقال: يقال للعالم حبر وحبر فالمعنى مداد حبر ثم حذف كما قال:﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾يوسف٨٢ أي أهل القرية. قال: فسألت الأصمعي يقال ليس هذا بشيء؛ إنما سمي حبرا لتأثيره، يقال: على أسنانه حبر أي صفرة أو سواد. وقال أبو العباس: سمي الحبر الذي يكتب به حبرا لأنه يحبر به أي يحقق به. وقال أبو عبيد: والذي عندي في واحد الأحبار الحبر بالفتح ومعناه العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه).

فالحبر ليس له أن يسكت، لأن بيان الحكم بذاته قد يمنع نشر المنكر في الناس، حتى لو لم يكن العالِم مسؤولاً، فهو يُبرهم بحكم الله في هذا المنكر، ثم يتخذ موقفاً باستنكار هذا المنكر، وإدانته، لأن ذلك كل ما يمكنه فعله، فهذا الموقف قد يحض العالِم الرباني أن يغيّر موقفه أيضاً إن كان سلبياً، فلا يسكت أحدهما عن الآخر لأن ذلك بمثابة التشجيع غير المباشر لنشر الفساد في المجتمع، فيمكن للعصاة أن يتذرعوا بالقول: لو كان ذلك منكراً لاستنكره علينا أهل العلم.

تقضي المسؤولية العلمية أن يتفاعل أهل العلم في المجتمع بأقوالهم وأفعالهم، فبيّن الله تعالى أن العلماء الذين لايقولون الحق، أو يحكمون به ﴿**لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ وذلك أشدّ مما سبق في قوله بحق اليهود

في الآية ٦٢ ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وإذا نظرنا إلى المقارنة بين العمل والصناعة، نرى أن الصناعة تحض على العمل، فقال بحق مرتكبي الآثام من عموم الناس ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وهنا قال بحق العلماء الساكتين عن الحق﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ فكأن هؤلاء بسكوتهم يحضون أولئك للاستمرار في ارتكاب الآثام، فجاء قول الله ﴿لَبِئْسَ﴾ما يصنع ﴿الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾بسكوتهم وعدم نهيهم، وقد ذكر الفئتين لبيان مقدرتهما على النهي.

الباب السادس عشـر

المشيئـة الإلهية في الإنفاق

﴿٦٤﴾

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

اليد المغلولة، هي اليد المقبوضة، والممسكة عن العطاء، وهي اليد التي لايخرج منها شيء إلاّ بالكاد، فصاحب اليد المغلولة هو بخيل. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ نبقى ضمن سياق اللاتعميم، فليس كل اليهود يقولون ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وهذا القول يتحمّله قائله فحسب، وكذلك مَن يؤيّده فيه، ثم أن ردّ الله أيضاً يكون لقائل القول، ولمن يذهب في مذهبه. فإن بقي القول في شخص قائله زمن نزول الآية، كان ذلك، لكن إذا كرر أشخاص ذات القول في أي زمان أو مكان، يكون ردّ الله تعالى موجهاً إليهم كذلك، فـ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ في ذاك الزمن الذي مضى، وأيضاً الذي سيقول في الآتي، والذي يؤيّد هذا القول، فيكون قول الله لهم ﴿غُلَّتْ﴾ أيديكم كما ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ولُعِنتم بما تقولون كما ﴿لُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ قال ابن عباس وعكرمة والضحاك: (إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالاً وأخصبهم ناحيةً فلما عصَوا الله سبحانه بأن كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبوه كف عنهم ما بسَطَ عليهم، فعند ذلك قال فِنحاصُ بنُ عازوراء﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾) يقول الله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ذلك من صفاتهم، وهم يبخلون عن الانفاق، ويمسكون أيديهم عن العطاء).

﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾جاءتاللعنة مفتوحة، ولعل في ذلك أنها لعنة من الله، ولعنة من الناس، فبعد أن يلعنهم الله. يلعنهم اللاعنون بقولهم: لعنة الله على قائلي ومؤيّدي هذا القول.واللعنة هي إبعاد عن رحمة الله عقاباً لهذا الافتراء على الله، فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾

قالوا ﴿يَدُ اللهِ﴾ فقال ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ بيان إلى السخاء الكثير، والجود الوفير، وهذا يدعوك للنظر في كل هذا السخاء الإلهي في كل النِعم التي أنعم بها على الإنسان، فلو كانت ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾لاكتفى بلون، أو قليل من ألوان وأشكال الطعام والشراب، فانظر إلى كل هذه الألوان من الفاكهة، وكل واحدة لها طعمها ومذاقها ونكهتها المختلفة عن الأخرى، ثم انظر إلى ألوان الخضار، والبقول، وانظر إلى ألوان اللحوم، فلا لحم الأرنب يشبه لحم السمك، ولالحم الدجاج يشبه لحم البقر، ولا لحم الخروف يشبه لحم الإبل، ولا طعم الدراق يشبه طعم التفاح، ولا طعم الموز يشبه طعم العنب ، ولا طعم الكرز يشبه طعم العنب الرمان،

ولن يكون بوسع المرء أن يلم بكل ألوان وأشكال النعم التي أنعم بها الله على الإنسان﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾النحل١٨ فلو تناول الإنسان كل يوم لوناً جديداً من الطعام، لانتهى عمره، ولما نفذت ألوان الطعام. فالأسواق عامرة بكل ما يطيب للنفس، وعلى الأغلب فإن الثلاجات في البيوت تضيق بما هو متوفر من الطعام، كذلك أشكال وألوان الأقمشة، والملابس، والمساكن والعمارات التي تملأ الأرض، والآثاث، ووسائل الانتقال، وألوان الاتصالات. بل شملت النعمة فتح القابلية للاستمتاع بها، ومقدرة التجدد بالتلذذ بها، كما لو أنك تستخدمها وتكتشف لذائذها وأطايبها لأول مرة، فكم من مرة يأتي الرجل أهله، وكل مرة يستمتع بها بما لم يستمتع من قبل، وكم من مرة يتناول المرء طعاما، وكل مرة يأتي بجوع ، وشهية كما لو أنه يأكل أول مرة، أو يظمأ ، فيشرب كما لو أنه يرتوي لأول مرة. ثم أنه يفرض على الأغنياء أن يعطوا للفقراء، ويجعل ذلك من حسناتهم، فتعطي مما أعطاك الله، وتكسب أجراً، كذلك يعوضك بأن يعطيك أكثر. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ﴾البقرة٢٢

﴿اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾إبراهيم٣٢

عن أبي هريرة قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن يمين الله مَلأى لا يَغِيضُها نفقة، سَحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِض ما في يمينه " قال: " وعرشه على الماء، وفي يده الأخرى القبْض، يرفع ويخفض " :قال: قال الله تعالى: " أنفق أنفق عليك "). وانظر هنا إلى بيان الله:﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾لقمان٢٠ روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " النعمة الظاهرة ما حسن من خلقك، والباطنة ما ستر عليك من سيئ عملك ". فهو عزّ ذكره ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾بالطرق، والأوقات، والأماكن التي يشاءها ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾إنكارهم القرآن الذي﴿أُنزِلَ﴾إلى النبي صلى الله عليه وسلم يجعلهم يتمادون أكثر ويزدادونفي الطغيان والكفر.أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله:﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ قال: حملهم حسد محمد والعرب على أن تركوا القرآن، وكفروا بمحمد ودينه، وهم يجدونه مكتوباً عندهم.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾جعلهم الله يعادون بعضهم بعضاً، ويبغضون بعضهم بعضاً، ويلبث ذلك ما لبثوا في طغيانهم وكفرهم﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وطبيعي أن الذين يعادون ويبغضون بعضهم البعض، فإنهم يفعلون ذلك مع الناس جميعاً، ويسعون إلى أعمال الشر في الناس، فقال الله ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ﴾إنهم يوقدون النيران، لكن الله يطفئها لأنهم يبتغون بذلك نشر الفساد ﴿فِي

﴿الأرض﴾﴿والله﴾ لايمكّنهم من ذلك، وهو﴿لا يُحبُّ المُفسِدينَ﴾ ولايحقق لهم نشر الفساد ﴿في الأرض﴾ ويحب الصالحين، ويبارك لهم نشر الصلاح ﴿في الأرض﴾

﴿٦٥﴾

﴿وَلَو أنَّ أهلَ الكِتابِ آمَنوا وَاتَّقَوا لَكَفَّرنا عَنهُم سَيِّئاتِهِم وَلأَدخَلناهُم جَنّاتِ النَّعيمِ﴾

تبقى التوبة مفتوحة أمام الناس جميعاً، فالذي يؤمن بالله ورسله جميعاً، ويتقي الله، فإن الله تبارك وتعالى يُخبر بأنه يقبل توبة التائب وقد بيّن الله بأن ﴿أهلَ الكِتابِ﴾ إذا تركوا التحريف، وآمنوا بما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿وَاتَّقَوا﴾ فإن الله يكفر﴿عَنهُم﴾ما اقترفوا من سيئات، وبذلك فإن الله يُدخلهم ﴿جَنّاتِ النَّعيمِ﴾ كونهم تخلوا عن الضلال الذي كانوا فيه. وهذا يبيّن اقتران دوام الحكم بدوام المعصية، فإن توقفت المعصية، توقف الحكم لأنه خرج عن المعصية، وتاب عنها، مهما كانت هذه المعصية، حتى لو كانت أغلظ أنواع الكبائر التي لاتوجد كبيرة أغلظ وأكبر منها وهي الشرك بالله عز وجل، فإن آمن المشرك، واتقى، لوجد باب التوبة مفتوحاً له، بل يُخبر الله بأنه تبارك وتعالى يُكفّر﴿عَنهُم سَيِّئاتِهِم﴾ ويُدخلهم ﴿جَنّاتِ النَّعيمِ﴾ لأن القرآن جاء كي يُخرج الناس من الضلال إلى الهدى، ومن الشرك إلى وحدانية الله الواحد الأحد الذي لاشريك له، ومن أجل ذلك جاء، وهو يبقى يستقبل المسيئين ﴿إلى يَومِ القِيامَةِ﴾إن ﴿آمَنوا وَاتَّقَوا﴾ فالقرآن يبقى مفتوحاً ومستقبلاً للتائبين بالغاً ما بلغت ذنوبهم حتى لوكانت كزبد البحر، لأن رحمة الله أكثر، والإسلام يجبُ ما قبله، ولايوجد ذنب مهما بلغ، يفوق رحمة الله، أو لايخضع لرحمته، فكل ذنب يخضع لرحمة الله.

﴿٦٦﴾

﴿وَلَو أنَّهُم أقاموا التَّوراةَ وَالإنجيلَ وَما أُنزِلَ إلَيهِم مِّن رَّبِّهِم لأَكَلوا مِن فَوقِهِم وَمِن تَحتِ أرجُلِهِم مِّنهُم أُمَّةٌ مُّقتَصِدَةٌ وَكَثيرٌ مِّنهُم ساءَ ما يَعمَلونَ﴾

جمع الله في هذه الآية، وسابقتها اليهود والنصارى فقال هناك ﴿وَلَو أنَّ أهلَ الكِتابِ﴾ وهنا ﴿وَلَو أنَّهُم﴾ أي ﴿أهلَ الكِتابِ﴾ ماذا ﴿لَو أنَّهُم﴾ قال ﴿وَلَو أنَّهُم أقاموا﴾عملوا بما جاء في ﴿التَّوراةَ﴾﴿وَ﴾ما جاء في﴿الإنجيلَ﴾﴿وَما أُنزِلَ إلَيهِم مِّن رَّبِّهِم ﴾سواء في كتب الأنبياء السابقة مثل كتاب شعياء، وكتاب حيقوق، وكتاب دانيال، التي تتضمّن بشائر ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك ما جاء في القرآن، الذي حمله

النبي صلى الله عليه وسلم إلى جميع الثقلين، عنـدذاك ﴿لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ وكان القحط قد أصابهم نتيجة كفرهم بمحمّد صلى الله عليه وسلم، وسبق أن ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وهذا يشير إلى عدم العظة من أمر الله، فالمؤمن يصبر على المحنة ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾الأعراف١٣٠﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾البقرة١٥٥

عنـدذاك لوسع الله عليهم، ولفاضت بهم النعمة، و﴿لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ﴾مدّوا أياديهم لقطف الثمار والفاكهة من الأشجار ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ ما يطلع من نعمة تحت الأرض، فيخرجوها من تحت التراب، وأيضاً ما يبقى مستوياً على الأرض من كل ألوان وأشكال الثمار، والفاكهة، والخضار، والبقول، وأصناف النعمة التي أنعم بها الله على الإنسان.

﴿مِّنْهُمْ﴾ أي ﴿مِّنْ﴾اليهود والنصارى﴿هم﴾﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلة، مثل عبد الله بن سلام، ومَن حذا حذوه من اليهود، والنجاشي، ومَن حذا حذوه من النصارى، والمقتصد في اللغة هو الذي لايغلو في العمل، ولايقصّر، فهذه ﴿أُمَّةٌ﴾قصدت سبيل الاعتدال، فوصفها الله بالـ﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾ غير مقتصدين، ولايقيمون ﴿التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾فخروج هؤلاء عن شرع الله أدّى بهم إلى سوء العمل، كما أن اقتصاد أولئك أدّى بهم إلى حسن العمل.

الباب السابع عشـر

البلاغ

﴿٦٧﴾

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

يتضح لك في هذه الآية بأن كل ما تلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم، بلّغه للناس، دون أن يترك شيئاً لم يبلّغه، لأن إخفاء ولو كلمة واحدة، يعني عدم التبليغ فـ ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ بمعنى ﴿بَلِّغْ﴾كل ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ دون أن تسرّ شيئاً منه، فاسم الموصول ﴿مَا﴾إشارة إلى الجمع ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾تبلّغ ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ لأن اجتزاء البعض يترك أثراً على الكل، فالقرآن يتكامل بعضه ببعض، وحذف شيء منه يترك أثراً على مجمل الرسالة، وإن حدث ذلك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾وهذا يثبت بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد بلّغ الرسالة كاملة، ولذلك نرى حتى العتاب الإلهي الذي يكون للرسول صلى الله عليه وسلّم. يقول البخاري:(حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن إسماعيل، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة قالت: من حدّثك أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كتم شيئًا مما أُنزل عليه فقد كذب، الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾الآية). وفي الصحيحين عنها أيضا أنها قالت: (لو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاتما من القرآن شيئًا لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ الأحزاب٣٧).

في حجة الوداع بحضور نحو أربعين ألفاً من الصحابة كما في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته: " أيها الناس، إنكم مسئولون عني، فما أنتم قائلون" ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيتَ ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء ويَقلبها إليهم ويقول: " اللهم هل بلّغْتَ، اللهم هل بلغت".

وقال الإمام أحمد:(حدثنا ابن نُمير، حدثنا فضيل - يعني ابن غَزْوان- عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: " يأيها الناس، أيّ يوم هذا"؟ قالوا:يوم حرام. قال: " أيّ بلد هذا"؟ قالوا:بلد حرام. قال: " فأيّ شهر هذا"؟ قالوا:شهر حرام. قال: " فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا " . ثم أعادها مرارًا. ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال: " اللهم هل بلغت" مرارًا).

فـ ﴿بَلِّغْ﴾ بمعنى أوصل، ليس أن تقول فقط، بل توصل ما تقول، لأن القول قد يُقال، بيد أنه لايصل عامة الناس، فيبقى في دائرة عدّة أشخاص، فعليك أن تقول، وتسعى إلى نشر ما تقول، حتى يبلغ القول مَن

لم يبلغه، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يرسل الصحابة إلى الأنحاء ليحملوا القرآن إلى ما يمكن الوصول إليهم بكل السبل المتاحة، ثم أنه كان يوصي أن يُبلغ الحاضر السامع، الغائب غير السامع، ويقول: "ألا فليبلّغ الشاهد الغائبَ "، ويطلب من الناس : " بلّغوا عني ولو آية"[٢٨] ويجوز أخذ الحديث هنا بصفة الأمر من النبي صلى الله عليه وسلم لعلماء الأمة بأن يتولوا مهمة التبليغ، وأضعف الإيمان آية واحدة، فهم في هذا المقام يستأنفون ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم بإبلاغه، ويتولون مهمة البلاغ بعد أن أكرمهم الله تعالى بهذا التكريم، ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾البقرة٢٦٩

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾الحج٥٤﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾العنكبوت٤٩

وقد شرّفهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا التشريف .

ثم أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه يحميه من الناس في تبليغ رسالته، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلقى الأذى من الذين لايؤمنون به، ويسعون إلى أي عمل يمكن له أن يؤذيه حتى أنه ذات ليلة تمنى لو أن رجلاً صالحاً يحرسه كي ينام قال الإمام أحمد:(حدثنا يزيد، حدثنا يحيى، قال سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث: أن عائشة كانت تحدث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سَهِر ذات ليلة، وهي إلى جنبه، قالت: فقلت:ما شأنك يا رسول الله؟ قال: " ليت رجلا صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة" قالت: فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال: " من هذا"؟ فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: " ما جاء بك"؟ قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيط رسول الله صلى الله عليه وسلم في نومه) وقال عبد الله بن شقيق عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة فقال لهم: " أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله سبحانه وتعالى ".

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ بيان بأن الله لايهديهم إلى النيل من شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿٦٨﴾

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يُخبر اليهود والنصارى بأنهم لن يكونوا على ﴿شَيْءٍ﴾ من الهدى مالم يـ ﴿قِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ﴾إليهم ﴿مِّن﴾ ربهم، فإن رأيتهم يزدادون﴿طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾

[٢٨] رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم ٣٢٧٤عن عبد الله بن عمرو.

فذلك سببه عدم إيمانهم بـ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فلا تكن في بأس يا محمد على الذين يكفرون بك منهم لأن عدم إيمانهم بالقرآن الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يزيدهم ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ على طغيان وكفر سابقَين بالنسبة لإنكار التوراة والإنجيل، فالإيمان بالقرآن بالنسبة إليهم هو كالإيمان بالتوراة والإنجيل، كما أن الإيمان بالنسبة للمسلمين بالتوراة والإنجيل، هو كالإيمان بالقرآن، فكما أنك لايجوز أن تؤمن ببعض الآيات من القرآن، وتنكر البعض، فكذلك لايجوز لك أن تؤمن بالقرآن، ولاتؤمن بالإنجيل والتوراة لأن ذلك من شأنه أن يجعلك لاتؤمن بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام، كما الأمر بالنسبة لأهل الكتاب الذين جعلهم عدم الإيمان بالقرآن، لايؤمنون بنبوة محمد أيضاً، فكان ذلك زيادة لهم في الطغيان والكفر.

﴿٦٩﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

يبيّن الله تعالى بـ ﴿إِنَّ﴾ تأكيداً منه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمقتضى شروط الإيمان ، ويجوز أن يكون ذلك للمسلمين، ثم ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ اليهود ﴿وَالصَّابِؤُونَ﴾ فرقة من الناس ﴿وَالنَّصَارَى﴾ أتباع الإنجيل ، ﴿مَنْ﴾ من هؤلاء ﴿آمَنَ بِاللهِ﴾، ثم ﴿آمَنَ﴾ بـ ﴿الْيَوْمِ الآخِرِ﴾ لأن ذلك يجعله في مسؤولية عن أعماله، فهو مؤمن بأنه في ﴿الْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يكون أمام أعماله سواء أكانت خيراً، أم شرّاً ، فتفعيل الإيمان يكون بالعمل، فقال جل جلاله: ﴿وعَمِلَ صَالِحاً﴾ صدق إيمانه بأن ﴿عَمِلَ صَالِحاً﴾﴿فَ﴾هؤلاء جميعاً ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سواء في الدنيا، أو الآخرة. لكن كيف يكون التوفيق بين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في مبتدأ الآية وبين مَنْ آمَنَ فيما بعد فكيف يؤمن مَن يكون مؤمناً، وأخبر الله بأنه مؤمن؟ فبعد ذكر باقي الفئات، أصبحنا أمام مجموع، فقال مَنْ أي من مجموع المذكورين، وهذا يعني في حال بقاء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في إيمانهم، لأن المؤمن يمكن له أن يرتدّ بعد إيمانه، فالأصل هو البقاء في الإيمان حتى يُعطف عليهم ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى﴾ بالواوات الثلاثة، فيُشكّلوا بذلك المجموع الذي ﴿مَنْ﴾ منه﴿آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً﴾

فنحن أمام أربع فئات من الناس، ثلاث فئات تتبع الأنبياء والرسل، وفئة خارجة، وهذه إشارة بأن الإيمان ﴿بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وتصديق ذلك بالعمل الصالح يجعل الناس جميعاً سواء في الـ ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بوعد الله تبارك وتعالى، فلو خرج مسلم، أو غيره من المذكورين، خرج عن مجموع الذين وعدهم الله بأن ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وقد مضى معنا في الآية ١٤﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾

لكن لماذا حضرت هذه الفئات الأربع في الآية، وكانت محورها؟ لأن كل فئة منها تقول بأنها تؤمن بالله، يقول المسلمون بأنهم يؤمنون بالله ويقول اليهود: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾الأعراف١٥٦بمعنى ندمنا عن المعاصي، وتبنا، ويجوز أن يكون ذلك إضافة لنسبتهم إلى أبيهم يهوذا وأما ﴿النَّصَارَى﴾ جمع نصران، فعندما قال المسيح ابن مريم عليه السلام: ﴿﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾الصف ١٤ولعلهم أول مَن آمن بعيسى عليه السلام، وكانوا اثني عشر رجلاً، وقيل:(كانوا يحوّرون الثياب، أي يبيّضونها). وإضافة لذلك يجوز أن يكون نسبة إلى الناصرة، في فلسطين، حيث كان عيسى عليه السلام. لأن منشأ ﴿النَّصَارَى﴾ بدأ من هناك.

، حيث كان المسيح عليه السلام، فهم لاينكرون وجود الله، ﴿وَالصَّابِؤُونَ﴾كذلك يؤمنون بالله، لكن دون أن يتبعوا نبياً، فقد صبئوا عن الأنبياء، بمعنى خرجوا، واتخذوا لأنفسهم معتقداً خاصاً بهم، لكنهم في المحصّلة لاينكرون وجود الله. فما الذي يجمع هؤلاء ويضعهم على الصراط المستقيم ليُصبحوا ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. فذاك الذي تحقق فيه أنه ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾واحداً أحداً لاشريك له ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾الذي يكون فيه الثواب والعقاب﴿وعَمِلَ صَالِحاً﴾ قدّم أعمالاً صالحة من منطلق مايؤمن به خالصاً لله تعالى، وابتغاء مرضاته.

﴿٧٠﴾

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾

أخذ الله تعالى ﴿مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بالتوحيد، والإخلاص في العمل الصالح، وأرسل ﴿إِلَيْهِمْ رُسُلاً ﴾لبيان الحق، وإخراجهم من الضلالة إلى الهدى،لكنهم لم يتبعوا ما جاء به رسل الله إليهم، ﴿كُلَّمَا﴾بيان إلى التكرارفـ ﴿كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ ﴾تلو الرسول ﴿بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ ﴾لايتوافق مع أهوائهم﴿فَرِيقاً﴾بعض الرسل﴿كَذَّبُواْ﴾مثل عيسى عليه السلام، ﴿وَفَرِيقاً﴾وبعضهم﴿ يَقْتُلُونَ﴾ مثل زكريا، ويحيى عليهما السلام. يبيّن الله بأنهم نقضوا الميثاق الذي أخذه عليهم، ولبثوا في اتباع الأهواء، فقابلوا الـ ﴿كُلَّمَا﴾بالأ لـ ﴿كُلَّمَا﴾، و﴿كُلَّمَا﴾أداة شرطية.﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾البقرة٨٧

﴿٧١﴾

﴿وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

يبيّن الله بأن اليهود الذين فعلوا، ما فعلوا من التكذيب، والقتل، ظنوا أن ذلك لايؤدّي إلى عقاب لهم من الله، مثل القحط الذي سبق ذكره، ﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ﴾يقع عليهم العقاب، ويكونون في منأى عنه، فقد جاءتهم الشدائد، وألوان المحن لعلهم يهتدون إلى سواء السبيل. فقد أرسل الله لهم الأنبياء للهداية، وقد جاءهم موسى عليه السلام بالتوراة، ﴿فَعَمُوا﴾يروا ويتعاموا عن النظر وَصَمُّوا يسمعوا ويصمّوا عن السمع، ونظير ذلك يقول نوح عليه السلام: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾نوح٧ فقد سدّوا آذانهم بأصابعهم، وغطّوا وجوههم بثيابهم كي لايسمعوا صوت نوح عليه السلام، ولايروه.

﴿ثُمَّتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بأن أرسل لهم عيسى عليه السلام حاملاً الإنجيل،فكذّبوه، ولم ينتفعوا بالإنجيل، ، ولبثوا على ما هم فيه من ضلال، ﴿ثُمَّ﴾بمبعث محمّد صلى الله عليه وسلم﴿عَمُوا﴾كذلك﴿وَصَمُّوا﴾عن القرآن، وسعوا إلى قتل النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾، وليس الكل، فهناك مَن لم يتبّع العمي، والصم، فقد تبيّن له الرشد من الغي، مثل عبد الله بن سلام، ومَن معه، في الإسلام، وغيرهم الذين آمنوا بموسى، وعيسى، وما أرسل الله من أنبياء ورسل عليهم السلام.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لايخفى عنه شيء مما يعملون سواء أكان كبيراً، أو صغيراً، خفياً، أو علنياً ،و يَعْمَلُونَ﴾ تفيد الماضي، والحاضر، والمستقبل فهو بصير بكل عمل بدر منهم سابقاً، أو يبدر منهم حاضراً، أو سيبدر منهم لاحقاً. وقوله ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لايقتصر على قوم دون غيره، بل للناس كافة بمن فيهم بنو إسرائيل.

الباب الثامن عشـر

التوحيـد

﴿٧٢﴾

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

مبتدأ الكلام، هو لله الذي أخبر بكفر ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾وبعد أن ذكر قولهم، يذكر قول المسيح عليه السلام الذي جعلوه في أمر هو ليس فيه، فإن سكت عن قولهم، يعني بأنه رضي عن القول بالسكوت، لكنه وهو المعني بالأمر أجابهم بقوله ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾فأنا عبد الله، كما أنتم عباد الله،فيكيف أعبَد وأنا أعبُد﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾كما أنا أعبده﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ثم أنذرهم بأن قولهم هذا إنما هو شرك بالله، و﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾فالعاقبة كبيرة، وقد جعل الله المشرك محرّماً من دخول الجنة، لأنها محرّمة عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ النساء٤٨فالمشرك يجعل نفسه محروماً من المغفرةثم﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ﴾ لاأحد ينصرهم، أو يشفع لهم.

﴿٧٣﴾

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يُخبر الله ببطلان قول الذين يقولون بأن الألوهية مشتركة بين عيسى، وأمّه، وبين الله ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي أحد ثلاثة، ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هو الله الواحد الأحد الذي لاشريك له، وكل ما دون ذلك، فهو مِن خلق الله، ويخضع لمشيئة الله، والله يفعل ما يشاء، وليس بوسع مخلوق أن يفعل مالا يشاء الله ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء ٢٢ قال ﴿وَمَا مِنْ﴾وكان سيصل المعنى لو جاءت دون ﴿مِنْ﴾لكن حرف الجر المضاف هنا بمثابة النفي من جهة، وبذات الوقت التأكيد من جهة أخرى ﴿وَمَا﴾ ليس﴿مِنْ﴾سوى﴿إِلَهٍ﴾بنفي، وبتأكيد﴿إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾

ثم بعد ذلك﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من التثليث،ويكفّوا عن شركهم بعد أن نفى الله قولهم، ونفى عيسى قولهم، واكد الله وحدانيته، وأكد عيسى وحدانية الله، وعبوديته له ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾لبثوا على قولهم دون أن ينتهوا منه﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾سيلقون عذاباً أليماً .

﴿٧٤﴾

﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

فإن تابوا، وآمنوا بوحدانية الله الذي لاشريك له، واستغفروا الله عن ذنوبهم، فإن الله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر الذنب عن التائب، مهما كان هذا الذنب، وهو ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده فباب التوبة مفتوح لأي مذنب، ﴿وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يمكن لهم أن يدخلوا في غفران الله ورحمته ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ﴾ عن شركهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ ، وقد بيّن الله لهم الحق.

﴿٧٥﴾

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

ثم يُخبر الله تعالى بأن ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ليس إلهاً كما يقولون عنه، وهو ﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فمثله مثل رسل الله جميعاً، ينتمون إلى الجنس البشري، ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ مؤمنة بالله، ومصدّقة لنبوة ابنها، ﴿كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾كسائر الناس، وجاء الطعام هنا لمزيد من التأكيد على أنهما ليسا إلهين، فكيف يكون إلهاً مَن يضعف ويمرض إذا أصيب بسوء تغذية. ﴿انظُرْ﴾يا محمّد﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ﴾نُظهر الحق ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف أنهم ينكرون الحق. فنحن هنا أمام ﴿انظُرْ﴾ ين، أمّا الـ ﴿انظُرْ﴾ الأولى فهي لرؤية تفاصيل بيان الحق من الله، والثانية فهي برؤية ما يتبعون من إفك، فالأولى هي لله،﴿كَيْفَ﴾ نحن نبيّن الحق، والثانية لهم، أنظر ﴿أَنَّى﴾هم ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن بيان آيات الله.

﴿٧٦﴾

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

فبعد أن ينظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيان الله، وإلى إفكهم، يتلقى أمر ربه بأن يقول لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إذا تبتم إلى الله، واستغفرتموه، فإن ما ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾﴿لاَ يَمْلِكُ﴾ أن يضرّكم بشيء، لأنه ﴿لاَ يَمْلِكُ﴾ أن ينفعكم بشيء وأنتم تعبدونه. وهو قول موجه إلى كل عابد ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قل لهم يا محمّد، ويبقى القول سارياً للناس جميعاً فيما بعد ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾ فـ لاتعبدوا أحداً ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ لأنه ﴿لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾ سواء أخفتم الضر، أو أملتم النفع، ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾لما تسألون﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تفعلون. فلم يقل سميع عليم هنا، بل قال ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾أي ﴿هُوَ﴾ وليس ما تعبدون من دونه، لأنهم لايسمعون، ولايعلمون، وبالتالي لايملكون﴿لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾ و﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ من أسماء الله الحسنى. يقول الزجاج:(هُوَ فعيل فِي معنى فاعل وَالله تَعَالَى سامع وَسميع وَيَجِيء على قِيَاس قَول قطرب أَن يَقُول فِي سميع إِنَّه الَّذِي يسمع السِّرّ وسامع فِي كل شَيْء وَيَجِيء فِي كَلَامهم سمع بِمَعْنى أجَاب من ذَلِك مَا يَقُوله الْمُصَلِّي عِنْد رُجُوعه من الرُّكُوع سمع الله لمن حَمده فسر على أَنه بِمَعْنى اسْتَجَابَ. و حكي عَن قطرب أَن قَوْلنَا عليم فِي اسْم الله تَعَالَى يُفِيد الْعلم بالغيوب).

﴿٧٧﴾

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾

الغلو، هو التطرّف، أي تتطرّف عن الحق، وتحمّل الدين ما ليس فيه، فتقول أنه من الدين، وذلك هو الغلو. ﴿قُلْ يَا﴾محمد لـ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾لا تتجاوزوا ﴿الْحَقِّ﴾في حدود الدين، وتصبحوا مفرطين فيه ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾التوبة٣٠ فلا تكونوا في غلوكم تبعاً لأهوائهم، لأن ذلك سيجعلكم تضلون ﴿عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾مثلهم. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إياكم والغلو في الدين" بمعنى إياكم والتشدد فيه. في معجم مقاييس اللغة:(الغين واللام والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ في الأمر يدلُّ على ارتفاع ومجاوَزةِ قَدْر. يقال: غَلاَ السِّعر يغلو غَلاءً، وذلك ارتفاعُه.وغَلاَ الرَّجلُفي الأمر غُلُوّاً، إذا جاوَزَ حدَّه).

﴿٧٨﴾

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾

فقد استنكر ﴿دَاوُودَ وَعِيسَى﴾عليهما السلام ما أقدم عليه بنو إسرائيل من العصيان، ﴿لُعِنَ﴾ بمعنى سألا الله تعالى أن تحل عليهم اللعنة على عصيانهم، وما بدر منهم من اعتداء على حدود الله، فهم قد خرجوا على الحق الذي جاءهم، وضلوا، ثم دعوا الناس إلى الخروج عن الحق، ونشر الضلال . وجاء لِسَانِ رغم أنهما لايملكان لساناً واحداً، بل كل واحد منهما يملك لساناً، فهما يملكان لسانين اثنين، لكن المفرد هنا يفيد باتفاقهما على اللعنة، كأن تقول: جاء على لسان القوم، بمعنى اتفق القوم على الكلمة الواحدة، فقد اتفق ﴿دَاوُودَ وَعِيسَى﴾عليهما السلام في سؤال الله بحلول اللعنة. و ﴿دَاوُودَ﴾ لم يكن في زمن عيسَى﴾، وقد سبقه، وقد آتاه الله تعالى النبوة، وأيضاً المُلك. كان يصوم يوما ويفطر يوما، يقوم نصف الليل، وينام ثلثه، ويقوم سدسه.

وكان يتصرف بالحديد بين يديه كما يتصرف بالنسيج ، ينسج من زرد الحديد دروعا منسوجة ، ويقطّعه، ويلويه بيديه كما يشاء .

وقد علّمه الله كيف يقضي في الناس بالحق ، ومما يروى أنه كان يصلي في محرابه وفجأة أحس بفزع وهو يرى شخصين وقد دخلا عليه المحراب رغم الحراسة الشديدة، وتحذيره ألاّ يدخل عليه أحد وهو في حالة العبادة.

عند ذاك قالا: لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط .

ثم قال أحد الرجلين : لا تخف يا سيدي ، بيني وبين هذا الرجل خصومة، وقد جئناك لتحكم بيننا بالحق .

قال داوود : ما هي القضية

قال الرجل الأول : إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، وقد أخذها مني .

قال: أعطها لي،وأخذها مني .

قال داوود دون أن يسمع الطرف الآخر وحجته: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الشركاء يظلم بعضهم بعضا إلاّ الذين آمنوا .

بعد انصرافهما أحس داوود بأنه تسّرع في الحكم، فهو لم يسمع صاحب التسع والتسعين نعجة الذي ربما كان على حق في ذلك ، فخر راكعا وسجد لله واستغفر لذنبه ، وقد علّمه الله ألا يحكم بين المتخاصمين من الناس إلاّ إذا سمع أقوالهم جميعا.

يستمع لقمان إلى كل هذه الوقائع ، فيزداد سعة في النضج المعرفي ، ويزداد إدراكا بأن على المرء أن يتعلم من الناس جميعا ، من كبيرهم ، ومن صغيرهم ، من حكيمهم ، ومن سفيههم .

كان داوود عليه السلام يقرأ الزبور بسبعين صوتا ، له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ، ويشفي بصوته الهموم والمحموم .

وعندما يقرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر ولا سبع إلا جاوبه.

ويُروى أن الله تبارك وتعالى قال له:(يا داوود كما لا تضيق الشمس على مَن جلس فيها ، كذلك لا تضيق رحمتي على مَن دخل فيها، وكما لا تضر الطيرة من لايتطير منها ، كذلك لاينجو من الفتنة المتطيرون . وكما أن أقرب الناس مني يوم القيامة المتواضعون ، كذلك أبعد الناس مني يوم القيامة المتكبرون .

يا داوود : إن العبد من عبادي ليأتيني بالحسنة فأبيحه جنتي .

فقال داوود : يا رب وما تلك الحسنة ؟

قال : يُدخل على عبدي المؤمن سرورا ولو بتمرة

فقال داوود : حق لِمن عرفك أن لا يقطع رجاءه منك .

قال الله: يا داوود اسمع مني ما أقول ، والحق أقول : مَن أتاني وهو يحبني أدخلته الجنة .

يا داوود اسمع مني ما أقول، والحق أقول : مَن أتاني وهو يستحيي من المعاصي التي عصاني بها غفرتها له، أوأنسيتها حافظيه .

يا داوود اسمع مني ما أقول والحق أقول : مَن أتاني بحسنة واحدة أدخلته الجنة . قال داود : يا رب وما هذه الحسنة ؟

قال : مَن فرّج عن عبد مسلم .

فقال داوود : الهي لذلك لا ينبغي لمن عرفك أن يقطع رجاءه منك .

ويروى أن الله أوحى إليه : أن العباد تحابوا بالألسن ، وتباغضوا بالقلوب ، واظهروا العمل للدنيا وأبطنوا الغش والدغل .

يا داوود : اذكرني في أيام سرائك حتى أستجيب لك في أيام ضرائك .

يا داوود : احببني ، وحببني إلى خلقي .

قال : يا رب نعم أنا أحبك فكيف أحببك إلى خلقك ؟

قال اذكر أيادي عندهم فإنك إذا ذكرت ذلك لهم أحبوني

يا داوود بشر المذنبين ، وانذر الصديقين

قال : كيف ابشر المذنبين وانذر الصديقين ؟

قال : يا داوود بشر المذنبين إني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب ،

وانذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك .

يا داوود : مَن أحب حبيبا صدق قوله، ومَن آنس بحبيب قبل قوله ورضي فعله ، ومن وثق بحبيب اعتمد عليه، ومن اشتاق إلى حبيب جد في السير إليه .

يا داوود ذكري للذاكرين، وجنتي للمطيعين، وزيارتي للمشتاقين، وأنا خاصة للمطيعين .

يا داوود : اشكرني حق شكري .

قال : إلهي كيف أشكرك حق شكرك وشكري إياك نعمة منك ؟

قال : الآن شكرتني حق شكري) .

وممّا يُروى أن امرأة جاءته وقالت: يا نبي الله أربك ظالم أم عادل ؟

فقال داوود: ويحك يا امرأة هو العدلالذي لا يجور،ثم قال لها : ما قصتك؟ قالت: أنا أرملة،عندي ثلاث بنات أقوم عليهن من غزل يدي، فلما كان أمس، شدّدت غزلي فيخرقة حمراءوأردت أن أذهب إلى السوق لأبيعه وأبلّغ بهأطفالي، فإذا أنا بطائر قد انقض عليّ و أخذ الخرقة والغزل وذهب وبقيت حزينة لاأملك شيئاً أبلّغ بهأطفالي.

فبينما المرأة في الكلام ، طُرق الباب، فأذنبالدخول، وإذا بعشرة من التجار كل واحد بيده مائةدينار، فقالوا:يا نبي الله أعطها لمستحقها.

فقال لهمداوود: ما كان سبب حملكم هذا المال .

قالوا : يا نبي اللهكنا في مركب فهاجت علينا الريح وأشرفنا على الغرق، فإذا بطائر قدألقى علينا خرقة حمراء وفيها غزل، فسدّدنا به عيب المركب، فهانتعلينا الريح وانسد العيب ونذرنا لله أن يتصدّق كل واحد منا بمائةدينار، وهذا المال بين يديك، فتصدق به على مَنأردت.

التفت داوود إلى المرأة و قال لها:ربيتجر لكِ في البر والبحر و تجعلينه ظالمًا .

ثم ناولها الألف دينارقال : أنفقيها على أطفالك). وقد أتيت إلى تقديم شخصية داوود عليه السلام في روايتي / إمام الحكمة/ [٢٩]

أخبر الله تعالى بأن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لعنوا﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ لأنهم ﴿عَصَوا﴾ولم يكتفوا بالعصيان، بل﴿وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ على المؤمنين، وعلى أنبياء الله ورسله.

﴿٧٩﴾

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

يأتون المنكر، ويصرّون عليه بالمعاودة، فقد أمسى المنكر منهاجاً لهم، وقد لبثوا في إتيانه و﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ تأخذ الكلمة هنا صفة العمومية والشمولية بالنسبة لـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾فهم يرتكبون المنكر، ويستمرّون فيه دون أن ينتهوا منه و﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ تشير بأن المنكر بات أمراً طبيعياً وسائداً فيهم، فلا أحد يدينه، أو يستنكره، فإن جاء القول لاينتهون ، لاقتصر ذلك على مَن يرتكب المنكر ويلبث فيه، بيد أنه لايدعو إلى نشر رقعته، لكن ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ بشموليتها، تعني أن مرتكب المنكر لايكتفي باتيانه

[٢٩] إمام الحكمة، عبد الباقي يوسف، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت ٢٠١٠

فحسب، بل يدعو إليه، وإن رأى شخصاً يرتكبه، يشجعه على ذلك، بل حتى الذي لايأتي المنكر، لايستنكره، فهؤلاء أيضاً شركاء لهم في استفحال المنكر في المجتمع، فاللا إدانة بذاتها هي منكر . يقول النبي صلى الله عليه وسلم في رواية ابن مسعود: "من رضي عمل قوم فهو منهم" فالذي يفعلوه اليوم، يُصبح ماضياً في الغد،فيأتون كل يوم المنكر الذي﴿فَعَلُوهُ﴾البارحة، وبذلك فهم ليس لاينتهون فقد، بل ﴿لاَ يَتَنَاهَوْنَ﴾ وحيث أن عدم إدانة المنكر، وعدم السعي إلى تغيير،بمثابة شراكة في المنكر، فقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحمّل المسلم مسؤولية الإدانة، والتغيير وفق المستطاع حتى لايستفحل المنكر في المجتمع، فكان أمره :" مَن رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع، فبلسانه، فإن لم يستطع، فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان " وتغيير المنكر في القلب، بمعنى عندما يكون تغييره باليد بشكل مباشر، وكذلك إدانته باللسان، فوق طاقتك، عندئذ تستنكره في قلبك، ونظير ذلك، فلايجوز للقادر على التغيير باليد، أن يكتفي بالإدانة بلسانه، أو الذي يكون قادراً على التغيير بلسانه، يكتفي بالإدانة بقلبه. قال أبو داود:(حدثنا عبد الله بن محمد الثُفَيْلي، حدثنا يونس بن راشد، عن علي بن بَذيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول:يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض- ثم قال- ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله ﴿فَاسِقُونَ﴾ - ثم قال- : "كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذنّ على يد الظالم، ولتأطرنّه على الحق أطْرا،أو تقصرنه على الحق قصرًا ") .

يأتي قول الله عليهم بصفة الجمع ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ في فعل المنكر، واللانهي عنه. لم يقل بئس، بل ﴿لَبِئْسَ﴾ فتكون الكلمة أشدّ وقعاً باللام، وبئس هي عكس نعم، فتقول: نِعمَ الرجل، وبئس الرجل، ثم تقول نِعمَ ما صنع، للمدح، أو بئس ما صنع، للذم.

﴿٨٠﴾

﴿تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾

خطاب الله إلى رسوله: ﴿تَرَى﴾ يا محمد ﴿كَثِيراً مِّنْ﴾اليهود﴿هُمْ﴾ مثل كعب بن الأشرف وأصحابه، يتخذون من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مشركي مكة أولياء حيث ذهبوا إليهم ووالوهم في محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾من غل تجاه النبي صلى الله عليه وسلم، وعدم الإيمان برسالته، ومعاونة المشركين عليه، وعلى ما بدر منهم﴿أَنسَخِطَ ﴾غضب﴿اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾وجعلهم خالدين في العذاب يوم القيامة.

﴿٨١﴾

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

يبيّن الله لرسوله أنهم يقدمون على ذلك كونهم لا﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿وَالنَّبِيِّ﴾خاتم أنبياء الله ورسله﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ التنزيل الحكيم. والقول موصول بما تقدّم في الآية ٤١ ﴿لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ فهؤلاء يا محمد ﴿لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ﴾لجعلوا ولايتهم لله ونبيه ، واتبعوا﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾يبيّن الله في خطابه لرسوله ﴿وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يخرجون عن الحق رغم علمهم به.

﴿٨٢﴾

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوَا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

بعد أن خاطب الله رسوله بكلمات مثل : ﴿تَرَى﴾﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾﴿انظُرْ﴾ يبيّن له الآن ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ فحصيلة ذلك يا محمّد وأنت تستكمل نشر الرسالة لتكتشفن أن ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾. تتمحور الآية حول أربع جماعات، أمّا الجماعة الأولى فهي الـ ﴿لَّذِينَ آمَنُوا﴾بالقرآن وأصبحوا مسلمين، ثم تأتي مواقف ثلاث جماعات من هذه الجماعة الأولى، فيجد النبي صلى الله عليه وسلم، ويجد المسلمون أن ﴿الْيَهُودَ﴾هم ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾ثميليهم ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وهم عبدة الأصنام، والأوثان. وأمّا الجماعة الثالثة فهي ﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾وهم﴿الَّذِينَ قَالُوَا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾القسيس، بمعنى العابد، والراهب بمعنى الخائف من الله فالرهبة هي الخوف والوجل من الله، والرهبان، جمع راهب.

﴿٨٣﴾

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

يبيّن الله الفعل الذي ينجم عن المودة التي يكنها القسيسون والرهبان للمسلمين، والمودة هي الرقة، وهي درجة متقدمة من درجات المحبة، ولها مزاياها، وهي تنبع من القلب، وكما أنه تبارك وتعالى تحدّث عن مرضى القلوب، فهنا الحديث عن أصحاء القلوب، والقلوب المعافاة، والمؤمنة، وغير المستكبرة، هي تلك القلوب الشفافة، الرقيقة، الخاشعة، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾الزمر٢٣

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾الأنفال٢

فانظر هنا إلى دقة التعبير﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ فقد بكت القلوب بخشوع، وصدقت ﴿أَعْيُنَهُمْ﴾ بكاء القلوب، فبكت حتى فاضت ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ الذي بدأ يظهر جلياً للعيان، فقال: ﴿تَرَى﴾.

ولاتفيض العين إلاّ إذا امتلأت بـ ﴿الدَّمْعِ﴾، فيسيل الفائض، وذلك دليل البكاء الكثير، فقد أدمعت ﴿أَعْيُنَهُمْ﴾، ولبثت تدمع حتى غدت ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ ومصدر ذلك أن القرآن الذي بيّن لهم ﴿الْحَقِّ﴾ ترك أثراً عليهم، وأنهم تفاعلوا مع كلام الله، ولم يستكبروا على الإيمان به، فقد أفصحوا عن إيمانهم من خلال هذا التفاعل بـ ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ﴾، عندئذ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا ﴾ أي كنا في ضلال، والآن وقد سمعنا ﴿مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ﴾ ، نشهد أنه الحق من عندك ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ونظير ذلك يتبيّن لك بأن اليهود والمشركين أيضاً يعلمون الحق، بيد أنهم ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ، فنظير﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ثمة من ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ونظير من يبكون، ثمة من يستهزؤون، ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾المتحنة٢ ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ﴾ النساء ٤٦ سواء من اليهود، أو المشركين، أو من النصارى، وليس كل نصراني ﴿تَفِيضُ﴾عينه ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ بل الذي يعبد الله، ويخافه، و ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُ ﴾ والتخصيص هنا بموجب قوله عز وجل﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ﴾ من مجموع النصارى. وقد قيل بأن ذلك نزل في النجاشي، وبعض القسيسين والرهبان، عندما ضاقت الأمور بالنبي صلى الله عليه وسلم، في بدء نشر الدعوة، وبدأت المضايقات تطاله وتطال أصحابه، فرأى صلى الله عليه وسلم أن يوسع دائرة نشر الدين من جهة، وكذلك يحمي أصحابه من جهة أخرى عندما أرسل البعض منهم إلى النجاشي ملك الحبشة، طلباً للحماية، وبذات الوقت يقرأوا له بعض ما نزل من القرآن في مبتدأ النزول، فقال لهم:" إن بها ملكا صالحا لا يَظلم ولا يُظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجا"

وعندما علم المشركون بالأمر، أرسلواعمرو بن العاص، كي يسبق هؤلاء إلى النجاشي، ويطلب إليه ألاّ يستقبلهم، بل يردّهم معه، وتروي بعض المصادر، أنه بالفعل قد سبقهم مع وفد لهذه الغاية، فقالوا للنجاشي كما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: (خرج فينا رجل سفَّه عقول قريش وأحلامها، زعم أنه نبيٌ! وإنه بعث إليك رهطًا ليفسدوا عليك قومك، فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم. قال: إن جاءوني نظرت فيما يقولون! فقدم أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمُّوا بابَ النجاشي، فقالوا: استأذن لأولياء الله! فقال، ائذن لهم، فمرحبًا بأولياء الله! فلما دخلوا عليه سلَّموا، فقال له الرهط من المشركين: ألا ترى أيها الملك أنا صدقناك؟ لم يحيوك بتحيَّتك التي تحيَّا بها! فقال لهم: ما منعكم أن تحيوني بتحيتي؟ فقالوا: إنا حيَّيناك بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة! قال لهم: ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ قال يقول: " هو عبد الله، وكلمةٌ من الله ألقاها إلى مريم، وروح منه " ، ويقول في مريم: " إنها العذراء البتول

" . قال: فأخذ عودًا من الأرض فقال: ما زاد عيسى وأمه على ما قال صاحبكم قدر هذا العود! فكره المشركون قوله، وتغيَّرت وجوههم).

ومما يُروى أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن دونه من الحجارة والأوثان وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة). عندئذ جمع النجاشي الرهبان والقسيسين، وطلب من جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم، ولمّا سمعوا، آمنوا بأنه من عند الله، وبكوا حتى فاضت ﴿**أَعْيُنَهُمْ** ﴾﴿**مِنَ الدَّمْعِ**﴾ وعلى ذلك يمكن قراءة الآية وفقما يلي ﴿**وَإِذَا سَمِعُواْ**﴾سمع الرهبان والقسيسون مع النجاشي من جعفر بن أبي طالب ﴿**مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ** ﴾من القرآن الذي سمعوه﴿**تَرَىٰ**﴾يحتمل أن يكون ذلك إخباراً من الله لرسوله استنادا إلى ﴿**وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ**﴾ فسمعهم لما﴿**مَا أُنزِلَ**﴾ إليك يا محمد جعل ﴿**أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ**﴾ فقالوا﴿**رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ بمعنى اجعلنا مع المؤمنين الموحدين الذين شهدوا بأن ﴿**مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ**﴾هوحق.

﴿٨٤﴾

﴿**وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ**﴾

لقد أيقنوا أن ما سمعوه بقراءة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه على أسماعهم هو ﴿**الْحَقِّ**﴾ من الله، وأن الذين يؤمنون به صالحون، فبعد أن تبيّن لنا ﴿**الْحَقِّ**﴾، لأي شيء ﴿**لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ**﴾الواحد الأحد الذي لاشريك له ﴿**وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ**﴾ الذي أتى به خاتم أنبياء الله ورسله من عند الله ﴿**وَ**﴾ نحن بهذا الإيمان ﴿**نَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ**﴾نصبح بما نؤمن به مع أهل الصلاح. قالوا:﴿**وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ**﴾ يمكن أن يكون ذلك جواباً لمن يسألونهم عن سبب إيمانهم، وبذات الوقت يقولون ذلك لأنفسهم، فإن لم ﴿**نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ**﴾ فذلك يعني أننا لا﴿**نَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ**﴾ فنحن ﴿**نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ**﴾﴿**وَ**﴾من خلال هذا الإيمان﴿**نَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ**﴾قالوا ﴿**وَنَطْمَعُ**﴾أي نتوسل، ونرجو ﴿**أَن يُدْخِلَنَا**﴾أي يجعلنا﴿ **رَبُّنَا**﴾جمعاً﴿**مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ**﴾و ﴿**يُدْخِلَنَا** ﴾معهم الجنة وبذلك نكون ﴿**مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ**﴾ فالإنسان يؤمن ويتوسل إلى الله المثوبة ﴿**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾السجدة١٦

﴿٨٥﴾

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾

يُخبر الله تعالى بأنه استجاب لرجائهم، وأنه أدخلهم ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾وهو قولهموقد فاضت﴿أَعْيُنُهُمْ﴾﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ فقد صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح، وأحسنوا السؤال، ذلك أن مجرد التفاعل، والبكاء، والإيمان في ذاك الموقف عند سماع القرآن، لايكفي، بل على ذلك أن يستمر بعد خروجهم من الموقف، فيغيرهم الإيمان بما سمعوا ويصبحوا صالحين، وبذلك يكونوا قد أحسنوا الإصغاء، وأحسنوا التفاعل، والعمل بعد هذا الإصغاء.

﴿٨٦﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

وردت هذه الآية كاملة مرتين، مرة كما تقدّم في الآية ١٠ وها هي بذات كلماتها السبع، لكن ذلك لايعني بأنها مكرّرة، فقول العبارة في موضع، تكون له دلالاته في موضع آخر رغم العبارة ذاتها، وهذا مما تغتني وتختص به اللغة العربية، وقد أثرى القرآن الكريم هذه الميزة في اللسان العربي، بحيث باتت الكلمة مكتنزة بالمعاني التي تفصح عن مدلولاتها الجديدة كلما استخدمت في موضع جديد، هذا مع بقاء هذه الميزة فيما لو أُعيدت قراءة النص القرآني، ولذلك، فإن قارئ القرآن دوماً يشعر بأنه أمام آية جديدة مهما تعدّدت قراءاته لهذه الآية، وما ذلك إلاّ لأنها تبث إليه معاني جديدة مع كل قراءة، وقد شرحتُ هذا في كتاب (الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن)[٣٠]

بعد بيان الله استجابته للمؤمنين، يبيّن لك هنا: ﴿وَ﴾ أما ﴿الَّذِينَ﴾ لم يؤمنوا، ولم يطمعوا، ولم يخشعوا، وقد﴿كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِ﴾الله لم يدخلهم الله الجنة لأنهم ما طمعوا فيها، وما آمنوا بالحق الذي جاءهم، بل أنكروا الآيات، ﴿وَكَذَّبُوا﴾ الرسول. يُخبر الله بأن ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الصاحب للشيء، هو المداوم على اصطحابه، وهنا يبيّن الله تعالى نهاية كل فريق من الفريقين، ويضع لك حرية أي النهايتين تشاء، وتعقد العزم عليها، فقد كانت الحرية لهؤلاء، وكانت الحرية لأولئك، ولم يرغم أي السبيلين على أحد منهما، وبمقدرته أن يُرغم، وأن يجعل الناس جميعاً في سبيل واحد، بيد أن مشيئته عز وجل قضت أن يتمتع الإنسان بحريته في المعتقد، ويتضح لك أن الله تبارك وتعالى بمحبته للناس، يبيّن لهم النهايتين، وفي ذلك، فإنه يدعوهم للخرج من الباطل، إلى الحق، ومن الضلال إلى الهدى، وفي ذلك تكمن مهمة جميع أنبياء ورسل الله.

[٣٠] الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن، عبد الباقي يوسف، منشورات الاتحاد الاسلامي الكردستاني، أربيل ٢٠١٤

الباب التاسع عشـر

عسـل الطيبات

﴿٨٧﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

لقد جعل الله تعالى للناس الـ ﴿طَيِّبَاتِ﴾ كي يتطيبوا ويتنكهوا ويستلذوا ويتمتعوا بها و ﴿طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ﴾ كثيرة تشمل سائر أشكال ما يحقق الطيب للإنسان، سواء في المأكل، أو المشرب، أو المنظر، أوالجماع، فلا يجوز لك أن تحرم نفسك من هذه الطيبات حتى لو اعتقدت أنك تفعل ذلك من باب الزهد، أو التفرغ للعبادة. فعليك أن تأخذ ما أباحه الله لك، نظير أن تعطي ما أمره الله عليك، ولعل الاعتدال لايكمن إلاّ في التساوي بين الأخذ والعطاء، فإن لم تأخذ حقك، لعل ذلك يؤدّي بك كي لاتعطي الحق المتوجب عليك، سواء حق الله، أو حق الناس، فإن لم تعط لنفسك حقها عليك، يتعذر عليك أن تعطي حق الله، وثم حق الناس. فخذ من الله حقك، وخذ من الناس حقك، وهذا يكون سبيلك كي تعطي حق الله عليك، ثم تعطي حق الناس عليك.

يروى أن أسباط قال عن السدي في قوله: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يومًا فذكر الناس، ثم قام ولم يزدهم على التخويف، فقال ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، كانوا عشرة منهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن مظعون:ما خفنا إن لم نحدث عملا فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم، فنحن نحرم. فحرم بعضهم أن يأكل اللحم والودك، وأن يأكل بنهار، وحرم بعضهم النوم، وحرم بعضهم النساء، فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء وكان لا يدنو من أهله ولا تدنو منه. فأتت امرأته عائشة، رضي الله عنها، وكان يقال لها:الحولاء، فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم:ما بالك يا حولاء متغيرة اللون، لا تمتشطين، لا تتطيبين؟ قالت: وكيف أمتشط وأتطيب وما وقع عليَّ زوجي وما رفع عني ثوبًا، منذ كذا وكذا. قال: فجعلن يضحكن من كلامها، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن يضحكن، فقال: " ما يضحككن"؟ قالت: يا رسول الله، إن الحولاء سألتها عن أمرها، فقالت: ما رفع عني زوجي ثوبًا منذ كذا وكذا. فأرسل إليه فدعاه، فقال: " ما لك يا عثمان"؟ قال: إني تركته لله، لكي أتخلى للعبادة، وقص عليه أمره، وكان عثمان قد أراد أن يَجُبَّ نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك " . فقال: يا رسول الله، إني صائم. فقال: " أفطر " . فأفطر، وأتى أهله، فرجعت الحولاء إلى عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت، فضحكت عائشة وقالت: ما لك يا حولاء؟ فقالت: إنه آتاها أمس، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما بال أقوام حرَّموا النساء والطعام والنوم؟ ألا إني أنام وأقوم، وأفطر وأصوم، وأنكح النساء، فمن رَغِب عني فليس مني " . فنزلت:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾).

فالاعتداء هنا يجوز أن يكون اعتداء الإنسان على نفسه، بأن يحرمها حقها من ﴿طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ﴾ فلم يجعل الله الـ ﴿طَيِّبَاتِ﴾ حتى ينظر إليها الإنسان بحسرة ويحرم نفسه منها، بل عليه أن يعمل ليحصل عليها ويتمتع بها، وكذلك يسهم في إنتاجها، فإن حرم نفسه منها، لن يكون له أن يسهم في إنتاجها كونه يراها معيقة للعبادة، ومن ذاك المنظور حرّمها على نفسه، ولذلك يمكن له ألاّ يسهم أيضاً في إنتاجها. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدسم وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني "، ويقول صلى الله عليه وسلم: " ليس في ديني ترك اللحم والنساء، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان واستقيموا يُستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع ".

واعلم بأن الاستجابة لـ اللا تحريم تدخل ضمن عبادتك لله، وأن عدم الاستجابة، يُخرجك عن العبادة كونك لم تستجب لأمره ﴿لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ﴾ فالعبادة لاتقتصر على أمر دون غيره مما أمر الله، بل تشمل كل ما أمر به الله، فلا تحرم الطيبات على نفسك، وكذلك على عيالك، فما تأتي به من رزق طيب حلال إلى عيالك، تكسب به أجراً، وكما جاء في الحديث أنه حتى اللقمة تضعها في فم زوجتك تكسب بها أجراً. وهذا يعني أن هذا الأجر لايكون لك إلاّ إذا متعت نفسك، ومتعتَ عيالك بهذا الطيب. يُروى أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رجلاً كاد يموت تخافتا فقالت : (ما لهذا ؟ قيل : من القراءة والعبادة . فقالت : كان عمر سيد القراءة، وكان أعبد لله منه ، فكان إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا أطعم أشبع).

ويُروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً مطأطأ رأسه ، فقال له عمر : (ارفع رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض ، ولا تمت علينا ديننا ، أماتك الله). وقد بيّنت السنّة بأن المؤمن القوي، خير من المؤمن الضعيف، واليد العليا خير من اليد السفلى.

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه :(مَنْ ابتدأ غذاءه بالطعام الملح أذهب الله عنه سبعين نوعاً من البلاء ، ومَنْ أكل في اليوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه، ومَنْ أكل كل يوم إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير في جسده شيئا يكرهه. واللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب، والبسفارجات تعظم البطن وترخي الإليتين، ولبن البقر شفاء، وسمنها دواء) وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يسأل الأطباء عن عوامل الصحة، فيقولون له :(لاتأكل المطبوخ حتى ينعم نضجه، ولا تشربن دواءً إلاّ عن علة، ولاتأكلن من

الفاكهة إلاّ نضيجها، ولا تأكلن طعاماً إلاّ أجدت مضغه، وكل ما أحببت من الطعام ولا تشربن عليه، فإذا شربت فلا تأكلن عليه شيئاً. ، وإذا أكلت بالنهار فنم، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة). ثمة حكاية تروي أن رجلاً في مقتبل عمره أراد أن يذهب في تجارة ليأتي ببعض الما ل، وفي الطريق رأى ثعلباً مريضاً بالكاد يتحرّك، فوقف سائلاً نفسه: كيف يأكل هذا الحيوان الواهن ؟ وفي أثناء تأمله وشروده بأمر الثعلب، لاح له أسد قوي يحمل فريسة، فجلس بالقرب من الثعلب وبدأ يلتهم فريسته حتى شبع وانصرف. بعد ذلك رأى الثعلب الواهن يزحف إلى بقايا الفريسة فيأكل هو الآخر حتى الشبع وينصرف إلى مكانه . وقف الشاب قائلاً في نفسه : إذا كان الله يبعث أرزاق مخلوقاته جميعاً فما لي أركض وأشقى حتى أُطعم نفسي . وعاد إلى بيته يروي لأبيه قصة الثعلب الذي جعله يعود من نصف الطريق . فاستاء منه الأب وقال له بأنه على خطأ، فليس المهم أن يأكل، بل من أين أتى بهذا الطعام، وقال له بأنه يريد له أن يكون أسداً تأكل الثعالب من فضلاته، لا أن يكون ثعلباً واهناً يأكل بقايا السباع.

ففي هذه السورة نجد أن الله تبارك وتعالى أنزل مائدة على قوم عيسى عليه السلام كي يأكلوا منها، ولا تقتصر المائدة على ما كان عليها من الطعام، وقد انتهى كل شيء، بل هي رمز لمائدة الله المفتوحة عبر الزمن للناس في كل وقت، مائدة الله الغنية بكل ألوان وأشكال الطعام والشراب، ومهما كثر أعداد الناس، مهما أكلوا من هذه المائدة المفتوحة، فإنها لاتنتهي، بل كلما أكلوا منها، زادت، واغتنت من فضل الله، ولذلك مهما أكل وشرب الإنسان مما على هذه المائدة من طعام وشراب، فلا يستطيع أن يبلغ كل ما عليها، لأن دوماً يكتشف، ويتذوّق ما لم يكتشفه، ولم يتذوّقه من قبل، بل حتى ما يعود إليه، دوماً يتجدّد فيشعر بأنه يتناول هذا الطعام لأول مرة رغم كل تلك المرات التي أكل فيها هذا الطعام.

﴿٨٨﴾

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾

فحتى الاستجابة لأمر الله بالتمتع﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً﴾ يكون من التقوى، لأنك تتقي بالطيب من الخبيث، وبالحلال، من الحرام، فهذا الحلال رزقك الله به، وكأنك عندما تحرم نفسك به، تردّه على الله، فتقول له بأنك لاتريد هذا الحلال. لأنك لا تأكله وقد رزقك الله به، فجاء الأمر حاسماً ﴿وَكُلُواْ﴾ أي عليك أن تطيع الأمر مادام الطيب قد رزقك به الله، وأنك تشتهيه، وأن صحتك تتقبله، وهو طيّب ونافع ويمدّك بالطاقة، ثم لعل هذا الطيّب يزيدك طيباً، ولعل امتناعك عن التطيّب بالطيب يؤدي إلى تحجيم الطيب الذي أنت فيه، فاعلم أن مجرّد طاعة الله في أمره هو من الطيب، فالطيّب هو الذي يطيع الله، فالرفض هو من المعصية مادمت تشتهيه، وتبغيه، وقد أتاحه الله لك وتبتغيه، بيد أنك تحرم نفسك منه، ثم تحرم عيالك منه، فهو رزق رزقك الله به، ودعاك إلى الانتفاع به. فقد أمرك الله بالاّ تجعل نفسك في كبت، لأن

عاقبة الكبت غير محمودة، فإن رغبت في امراتك، ترى بأن الله أمرها نظير ذلك أن تستجيب لك، وأنها لا تملك حق الامتناع، لأنها بذلك ستجعلك تمضي الليلة مكبوتاً، قامعاً رغبتك، وفي تلك الليلة ذاتها ستكون حليلتك عرضة للعنة الملائكة حتى الصباح، كما في الحديث، وفي رواية:"حتى تراجع وتضع يدها في يده". لأنها عصت الله وحرمته من طيّب أحله الله له. ثم أن عيالك يبتغون ما طاب من طعام، وما لذ من شراب، وقد جعلك مسؤولاً عليهم، وأودع بيدك رزقهم كي تنفقه، فليس لك أن تمسك عليهم نعمة الله، كما ليس لك أن تمسك عن نفسك نعمة الله. ولذلك يُستحسن لسيدة البيت أن تحسن طهي الطعام وتتفنن فيه حتى يكون شهياً، وهي بذلك تقدّر النعمة، وتحسن طهيها، وتقديمها على أطباق شهية، وهذا بمثابة شكر منها لله الذي رزقها بهذا الطعام، والشكر يكون بحسن الاستخدام، وحَسن التقديم، والعناية الفائقة، فمهما كان الطعام طيباً في أصله، يمكن لسوء الطهي، أن يفسد هذا الطعام، فيفقد الشهية إليه، كونه قد احترق، أو لم ينضج بعد، أو به زيادة، أو نقص في بعض المنكّهات، أو الأملاح، فدخولها إلى مطبخها لإعداد الطعام لعائلتها، وبذلك الجهد في ذلك، يكون لها من باب الجهاد، فهذا هو جهادها في سبيل عائلتها، فالجهاد ما يجهد به الإنسان في سبيل طاعة الله، ولذلك فإن مطبخ سيدة البيت يتحوّل إلى مسجدها، لأن ما تقوم به في هذا المطبخ، إنما هو شكل من أشكال الصلاة، فتقدّم مائدة الطعام الشهية إلى عائلتها، وقد أحسنت إعدادها، وهي تقول لهم: ﴿**كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً**﴾.

ومما يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يحب اللحم ويقول بأنه سيد الطعام في الدنيا والآخرة . وكان كذلك يأكل القثاء بالرطب والملح . وكان صلى الله عليه وسلم يحب الهندباء والبقلة والباذروج، وكان يأكل اللبن والتمر ويسميهما :" الأطيبين " ولم يكن يأكل من الشاة سبعاً : الذكر ، الأنثيين ، المثانة ، المرارة ، الغدد ، الحيا ، الدم ، بالإضافة إلى أنه لم يكن يحب أكل الكليتين . ومن دعائه :" اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا " رواه الحاكم والترمذي، فالإنسان الخاسر لصحته هو بذات الوقت خاسر لعقله وفكره وعمله لأن قوة الإنسان هي مصدر أي حركة تبدر منه وقد بيّن لنا النبي :" من أصبح منكم في سربه ، معافىً في جسده ، وعنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها "رواه البخاري وابن ماجة. ويُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين سمع عائشة تقول :(اللهم إني أسألك العفو والعافية)فقال لها :" لقد دعوتِ بخيَري الدنيا والآخرة ".﴿**فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾النحل١١٤

﴿٨٩﴾

﴿**لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾

هذه الآية مُستأنفة للآية السابقة، فهؤلاء الذين أقسموا بالاّ يقربوا ما أحل الله وفق حسن نيّة، وقد ظنوا أن ذلك يكون لزيادة الإيمان، فما الذي سيفعلوه بعد أن نهاهم الله عن ذلك، وايضاً نهاهم الرسول كما تبيّن في الحديث. يقول الله لهؤلاء: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ واللغو بمعنى أن تحلف على شيء، وتعتقد بأنه صواب، ثم يتبيّن لك بأنه غير صواب، و﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُاللّهُ﴾ يجوز أن يُسقط هذا كفارة اليمين، فلم يقل الله بالكفارة، بل بعدم المؤاخذة. روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (لغو اليمين، ما لم يعقد عليه الحالف قلبه) كذلك يمكن أن يكون اليمين دون قصد مثل ذكر والله ضمن الحديث دون قصد الحلفان، وعند الشافعي فإن اللغو في القسم يكون :(عند اللجاج، والغضب، والعجلة). روي (أن عبدالله بن رواحة كان له أيتام وضيف، فانقلب من شغله بعد ساعة من الليل. فقال: أعشيتم ضيفي؟ فقالوا: انتظرناك؛ فقال: لا والله لا آكله الليلة؛ فقال ضيفه: وما أنا بالذي يأكل؛ وقال أيتامه: ونحن لا نأكل؛ فلما رأى ذلك أكل وأكلوا. ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال له: " أطعت الرحمن وعصيت الشيطان "

ثم يقول الله بالكفارة في حال : ﴿وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُمُ﴾قصدتم وعمدتم﴿الأيمَانَ﴾ جمع يمين، وهنا قد اختلف الحلفان، فأنت الآن تعقد على شيء ما وتحلف بأنك لاتفعله، أو ستفعله، ثم تغيّر رأيك لسبب ما، فتتراجع عن حلفانك، ولأن الله تعالى لايشدّد عليك، ولا يُرغم عليك أن تعمل بما أقسمت بالله عليه، أو ستبوء بغضبه، فقد أعطاك حق هذا التراجع إن رأيت فيه صالحاً لك أو لغيرك، ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾وهنا يأتي عفو الله وتيسيره ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾إذن يرفع الله تعالى مؤاخذته عنك في يمينك الذي تراجعت عنه،﴿الأيمَانَ﴾ رُوي عن النبي صلى الله عليه سلم أنه قال:" من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير "

والكفارة هنا بمثابة التماس الصفح من الله، وطلب الإذن منه، فتلمس منه تبارك وتعالى الصفح، والإذن على ما بدرمنك، فيصفح عنك الله، ويأذن لك بالتراجع عن حلفانك به، وهنا يُرتب الله عليك ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾وهذا تعزيز للمشاعر العائلية المشتركة بين الناس، فأنت ستطعم ﴿عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾وخيار الطعام ليس لك، بل لله سبحانه وتعالى، فقد أمرك أن يكون الطعام ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾فليس مما فضل، أو مما دون، بل ﴿مِنْ أَوْسَطِ ﴾والوسطية، هي المعتدلة، أي تكون عادلاً في﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ مما تطعم به أهلك، تقول أسماء بنت أبي بكر وفق ما أخرج ابن مردويه: (كنا نعطي كفارة اليمين بالمدّ الذي نقتات منه)

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ولعلك ترى أن المسكين يحتاج إلى كسوة، أكثر من حاجته إلى الطعام، كون الطعام موفور لديه، أو لعلك تخيّره بين الطعام والكسوة، فقد وسّع الله عليك، بـ الـ ﴿أَوْ﴾التخييرية، فجعل لك الخيار،

والكسوة كذلك تكون وفق جودة ما تكسي عيالك، إذا أخذنا القياس على الطعامفيكون المقاس ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ مِنْ أَوْسَطِ مَا﴾تكسون ﴿أَهْلِيكُمْ﴾

ثم خيار ثالث: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ التحرير يكون لِمن لايملك حريته، بل تكون حريته مرتهنة لدى غيره، ولدى دفع بعض المال، يتم إطلاق حرية هذا الشخص، فيُصبح متمتعاً بكامل حريته، ولهذا قد تتفرع فروع من التحرير مع مرور الزمن كون الإسلام نهى بتدرّج الرق والعبودية، لكن لبثت الفروع التي يفقد فيها شخص ما حريته سواء بسبب الأسر، أو بسبب دَين ترتب عليه، إلاّ أنه عجز عن الدفع، أو غرامة وقعت عليه بسبب ارتكاب مخالفة، ولذلك فقد تم وضعه في السجن ريثما يتم التسديد، أو يقضي وقتاً نظير هذا المال الذي لايمكنه تسديده، أو لعل شخصاً يتوارى عن الأنظار في بيت مهجور حتى لايراه أحد بسبب بعض الدين الذي يعجز عن سداده، أو لعله سجن نفسه في البيت ولايخرج كي لايراه الدائن، فهذه التفرّعات قد حجزت حرية هذا الشخص لأسباب طارئة وقعت عليه، أو لحسابات خاطئة كان يحسبها، وبذلك فإن قد توقف عن عمله، وعن إطعام أسرته، وعن ممارسة طبيعة حياته الاجتماعية في الخروج من البيت ، أو الظهور للعيان، فهذا الخيار الثالث يمكن أن يُستفاد منه في تفرّعات حجز الحرية بعد إلغاء الرق والعبودية، وقد جاء هذا الخيار في المرتبة الثالثة، وهذا يعني أن الذي يختاره، يكون ميسوراً كون الشخص لايتعرّض لكل هذه الأشكال لحجز حريته الشخصية بسبب مبلغ زهيد، فإذن يكون التحرير هنا بمثابة فك كربة عن إنسان، وتفريج هم عن عائلته، وعودته إلى عمله، وإلى حياته الطبيعية. يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" ما من مسلم يعتق امرأ مسلما إلا كان فكاكه من النار كل عضو منه بعضو منها حتى الفرج بالفرج ".

ولعلك لم تجد مسلماً، بل رأيت غيره في تلك الضائقة، وأنت قادر أن تحرّره، فهل تقدم على ذلك، أو تتردد لأنه غير مسلم، فمع حق الحرية الشخصية لسائر الناس، لم يذكر الله الإيمان مع الرقبة، وقد لبثت الحرية من حق أي شخص، وظاهر الآية يُبقي ذلك مفتوحاً للجميع، فيمكن أن تحرّر أي شخص سواء أكان مسلماً، أو غير مسلم. وقد جاءت الكفارة ثلاث مرات مطلقة، في كفارة الطهارة، وكفارة الجماع في رمضان ، والآن في الحنث باليمين، وقد وردتْ مقيّدة في كفارة القتل.

بدأت الخيارات بالأدنى لتشمل أوسع شرائح الناس، فالناس جميعاً يأكلون، وليس بالضرورة أن يتم إطعام الجميع من وجبة واحدة، أو في يوم واحد، بل يمكن أن يتم التقسيم وفق عدّة أيام على قدر المستطاع، ومما تأكل العائلة، فإن لم تملك من الخيارات الثلاثة شيئاً، لأن ما تكسبه بالكاد يكفي قوت عيالك وكسوتهم، ولاتملك تحرير رقبة. هنا يتيح لك الله خياراً إضافياً ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾من الخيارات الثلاثة﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وقد رأيت أن الصوم جاء مُضافاً في النهاية، ومشروطاً بعدم الوجود، فليس لك أن تأتي الخيار المُضاف، وأنت قادر على أي الخيارات الثلاث، فقد جاءت الأولوية متدرّجة.

﴿٩٠﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

تخصيص الخطاب لـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فبعد أن ﴿آمَنُوا﴾وخرجوا من الضلالة إلى الهدى، يبيّن الله لهم: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ المسكر ﴿وَالْمَيْسِرُ القمار ﴿وَالْأَنصَابُ الأوثان و كانوا ينصبونها ﴿وَالْأَزْلَامُ﴾القداح، فما ذكر من المسميات ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ ، ذلك مما يدخل فيه الشيطان، ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تجتَب المذكور، وفي ذلك بقاء الإنسان في طبيعته، فهو يلبث في وعيه، ويلبث عاملاً ومنتجاً كي يكسب، وهو يكسَب، ويُكسِب، وفي القمار، الذي يكسب لايُكسِب، ولاينتج، ﴿وَالْأَنصَابُ﴾لاتقدم نفعاً لأحد، كذلك﴿وَالْأَزْلَامُ﴾من شأنها أن تصرف الناس عن التوكل على الله.

﴿٩١﴾

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾

يبيّن الله تعالى بأن الشيطان يهدف من خلال ﴿الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ إلى إيقاع ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾بين المؤمنين، فمع السكر قد لايتحكّم السكران بعثرات لسانه، أو لعله يفشي سرّاً من شأنه أن يواجَه بردّ فعل من قبل شخص آخر في ذات الجلسة، أو في مكان آخر عندما يتسرّب إليه السر، ولعل ﴿الْعَدَاوَةَ﴾منسوبة إلى ﴿الْخَمْرِ﴾في الآية، ﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾منسوبة إلى ﴿الْمَيْسِرِ﴾ كون الخاسر لماله لايملك إلاّ أن يبغض الذي أخذ منه ماله، كما أن الذي يحب شخصاً، فإنه ينفعه، ولايضره، فالجلوس إلى الميسر بين شخصين، يعني أن كل واحد منهما يريد أن يوقع الخسارة بالآخر، وكلما ربح أحدهما، خسر الآخر، ولذلك فهو يسعى إلى خسارة الآخر بما يمكن لأن ذلك يكون ربحاً له، فبنية العلاقة بين المقامرين قائمة على ﴿الْبَغْضَاءَ﴾ولولاها لما وقع بينهم﴿الْمَيْسِرِ﴾بل وقع ما يمكن أن يقدّموا نفعاً لبعضهم البعض، وبذلك، فإن كل واحد يفرح على قدر ما يصيب صاحبه من النفع، في حين أن الميسر يجعل أحد المقامرَين يستاء ويبغض كلما كسب الآخر، فأول ما يفكر به المقامرون، هو أنه كيف يوقع أحدهم الخسارة بالآخر، وأن هذا الآخر كلما كانت خسارته فادحة، سرّ الرابح. وَفي ذلك ﴿يَصُدَّكُمْ﴾الشيطان ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فلا تدعوا الشيطان ينال منكم ما يريد.

﴿٩٢﴾

﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾

فما دمتم قد آمنتم بالله ورسوله، عليكم بطاعة الله ورسوله، وكونوا في ذلك على حذر﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الطاعة، واتبعتم خطوات الشيطان ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ فكونوا على علم أن الرسول يقوم بما عليه من بلاغ، وقد تبيّن لكم الرشد من الغي، فجاء الحذرمع العلم، أي كونوا على حذر من المعصية، بعد أن علمتم.

﴿٩٣﴾

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

يمكن أن تكون ﴿طَعِمُواْ﴾للطعام، ويجوز أن تكون للشراب، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ البقرة ٢٤٩ فنجن إزاء تخصيص الحديث عن الطعام والشراب، وذلك من الآية ٨٧، وقد لبث الأمر مستمراً في إباحة الطعام والشراب بما أحل الله، بل نهى الله أن يتقشف الإنسان في ذلك كما تبيّن، ثم تحوّل المسار مع الخمر كون المسلمين كانوا يتناولونها رغم وجود الآيتين السابقتين فيها:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾البقرة٢١٩

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾النساء ٤٣

روى البخاري عن أنس قال: (كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة فنزل تحريم الحمر، فأمر مناديا ينادي، فقال أبو طلحة: اخرج فانظر ما هذا الصوت قال: فخرجت فقلت: هذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حرمت؛ فقال: اذهب فاهرقها - وكان الخمر من الفضيخ - قال: فجرت في سكك المدينة)

قيل: (قد تأول هذه الآية قدامة بن مظعون الجمحي من الصحابة رضى الله عنهم، وهو ممن هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه عثمان وعبدالله، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرا وعُمِّر. وكان ختن عمر بن الخطاب، خال عبدالله وحفصة، وولاه عمر بن الخطاب على البحرين، ثم عزله بشهادة الجارود - سيد عبدالقيس - عليه بشرب الخمر. روى الدارقطني قال: حدثنا أبو الحسن علي بن محمد المصري، حدثنا يحيى بن أيوب العلاف، حدثني سعيد بن عفير، حدثني يحيى بن فليح بن سليمان، قال: حدثني ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس: أن الشرّاب كانوا يضربون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأيدي والنعال والعصي حتى توفي، رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا في خلافة أبي بكر أكثر منهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان أبو بكر يجلدهم أربعين حتى توفي، ثم كان عمر من بعده يجلدهم كذلك أربعين حتى أتي برجل من المهاجرين الأولين وقد شرب فأمر به أن يجلد؛ قال: ليم تجلدني؟ بيني وبينك كتاب الله! فقال عمر: وفي أي كتاب الله تجد ألا أجلدك؟ فقال له: إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿لَيْسَ

عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾الآية. فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا؛ شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها؛ فقال عمر: ألا تردون عليه ما يقول؛ فقال ابن عباس: إن هؤلاء الآيات أنزلت عذرا لمن غبر وحجة على الناس؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾الآية؛ ثم قرأ حتى أنفذ الآية الأخرى؛ فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، الآية؛ فإن الله قد نهاه أن يشرب الخمر؛ فقال عمر: صدقت ماذا ترون؟ فقال علي رضي الله عنه: إنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة؛ فأمر به عمر فجلد ثمانين جلدة.

وذكر الحميدي عن أبي بكر البرقاني عن ابن عباس قال: لما قدم الجارود من البحرين قال: يا أمير المؤمنين إن قدامة بن مظعون قد شرب مسكرا، وإني إذا رأيت حقا من حقوق الله حق علي أن أرفعه إليك؛ فقال عمر: من يشهد على ما تقول؟ فقال: أبو هريرة؛ فدعا عمر أبا هريرة فقال: علام تشهد يا أبا هريرة؟ فقال: لم أره حين شرب، ورأيته سكران يقيء، فقال عمر: لقد تنطعت في الشهادة؛ ثم كتب عمر إلى قدامة وهو بالبحرين يأمره بالقدوم عليه، فلما قدم قدامة والجارود بالمدينة كلم الجارود عمر؛ فقال: أقم على هذا كتاب الله؛ فقال عمر للجارود: أشهيد أنت أم خصم؟ فقال الجارود: أنا شهيد؛ قال: قد كنت أديت الشهادة؛ ثم قال لعمر: إني أنشدك الله! فقال عمر: أما والله لتملكن لسانك أو لأسوءنك؛ فقال الجارود: أما والله ما ذلك بالحق، أن يشرب ابن عمك وتسوءني! فأوعده عمر؛ فقال أبو هريرة وهو جالس: يا أمير المؤمنين إن كنت في شك من شهادتنا فسل بنت الوليد امرأة ابن مظعون، فأرسل عمر إلى هند ينشدها بالله، فأقامت هند على زوجها الشهادة؛ فقال عمر: يا قدامة إني جالدك؛ فقال قدامة: والله لو شربت - كما يقولون - ما كان لك أن تجلدني يا عمر. قال: ولم يا قدامة؟ قال: لأن الله سبحانه يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾الآية إلى ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ . فقال عمر: أخطأت التأويل يا قدامة؛ إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله، ثم أقبل عمر على القوم فقال: ما ترون في جلد قدامة؟ فقال القوم: لا نرى أن تجلده ما دام وجعا؛ فسكت عمر عن جلده ثم أصبح يوما فقال لأصحابه: ما ترون في جلد قدامة؟ فقال القوم: لا نرى أن تجلده ما دام وجعا، فقال عمر: إنه والله لأن يلقى الله تحت السوط، أحب إلي أن ألقى الله وهو في عنقي! والله لأجلدنه؛ ائتوني بسوط، فجاءه مولاه أسلم بسوط رقيق صغير، فأخذه عمر فمسحه بيده ثم قال لأسلم: أخذتك دقرارة أهلك؛ ائتوني بسوط غير هذا. قال: فجاءه أسلم بسوط تام؛ فأمر عمر بقدامة فجلد؛ فغاضب قدامة عمر وهجره؛ فحجا وقدامة مهاجر لعمر حتى قفلوا عن حجهم ونزل عمر بالسقيا ونام بها فلما استيقظ عمر قال: عجلوا علي بقدامة، انطلقوا فأتوني به، فوالله لأرى في النوم أنه جاءني آت فقال: سالم قدامة فإنه أخوك، فلما جاؤوا قدامة أبى أن يأتيه، فأمر عمر بقدامة أن يجر إليه جرا حتى كلمه عمر واستغفر له، فكان أول صلحهما).

قال جل ثناؤه: ﴿لَيْسَ﴾ أداة نفي، واقترن النفي بذكر التقوى ثلاث مرات.قال محمد بن جرير: (الاتقاء الأول هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول، والتصديق والدينونة به والعمل، والاتقاء الثاني، الاتقاء بالثبات على التصديق، والثالث الاتقاء بالإحسان، والتقرب بالنوافل).

الباب العشرون

الصيد

﴿٩٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

الصيد من المصادر الأساسية في الكسب، فجاء قول الله بأنه يختبرهم بالتوقف عن الصيد عند الإحرام، ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ ليختبرن طاعتكم، وقد بيّن الله ﴿الصَّيْدِ﴾الذي﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾وهو الذي يُصطاد بالأيدي، ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ ما يكون من خلال الرماح، فالذي يخاف الله، يستجيب لأمره، وأما الذي يعتدي على حدود الله، فإنه سيلقى جزاء ذلك عذاباً أليما نتيجة هذا الاعتداء. قال مقاتل بن حيّان: (ابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون عام الحديبية حتى كانت الوحش والطير تغشاهم في رحالهم، فيقدرون على أخذها بالأيدي، وصيدها بالرماح، وما رأوا مثل ذلك قط، فنهاهم الله عنها ابتلاءً).

من خلال هذا الاختبار الذي يجعله الله للمؤمنين في الصيد، يُظهر المؤمنون مدى طاعتهم لله سبحانه وتعالى، وبذلك فإن الابتلاء يكون من الأسباب التي يتخذها المؤمن من أجل الترسخ في الإيمان.

﴿٩٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾

بعد بيان الله جل جلاله، بالحكمة من الابتلاء، يأتي الأمر بصيغته المباشرة بالنهي ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ لكن لعل مؤمناً خالف الأمر ليس استكباراً، أو رفضاً، بل لضعف، أو طمع ما، ثم ندم على صنيعه. يبيّن الله: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾وهنا نرى المؤمن يعبّر عن استجابته لأمر الله، فلو كان من منطلق الاستكبار على الأمر، للبث في استكباره، ولذلك فنحن مع حديث الله للمؤمنين دون غيرهم، وكيفية إصلاح ذات بين المؤمنين، فالله جل ثناؤه يبيّن لهم كيفية معالجة ما تقع من أخطاء، حتى يلبثوا على الصراط المستقيم، ولا يسلكوا المنعرجات الملتوية التي من شأنها أن تخرجهم عن استقامة الصراط، وهذا ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾وقدجعل الله ذلك للمعتدي ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ حتى يعلم بأنه أخطأ، وأنه يتوب عن

خطيئته، فما أخذه هناك بغير رخصة من الله، يعيده هنا﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾وقد من الله على المخطئ بأن جعل خطيئته تلك من الماضي الذي وقد﴿سَلَفَ﴾ لكن إذا عاد ذاك الشخص وكرّر الاعتداء، ﴿فَ﴾يكون جزاؤه أن﴿يَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ وقد جاءت كلمة ﴿انتِقَامٍ﴾ لأن هذا المعتدي بعد أن بيّن الله له، وبعد أن تجاوز عنه، فهو يكرر ذلك، وبالعودة إلى قوله تبارك وتعالى﴿لِيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ﴾ يتبيّن بأن هذا المعتدي لم يأخذ شيئاً نافعاً من هذا الاختبار، وكأن الاختبار ليس له كونه يعاود التجاوز، وهنا يكون تخصيص الحديث عن حالة الصيد في الحرم.

﴿٩٦﴾

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تحشَرُونَ﴾

يتضح لك في هذه الآية ما جاء في قوله﴿لِيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾ فهو شيء، والشيء، يعني الجزء، والجزء تبيّن هنا بأنه ﴿صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾دون أن يشمل ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ فقد أحله الله ﴿لَّكُمْ﴾﴿وَ﴾كذلك ﴿لِلسَّيَّارَةِ﴾ جمع سيّار، وهو الذي يسير، أو المسافر، بمعنى هو حل لكم سواء أكنتم في بيوتكم، أو كنتم في سير، فيجوز لكم التمتع بـ ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾.

والتحريم هنا جاء من الحَرَم، والإنسان في الحرّم يسعى إلى العفو والمغفرة من ربه، والصيد في جميع الأحوال هو حيلة يتحايل بها الإنسان على الحيوان كي يصطاده، سواء إن باغته في عشه، أو حاصره في مكان، واصطاده بيده، أو باغته بالرمح، لأن الحيوان إن شعر بوجود الإنسان، فرّ بعيداً عنه، لذلك فإن الذي يصطاد، يكون على حذر كي لا يتراءى للحيوان الذي يريد صيده، وهو مقتصر على الحيوانات البرّية، لكن الأمر مختلف بالنسبة للحيوانات الأهلية، فيمكن له أن يأخذ ما يشاء من الأنعام، والطيور التي يملكها، أو يشتري ما يشاء، كونه لايصطادها، بل يأخذها من بيته، أو يشتريها كي يذبحها سواء للأضحية، أو ليأكلها، ولذلك اقتصرت الأضاحي على الأنعام، ولايجوز أن تكون الأضحية من صيد البر سواء اصطادها المرء بنفسه، أو اشتراها ممن اصطادها له، أو أهديت له لأنه﴿حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾ويُروى عن عائشة رضي الله عنها : (أن وَشِيقة ظبي أهديت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محرم، فردّها)، وفي حديث الصعب بن جثامة الليثي، أنه أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حمارا وحشيا، وكان ذلك عندما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيفاً وكان جثامة رامياً، فحمل الرمح وذهب للصيد، ثم جاء بحمار وحشي، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقبله. قال : فلما أن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في وجهي

قال: " إنا لم نرده عليك إلا إنا حرُم "[31] قال ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم قال﴿وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ في الآيتين السابقتين، جاء قوله تبارك وتعالى هنا:﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

فأمر بالتقوى، وذكّر بأن الرجوع إنما يكون إليه، وجاءت كلمة الحشر، لتذكر بالحساب، فالناس يُحشرون ليروا أعمالهم. فإن الاعتداء على حدود الله يجعل المعتدي معرضاً لـ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وكذلك ﴿فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ﴾ وأنه سوف يُحشر إليه. فالسبيل إلى رضوان الله، هو التقوى، واتباع ما أمر الله.

﴿٩٧﴾

﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

يكعب الشيء، بمعنى يمتاز، ويعلو شأنه، وقد ميّز الله الكعبة، وعلا من شأنها، و ﴿الْكَعْبَةَ﴾ في ظاهر الكلمة تعني الشكل المكعّب، و﴿الْكَعْبَةَ﴾ مكعّبة الشكل، فهي تتبوأ بمنزلة رفيعة عند الله تعالى، وقد رفع من شأنها، ﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ﴾في مكة﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أي ﴿جَعَلَ اللّهُ﴾ له بيتاً في مكة، فأصبح هذا البيت بيت الله الحرام، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إن الله تعالى حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض". وقد حدث الإسراء من مكة، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾الإسراء١ و﴿الْكَعْبَةَ﴾ هي قبلة المسلمين في كل مكان، ثم ﴿قِيَاماً لِّلنَّاسِ﴾ أي سبباً في استقامتهم، فالناس يقومون إليها ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾الحج٢٧ حتى يصبحوا أكثر استقامة، لأن مناسك الحج ترفع الدرجات، وهم بذلك يطيعون أمر الله ما استطاعوا إليه سبيلا﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ فهو شهر أمن وأمان، والناس يأمنون بعضهم بعضاً حتى الذين بينهم عداوات، فلا يجوز لهم أن يثأروا، بل يشمل الأمن والأمان حتى صيد البر ﴿وَالْهَدْيَ﴾ ثم يصيب الناس الخير في هذا الشهر من خلال الأضاحي التي يتم توزيع لحومها على الناس ﴿وَالْقَلاَئِدَ﴾ التي يتم تخصيصها لـ ﴿الْهَدْيَ﴾ وهي تتميّز عن غيرها بتقليدها هذه ﴿الْقَلاَئِدَ﴾ فلا أحد يقربها في طريق الذهاب إلى الحج، كونها من ﴿الْهَدْيَ﴾ إلى ﴿الْكَعْبَةَ﴾فنحن أمام أمن وأمان، ثم أمام سعة الخير، أمام الحرية، أمام إمساك النفس عن الثأر، أو الاعتداء، أو السطو على المسافرين، وكل هذه العوامل تؤسس لترسيخ هذه القيم في سلوكيات الناس .

﴿٩٨﴾

---

[31] رواه البخاري أبواب الإحصار وجزاء الصيد، باب إذا أهدي للمحرم حماراً وحشياً حيا لم يقبل، حديث رقم ١٧٢٩ ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم الصيد للمحرم، حديث رقم ١١٩٣عن الصعب بن جثامة.

﴿اعلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ العِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

في كل ذلك، كونوا على علم بأن عقاب الله يكون شديداً لمن يستكبر، ويصر على المعاصي، ولا يتوب، بيد أنه إن تجاوز حدود الله، ثم ندم على ذلك، وسأل ربه المغفرة، فإن الله يغفر لمن يشاء، ويرحم مّن شاء وقوله عز وجل ﴿اعلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ العِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بمعنى احذروا عقابه الشديد في عنادكم، واستكباركم، وتجاوزكم على حدود الله وعدم التوبة، واسألوه المغفرة والرحمة في توبتكم، وصالح عملكم.

﴿٩٩﴾

﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاَغُ وَاللّهُ يَعلَمُ مَا تُبدُونَ وَمَا تَكتُمُونَ﴾

كل ما تم ذكره، فقد أبلغكم به ﴿الرَّسُولِ﴾، وقد تبيّن لكم الرشد من الغي، و قد جاءكم به ﴿الرَّسُولِ﴾ مبلّغاً إياكم هذا البيان، وبعد أن بلغتكم رسالة الحق من عند الله، وجب عليكم اتباع هذا الحق، وعدم انتهاك حرمات الله الذي لايخفى عليه شيء مـ ﴿مَا تُبدُونَ وَمَا تَكتُمُونَ﴾ فما تفعلوه في العلن ، يعلمه، الله، وما تفعلوه في السر، هو به عليم .

﴿١٠٠﴾

﴿قُل لاَّ يَستَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَو أَعجَبَكَ كَثرَةُ الخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللّهَ يَا أُولِي الأَلبَابِ لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾

يبيّن الله عز وجل بأن قليل ﴿الطَّيِّبُ﴾، لهو خير من كثير ﴿الخَبِيثُ﴾ ، فالغني هو الغني بما لديه من ﴿طَيِّبُ﴾، ولو قل، وليس الغني بما لديه من ﴿خَبِيثُ﴾ ولو كثر، فمهما كثر ﴿الخَبِيثُ﴾ ، فإنه لايستوي قيمة وجودة وبركة بـ ﴿الطَّيِّبُ﴾ مهما كان هذا ﴿الطَّيِّبُ﴾ قليلاً. والآية مفتوحة لقراءات متعددة، فـ﴿الخَبِيثُ﴾ يشمل كل ما هو ﴿خَبِيثُ﴾ ، سواء في الماديات، أو في النفوس، وكذلك هو ﴿الطَّيِّبُ﴾، فيكون الأمر من الله لرسوله ﴿قُل﴾ للناس يا محمد ﴿لاَّ يَستَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ ولو تعجبت يا محمد لكثرة أهل الخبث، فهذه الكثرة لاتستوي قيمة مع قلة أهل الطيب، ﴿وَلَو أَعجَبَكَ﴾ بمعنى ﴿لَو﴾ أثارت الـ ﴿كَثرَةُ﴾لديك العجب، فتعجّبتَ لها، وهذا خلاف الإعجاب، كون الرسول صلى الله عليه وسلم لايُعجب بـ﴿الخَبِيثِ﴾، بل لعلّه يتعجّب من ﴿كَثرَةُ الخَبِيثِ﴾ين، كونه أكثر الناس معرفة بقيمة الطيّب، وكيف أنه سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة، وأكثر الناس معرفة برداءة ﴿الخَبِيثِ﴾، وكيف أنه سبيل الخسارة في الدنيا والآخرة، فالذي يكون مُعجَباً بشيء، يتبعه، بيد أن الذي يتعجّب لشيء، يتحاشاه، ﴿وَ﴾حتى﴿لَو أَعجَبَكَ كَثرَةُ الخَبِيثِ﴾ يا محمد ﴿قُل﴾لهم:﴿لاَّ يَستَوِي الخَبِيثُ﴾قيمة﴿وَالطَّيِّبُ﴾ والكلام موجه للناس

من خلال الرسول صلى الله عليه وسلم، بالاّ يتعجبوا من ﴿كَثْرَةُ﴾ الخبيثين، وقلة الطيبين إذا وجدوا ذ لك في أي زمان، أو مكان. وفي الحديث" ما قلّ وكفى، خيرٌ مما كثر وألهى " فأهل الخبث لا يفلحون، في حين أن أهل الطيب يفلحون، ثم جاء القول للناس ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾بأن تكونوا طيبين ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لأن ﴿الطَّيِّبُ﴾ هو السبيل إلى الفلاح.

﴿١٠١﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

نهى الله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أن يـ ﴿ سَأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ ﴾ فما هي هذه الـ ﴿أَشْيَاءَ﴾ التي أمرهم الله تعالى ألاّ يسألوا عنها، لأن معرفتها سوف﴿تَسُؤْ﴾ هم والأشياء هنا على ما يظهر هي التي يسأل عنها المؤمن، ولاتنفعه، بل لاضرورة لسؤالها. عن علي رضي الله عنه قال:(لما نزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾- آل عمران ٩٧- قال رجل: يا رسول الله أفي كل عام فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما يؤمنك أن أقول نعم؟ والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، فاتركوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه " ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾فهذا شيء من جملة الأشياء التي تتشابه مع ذلك، فإذن هي ﴿أَشْيَاءَ﴾ تركها الله كما تركها، وفي ذلك حكمة، وأما الخوض في هذه الأشياء، فلا نفع فيه، وهو مجلب للمشقة.

ثم يبيّن الله﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا﴾تلك الأشياء﴿حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾وهيأسئلة كان يسألها المؤمنون للرسول صلى الله عليه وسلم، فيأتي القرآن بالجواب ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ البقرة ١٨٩ فهي إذن ﴿أَشْيَاءَ﴾ جمع شيء، أي عدّة ﴿أَشْيَاءَ﴾ من كل شيء، وهي التي لانفع في مساءلتها، لأنها﴿إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ ولا يبقى الأمر منغلقاً على أناس بعينهم، أو وقت زمني بعينه، بل هو مفتوح بما يتفرّع منه، مثل ملاحقة دقائق وتفاصيل الأمور التي لانفع فيها، وهي تستهلك وقت وجهد الإنسان دون جدوى، والسؤال يمكن أن يكون للآخرين، ويمكن أن يكون للنفس، ويتفرّع من ذلك إضاعة الوقت بالتفكير في ﴿أَشْيَاءَ﴾ لالزوم للتفكير فيها، أو السؤال عنها، فيبلغ بعض الناس درجات الوسوسة وهم يفكرون بهذه الـ ﴿أَشْيَاءَ﴾ وهي أوقات يمكن أن تكون للراحة، أو للقيام بعمل، أو لأداء بعض الواجبات، فهؤلاء يمضون أوقاتهم في أفكار، وأسئلة لانفع فيها حتى لو علموا أجوبتها، فالدعوة هنا إلى عدم إضاعة الوقت والجهد فيما لانفع فيه، بل اسألوا عن ﴿أَشْيَاءَ﴾ تنفعكم نظير﴿لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾لاتنفعكم ، والقرآن يجيب عنها﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾يا محمد أجبهم على أسئلتهم و﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾البقرة٢١٥

﴿وَيَسألُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ وَلاَ تَقرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطهُرنَ﴾ البقرة ٢٢٢ ﴿وَاسأَلُوا اللّهَ مِن فَضلِهِ﴾النساء ٣٢ ﴿فَاسأَلُوا أَهلَ الذِّكرِ إِن كُنتُم لاَ تَعلَمُونَ﴾النحل٤٣

وجاءت خاتمة الآية﴿عَفَا اللّهُ عَنهَا﴾عن تلك الأشياء التي أمركم بأ﴿لاَ تَسأَلُوا عَن﴾ها، فقد عفاكم الله من السؤال، وترك ذلك عفواً منه لكم، فهذا الترك فيه نفع لكم ﴿وَاللّهُ غَفُورٌ﴾لذنوب عباده﴿حَلِيمٌ﴾ لايعاجلهم بالعقاب، يوسع عليهم، ولايضيق عليهم، حتى يتوبوا، فيغفر لهم ذنوبهم.

في الحديث الصحيح: " إن الله فرض فرائض فلا تضيّعُوها، وحَدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وحَرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غَيْرَ نِسْيان فلا تسألوا عنها " .

﴿١٠٢﴾

﴿قَد سَأَلَهَا قَومٌ مِّن قَبلِكُم ثُمَّ أَصبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾

لكن لماذا نهاك الله تعالى عن هذه الأسئلة، في هذه الآية يخبرك الله بأن هذه الأسئلة يمكنها أن تودي بك إلى الكفر، فقبل أن تسألها ﴿قَد سَأَلَهَا قَومٌ مِّن قَبلِكُم﴾فلا تكرر ذات الأسئلة حتى لايصيبك ما أصابهم فـ ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد أن سألوها ﴿أَصبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ فقد جلب السؤال الذي لانفع منه ولالزوم له عليهم الكفر.

﴿١٠٣﴾

﴿مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ وَأَكثَرُهُم لاَ يَعقِلُونَ﴾

لم يشرّع ﴿اللّهُ﴾ ما يدّعون أنه من شرعه، فهؤلاء ﴿يَفتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ﴾، فالـ ﴿بَحِيرَةٍ﴾ ليست من شرع الله، قال ابن عباس:(البحيرة هي الناقة التي كانت إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أذنها)

قال الشافعي: (إذا نتجت الناقة خمسة أبطن إناثا بحرت أذنها فحرمت، قال:

محرمة لا يطعم الناس لحمها ولا نحن في شيء كذاك البحائر)

قال أبو عبيدة والزجاج: (الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، وكان آخرها ذكراً شقوا أذن الناقة وامتنعوا من ركوبها وذبحها وسيبوها لآلهتهم، ولا يجز لها وبر، ولا يحمل على ظهرها، ولا تطرد عن ماء، ولا تمنع عن مرعى، ولا ينتفع بها وإذا لقيها المعيي لم يركبها تحريجا)

كذلك ﴿وَلاَ سَآئِبَةٍ﴾ يسيب الشيء، أي يتركه، فهم يسيبونها، ويحرمون الانتفاع بها، إذا تحققت لهم بعض ما يرون مثل قول شخص بأنه إذا عاد من سفره سالماً سوف يسيبها، فتصبح ﴿سَآئِبَةٍ﴾لايجوز لأحد أن

ينتفع بأي شيء منها، ويحرمون حتى ركوبها كذلك ﴿وَلاَ وَصِيلَةٍ﴾ أي التي تلد أنثى، ثم تلد عقبها أيضاً أنثى، فتكون قد وصلت الأنثى بالأنثى، فتمسي ﴿وَصِيلَةٍ﴾ يحرم الانتفاع بها، كذلك ﴿وَلاَ حَامٍ﴾ وهو الجمل، وكان يُضرب حتى يقضي ضرابه المعدود، أعفوه من الحمل. واعلم أن هذه الآية متصلة بالآية ٨٧ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ﴾ فقد أحل الله هذه الطيبات، والذين كفروا يحرمونه تحت مسميات مختلفة، فإذا نظرت إلى ما حرّم هؤلاء، ستراه طيباً، وليس فاسداً، وإذا نظرت إلى ما حرّم الله، ستراه فاسداً، وليس طيباً، كما تقدّم في الآية ٣ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾

يقول الله: ﴿وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ فهذا ليس مما شرّع الله، أن شرع الله هو أن ينتفع الناس بما رزقهم الله من الأنعام، ولذلك جاء البيان الإلهي بالحق، فالناس رغم دخولهم الاسلام، لبثوا على ما هم عليه حتى بدأت الآيات تبيّن لهم شرع الله، وتخرجهم من الضلال إلى الهدى. عن أبي الأحوص الجُشَمي، عن أبيه مالك بن نَضْلَة قال:(أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في خَلْقان من الثياب، فقال لي: " هل لك من مال "؟ قلت نعم. قال: " من أيّ المال"؟ قال: فقلت:من كل المال، من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: " فإذا آتاك الله مالا فلْيُرَ عليك " . ثم قال: " تنتج إبلك وافية آذانها"؟ قال: قلت:نعم. قال: " وهل تنتج الإبل إلا كذلك"؟ قال: " فلعلك تأخذ الموسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول:هذه بحير، وتشق آذان طائفة منها، وتقول:هذه حرم"؟ قلت:نعم. قال: " فلا تفعل، إن كل ما آتاك الله لك حل " ، ثم قال: ﴿مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ ﴾).

الباب الواحد والعشرون

الهدايـة

﴿١٠٤﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

يصرّون على ما هم عليه من ضلال رغم بيان الحق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾من القرآن الذي هو بيان للحق، ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ الذي أرسله الله بالقرآن هداية للناس، لبثوا متشبثين بما هم عليه، و ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فنمضي على خطاهم ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ولم يكن ﴿آبَاؤُهُمْ﴾ على شيء من الهداية في أمرهم.

﴿١٠٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

الخطاب لجميع ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والأنفس، هي أنفس جميع ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ﴿عَلَيْكُمْ﴾ببعضكم البعض﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾والذي ﴿ضَلَّ﴾ عن سواء السبيل فإنكم لاتتحملون مسؤوليته، فهو يتحمّل مسؤولية نفسه، وبالتالي فإنه يضر نفسه بضلاله، وهذا لايعني أن تنعزلوا ولا تأمروا بالمعروف، أو لاتنهوا عن المنكر، بل مع أمركم بالمعروف، ونهيكم عن المنكر، إذا استكبر مَن استكبر، وضل مَن ضل، اثبتوا على إيمانكم، واستأنفوا مسيرة الصلاح، ولاتدعوا هؤلاء يتسببوا في بث اليأس فيكم، فضررهم عائد إليهم وحدهم وليس إليكم ما دمتم قد ﴿اهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى الإيمان ، ومادامو قد ﴿ضَلَّ﴾ وا عنه. وفي ذلك اعلموا أنكم وإياهم ﴿جَمِيعًا﴾ ترجعون﴿ إِلَى اللَّهِ﴾﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يرى كل منكم عمله. روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن أبي أمية الشعباني قال:(أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ فقال: أية آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال: " ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شُحّاً مُطاعا وهوىً مُتبعاً ودنيا مُؤثرةً وإعجابَ كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم " . وفي رواية قيل:(يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: " بل أجر خمسين منكم ").

﴿١٠٦﴾

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾

تبيّن هذه الآية مسألة الشهادة، فهل تقتصر على المسلمين فقط، أم على دونهم أيضاً، فقوله: **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** بالقرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم، لأن القرآن هو تأسيس لتشريع إسلامي، المؤمن بالقرآن هو المسلم به **﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِاثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾** أي من المسلمين، ثم جاء **أوْ** في حال عدم وجود اثنين من المسلمين، فرخّص الله سبحانه وتعالى عندئذ بقبول شهادة مَن هو غير مسلم فـ **﴿مِّنكُمْ﴾** من المسلمين، و **﴿غَيْرِكُمْ﴾** غير المسلمين، وهذا يكون في حال سفر المسلم، وإصابته بمرض، أو بحادث، وأنه لم يجد مسلماً، ، بيد أنه وجد اثنين من أهل الكتاب، و **﴿غَيْرِكُمْ﴾** غير مقيّدة، فيجوز أن تشمل كل مَن هو غير مسلم سواء أكان من أهل الكتاب، أو غيرهم . فهنا أجاز الله رخصة **﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾** ثم قال **﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾**فإذا جاء الشاهدان، لاتتسرعوا في قبول شهادتهما، بل انتظروا، أي دعوا الشاهدّين عندكم إلى ما بعد الصلاة، دون تحديد أي صلاة، لكن عندما حدث ذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وجاءه الشاهدان، حبسهما حتى بعد صلاة العصر، فغدا تحديد الصلاة بصلاة العصر من الستة **﴿فَيُقْسِمَ﴾**الشاهدان**﴿بِاللَّهِ﴾** على شهادة الصدق، وهذا يكون حصراً عند عدم وجود المسلمين، فبوجود هم ، تسقط شهادة غيرهم، كونه مقترن بالـ **﴿أَوْ﴾** عدم حضورالمسلمين ، ولعل هذا التأجيل، يكون بمثابة الانتظار، حيث قد يأتي شاهدان من المسلمين، وعندذاك، تأخذ شهادتهما الأولوية التي جعلها الله. ثم قال **﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾**راودكم شك**﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾** أنهما يبغيان من هذه الشهادة منفعة دنيوية، **﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾** ولعل الموصى له يكون من ذي **﴿قُرْبَى﴾**الشاهدّين، **﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾** أنها لا يكتمان **﴿شَهَادَةَ اللَّهِ﴾**وتأكيداً على ذلك يقولا بأنهما في حال تقديم شهادة الزور **﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾**نتحمّل إثم هذا الزور، فهي **﴿شَهَادَةَ اللَّهِ﴾** التينصدق فيها.

﴿١٠٧﴾

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

لكن لو تبيّن أنهما لم يصدقا في الشهادة، وقد ﴿**اسْتَحَقَّا إِثْماً**﴾عندذاك، يكون اللجوء إلى شاهدّين آخرين ﴿**يَقُومَانُ مَقَامَهُمَا**﴾وكلمة ﴿**عُثِرَ**﴾ تشير إلى إخفاء شيء، ثم يتم العثور عليه، فهما قد أخفيا الحق، ثم تم كشف كذبهما في الشهادة، وأيمانهما بالله، فتم ضبطهما بكذبهما بعد أن أدليا بالشهادة

﴿**فَآخَرَانِ يَقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ**﴾ فإن أحس بعض الورثة بأن ما أدلى به الشاهدان ليس صحيحاً، وهما ليسا موضع تصديق، فعليهما أن يبحثان عن أدلة تثبت بأنهما غير صادقيَن، ويتقدما بهذه الأدلة، ثم يقولا الصدق ﴿**فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا**﴾ وأنهما يقولان الحق، ويبغيان الاعتداء على أحد، بل يبغيان رفع الاعتداء الذي وقع عليهما نتيجة شهادة الجور التي قدّماها، ﴿**وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ وهذه هي أدلتنا الدامغة التي عثرنا عليها، ونحن نعلم بأننا لو اعتدينا عليهما ﴿**لَ**﴾نكون﴿**مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ لأننا نظلمهم في إضاعة حقوقهم، وهذه هي أدلتنا الدامغة التي عثرنا عليها، وهي تثبت عدم صدقهما.

﴿١٠٨﴾

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

هذا الشرع الذي بيّنه الله في الشهادة، يجعل الشهادة ﴿**عَلَى وَجْهِهَا**﴾ لأن الذي ينوي الكذب في الشهادة، يمكن أن يأتي مَن يُظهر الحقيقة، فينكشف كذبه في الناس، والدنو بمعنى القرب، فـ ﴿**ذَلِكَ**﴾الذي شرّعه الله﴿**أَدْنَى**﴾أقرب﴿**أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا**﴾حقيقتها﴿**أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ**﴾لأن المجال مفتوح لِمن يأتي الحقيقة في حال إخفائها، وهذا يُشكّل خوفاً من الفضيحة بالنسبة للكاذب ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾في شهادة الصدق ﴿**وَاسْمَعُوا**﴾اتبعوا ما يبيّن لكم الله من الحق﴿**وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ كونهم يجنحون إلى الفسوق، ولايتقون الله.

﴿١٠٩﴾

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾

يتبيّن في الآية أن الله وحده يعلم ما يضمر الإنسان، وهو وحده يعلم ما يغيب على الناس جميعاً، ومنهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام﴿**يَوْمَ**﴾القيامة عندما ﴿**يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ**﴾الذين أرسلهم لهداية

الناس﴿فَيَقُولُ﴾ لهم : ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ بمعنى ما الذي أنجزتموه من خلال ما أُرسِلتم به ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ فلا يحكمون على ظواهر الأمور، لأنهم لايعلمون ما يخفي الناس، بل يعلمون ما أظهروا، وحيث أن الله يعلم ما يُظهر الإنسان، وما يخفي يكون الجواب ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فقد قمنا بما أمرتنا به، والنتيجة ﴿أَنتَ﴾ تعلمها. و ﴿الْغُيُوبِ﴾ يعني ما يغيب على الإنسان، فهو بالنسبة إليه غيب، لاأحد يعلمه على الإطلاق سوى ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ الذي تكون هذه المعرفة له وحده، ولذلك قالوا ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾وكان يمكن أن يكون ﴿إِنَّكَ﴾ لأنها تعني ﴿أَنتَ﴾ أو يكون ﴿أَنتَ﴾ لأنها تعني ﴿إِنَّكَ﴾، لكن ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ تبيّن تفرّد الله تعالى وحده بهذا العلم.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "نحن نحكم بالظاهر، والله يتولى السّرائر" ويقول: "إنكم لتختصمون لدي ولعلّ بعضكم ألحنُ بحجّته، فمن حكمت له بغير حقه فكأنما قطعت له قِطْعةً من النار".

﴿١١٠﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

وورود النعمة مفردة تعني الجمع كقوله ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾النحل١٨ وذكر النعمة، شكر الله عليها ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾جعلتك قوياً والفاعل إذا كان تقديره أنا، أو أنت، أو نحن، غدا مستترا، وتقديره هنا أنا ﴿أَيَّدتُّكَبِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ومن خلال تأييدي لك غدوت ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ تدعو إلى الحق في صغرك، وفي كبرك ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾الخط ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾العلم﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ﴾تصنع﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ﴾كصورة﴿الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا﴾في الهيأة﴿فَتَكُونُ﴾تصبح الهيأة﴿طَيْراً﴾يطير﴿بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ﴾الأعمى﴿وَالأَبْرَصَ﴾فيبصر الأعمى، ويتعافى الذي به برص ﴿بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى﴾أحياء ﴿بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ﴾منعت﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ﴾عندما هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾بعلامات نبوتك ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أنكروا هذه البينات.

﴿١١١﴾

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾

الوحي هنا بمعنى التوجيه، والإلهام، كقوله: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ النحل: ٦٨ ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ القصص٧ فقد ألهم الله تعالى ﴿الحَوَارِيِّينَ﴾ كي يؤمنوا به وبرسوله عيسى، فكان جوابهم أن قالوا: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ الإيمان يكون في القلب، والإسلام هو تفعيل لهذا الإيمان الذي وقع في القلب، أي ﴿آمَنَّا﴾بك وبرسولك الذي أرسلته إلينا، ﴿ونسلم﴾، أي نعمل بما يحمله منك إلينا.

﴿١١٢﴾

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

والظاهر أنهم أرادوا أن يستقروا في الإيمان والإسلام أكثر وذلك من خلال طلبهم ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾وهذاشكل من أشكال تفعيل الإيمان حيث أقروا أن ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ثم سألوه ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بمعنى هل يستجيب لك ربك، لأنهم لو شكّوا بعدم الاستطاعة لما آمنوا به، روي عن عائشة قولها: (كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ إنما قالوا: هل تستطيع أنت ربك أن تدعوه)، فالإيمان هو بالله القادر على كل شيء ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يجيبهم عيسى عليه السلام ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ التقوى من اليقين، أي أيقنوا بأن الله على كل شيء قدير، ما دمتم قد آمنتم به.

﴿١١٣﴾

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

يقولون بأنهم لم يطلبوا ذلك لأنهم يشكّوا بمقدرة الله، وأنهم آمنوا به ويتقوه، لكننا **نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا** وطلب الأكل للتأكيد بأنها نزلت، والدليل أنهم أكلوا منها، فلم تظهر لهم في ومضة ثم اختفت، بل **نَّأْكُلَ مِنْهَا**وَ ذلك حتى **تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا** الطمأنينة من الاستقرار، فتستقر **قُلُوبُنَا** طمأنينة، ثم **وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا** من جهة أخرى نتأكد بـ **أن** ك **قَدْ صَدَقْتَنَا**وَ إضافة إلى هذا كله

نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي نشهد بهذا لمن لم يشهد هذه المائدة، فنكون بذلك دعاة للإيمان بالله، وبك رسولا من عنده.

﴿١١٤﴾

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

بعد أن شرحوا له الغاية من سؤالهم، يبدو بأنه اقتنع بها، فسأل ربه الاستجابة، ولم يكتف بالسؤال فقط، بل ذكر بعض المنافع التي رآها من خلال نزول هذه المائدة ﴿**قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ**﴾نسألك الاستجابة بأن تـ ﴿**نزِلْ عَلَيْنَا**﴾ فلم يقل عليهم، بل ﴿**عَلَيْنَا**﴾ كونه وافقهم على مطلبهم ورأى - وهذا يكون إضافة إلى ما قدموه من شرح - ﴿**تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا**﴾العيد هو الذي يلبث يعود، فكلّما يحل العيد، تحل ذكرى نزول هذه المائدة، وقيل أنها نزلت يوم الأحد، فالعيد هو الذي يعود كل سنة، ﴿**لِّأَوَّلِنَا**﴾الذين يشهدون هذا النزول، والذين من زماننا، ﴿**وَآخِرِنَا**﴾ كذلك الذين يأتون من بعدنا وَ تكون هذه المائدة ﴿**آيَةً**﴾برهاناً﴿**مِّنكَ**﴾تذكر الناس بقدرتك على كل شيء ﴿**وَارْزُقْنَا**﴾زدنا من رزقك ﴿**وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ لاأحد لنا ليرزقنا غيرك، ومنك يأتي الخير كله ربنا.

﴿١١٥﴾

﴿**قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾

سمع الله تعالى الغاية التي قدمها الحواريون لرسوله، وسمع الغاية التي قدّمها رسوله من أجل نزول هذه المائدة، ﴿**قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**﴾ أستجيب لكم ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ**﴾نزول المائدة﴿**مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ وهذا عذاب استثنائي خاص بهم، نظير طلبهم طلباً استثنائياً من الله. لقد سبق لقوم موسى عليه السلام أن طلبوا منه: ﴿**فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا**﴾البقرة ٦١ لكن هؤلاء لم يطلبوا طعاماً من الأرض، بل طلبوا ﴿**مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ**﴾، ولذلك يكون الكفر بعد هذه الآية العظيمة مجلباً للعذاب الذي يكون لهم نتيجة هذا الكفر. روي أن عيسى عليه السلام(لما أراد الدعاء لبس صوفاً، ثم قال: اللهم أنزل علينا فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وأخرى تحتها، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، وقال لهم ليقم أحسنكم عملاً يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها. فقال شمعون رأس الحواريين: أنت أولى بذلك، فقام عيسى وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل. وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا شوك ولا فلوس تسيل دسماً.

وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله: أمن طعام الدنيا أمن طعام الآخرة؟ فقال: ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله بالقدرة العالية كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزيدكم من فضله، فقال الحواريون: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية

أخرى فقال يا سمكة احيي بإذن الله فاضطربت، ثم قال لها عودي كما كنت فعادت مشوية، ثم طارت المائدة ثم عصوا من بعدها، فمُسِخوا قردةً وخنازير).

﴿١١٦﴾

﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾

إن الله يعلم بأن عيسى عليه السلام لم يقل للناس ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ﴾ولكن ليبيّن الله افتراء القائلين بذلك، فها هو عيسى عليه السلام الذي قالوا في ألوهيته مع أمه ينفي ذلك، والنفي ليس لله، كون الله يعلم ذلك، بل للناس، بمعنى ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ردّ على الذين يقولون ذلك، فيكون ردّ عيسى عليه السلام: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾لايمكن لي أن أقول للناس غير الحق الذي أرسلتني به في عبوديتك، ونشر رسالتك ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾وما دمت ﴿عَلِمْتَهُ﴾ فليس لي أن أخفيه عنك، لأنك ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾فلم أقل ذلك ليس لهم فقط، بل لم أقله حتى﴿فِي نَفْسِي﴾فإذن السؤال هنا من الله سبحانه وتعالى، والجواب يكون للناس، ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ لأحد يعلم الغيب غيرك، وليس لأحد أن يخفي عنك شيئاً.

﴿١١٧﴾

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

أنت ربي وربهم، وقد أبلغتهم ما حملتني إياه، واستجبت لـ ﴿مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ و ﴿قُلْتُ لَهُمْ﴾﴿أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وقد شهدت ما كان يحدث عندما كنت فيهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ تسمع ما يقولون، وترى ما يفعلون ﴿وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لاشيء يكون دون أن تشهده.

﴿١١٨﴾

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

لله سبحانه وتعالى المشيئة في العقاب، أو العفو، يعاقب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء، فهم جميعاً عباده، وهو سبحانه وتعالى ربهم﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يقول عيسى عليه السلام عن الذين أذنبوا ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾بذنوبهم﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وأنت ربهم ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ما اقترفوا من ذنوب﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ القادر على كل شيء، والحكيم في مشيئتك.

قال أبو داود الطيالسي:(حدثنا شُعْبَة قال:انطلقت أنا وسفيان الثوري إلى المغيرة بن النعمان فأملاه علي سفيان وأنا معه، فلما قام انتسخت من سفيان، فحدثنا قال:سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال:قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة، فقال: " يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله، عز وجل، حفاة عراة غُرْلا كما بدأنا أول خلق نعيده، وإن أول الخلائق يُكْسى إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح:﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ★ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾فيقال:إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ").

قال الإمام أحمد:(حدثنا محمد بن فُضَيْل، حدثني فُلَيت العامري، عن جَسْرة العامرية، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال:صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلما أصبح قلت:يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: " إني سألت ربي، عز وجل، الشفاعة لأمتي، فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئا ").

﴿١١٩﴾

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يوم الحساب حيث ينتفع الصادقون بما صدقوا، فقد عملوا في الدنيا بصدق، وصدقوا ما أنزل الله على رسله، فوعد الله أن ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، فقد﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾كونهم صدقوا القول والعمل﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فقد أرضاهم الله جل جلاله ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ حيث فازوا بأعظم ما يمكن للإنسان أن يفوز به.

﴿١٢٠﴾

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يملك الله سبحانه وتعالى ﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ولا أحد يشركه في ملكه، فـ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾إنما هو﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الذي لاشريك له، وكل شيء يخضع لمشيئته، فهو يملك أن يعطي، ويملك أن يأخذ، يفعل ما يشاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقدرته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ هي قدرة بالمطلق، حيث لاشيء يخرج عن قدرة الله عليه.